محمد العروسي المطوي

الحروب الصليبية في المشرق والمغرب

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة



محمد العروسي المطوي

الحروب الصليبية في المشرق والمغرب

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله والحمد لله

مقدّمة الطّبعة الثانية

جاء في مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب أنه كان «. . . وسطاً بين كتاب التلميذ وكتاب الأستاذ، أو بين الكتاب المدرسي والكتاب العام» وقد وجدت أنه رغم مرور هذه السنين الطويلة ونفاد الكتاب منذ زمان فإن الحاجة إليه والرغبة في إعادة طبعه ما تزالان تلحان.

ولعلّ جمع الكتاب للحروب التي يمكن نعتها بنعت «الحروب الصليبية» في كل من المشرق والمغرب هو الذي زاد من تلك الرغبة لعدم وجود الكتاب الجامع لها على هذا النمط من التبسيط والشمول في نفس الوقت.

وإذا زالت عنه صبغة الكتاب المدرسي «منذ زمان» فإن صبغة «الكتاب العام» ما تزال ماثلة حية.

ولهذا عدت إلى الكتاب وأعدت مراجعته دون المس بجوهره وأسلوبه وإنما هو مجرّد زيادة في الضبط والتركيز، وحذف ما لم تبق به حاجة، أو زيادة ما لا ضير منه دون أن يصل كل ذلك إلى اعتباره كتاباً جديداً، أو تأليفاً آخر.

وعلى الله الاتكال.

تونس في: 27 - 1 - 1401 هـ
5 - 11 - 1980 م

محمد العروسي المطوي

تقديم

لفضيلة الشيخ الأستاذ
محمد العربي الماجري

قد أطلعني العالم الفاضل المدرس بالجامعة الزيتونية أدام الله عمرانها الشيخ محمد العروسي المطوي على تأليفه الحروب الصليبية، فأمعنت النظر في جمعيه فألفيته زهرة من زهرات الزيتونة المباركة. ترتيب فصوله في غاية الاحكام، وعبارته واضحة الدلالة على المرام، مما يدل على قوة تمكن المؤلف من سائر موضوعات تأليفه. وذلك دأب المحققين الذين لا تكتفي نفوسهم بظواهر النصوص حتى يغوصوا على معانيها فتنكشف لهم حقائقها واضحة لا شبهة فيها.

وهذا هو السر الذي دعا المؤلف إلى عدم الاقتصار على النصوص العربية، وإن كان في ذلك مشقة على النفس. ولكنها لذة جميلة عند ذوي النفوس العالية، التي تبتغي الكمال في جميع أعمالها. وهذا ما أعرفه في الشيخ المؤلف. وهو ما بعثني لأن اقترح عليه التأليف في هذا الموضوع عند اشتغاله بتدريسه، فكان عند حسن الظن به.

وقد أحسن في تعرضه لأسباب تلك الحروب، وبسط الحالة الاجتماعية التي عليها الفريقان بسطا يكاد القارىء لتأليفه، بعد هذا الوصف، يجزم بمعرفة الغالب من المغلوب، وختمه كل موضوع منها بحديث ممتع عن الآثار العلمية والأدبية والأخلاقية التي خلفتها تلك الحروب، وتذييله كل فصل بخلاصة وافية تضم متفرقاته وتجمع مهماته.
فجزى الله المؤلف خير الجزاء، وأثابه على حسن صنيعه ونفع به وبتأليفه.

محمد العربي الماجري
أستاذ التعليم العالي بالزيتونة

مقدّمة الطبعة الأولى

ألحت علي الرغبة منذ عهد بالاقدام على تأليف كتاب يحقق رغبة في نفسي، ويسد حاجة عند غيري.

والواقع أن الضرورة تدعو إلى تأليف هذا الكتاب (الحروب الصليبية في المشرق والمغرب) لأن مضمونه يدرس بالصفوف الزيتونية. ولا يوجد كتاب يساير المنهج الدراسي؛ فكان المدرس مضطراً إلى التنقيب والبحث والجمع من مختلف المصادر حتى يقدم لتلامذته ما يمكن أن يفي بحاجتهم. وليس في الزيتونة نفسها تخريج أو اختصاص في مادة التاريخ، مما يجعل مهمة المدرس المنتدب لتدريس التاريخ شاقة عسيرة. يضاف إلى ذلك أن تدريس التاريخ بالمعاهد الزيتونية لم يكن منتظماً من ناحية مراحله وشموله. وإذ كانت الحروب الصليبية لها أكبر الاتصال بالتاريخ العام، سيما تاريخ اروبا، كان من الواضح إدراك ما يفاجأ به التلاميذ عندما يدرسون تاريخ هذه الحروب وأحوال الأمم التي شاركت فيها. ودون ريب، يصطدم التلاميذ بالهوة السحيقة التي تفصل بين معلوماتهم التاريخية الماضية وبين المنهج المقبلين على دراسته.

ولذلك كان العمل في هذا الكتاب وسطاً بين كتاب التلميذ وكتاب الأستاذ، أو بين الكتاب المدرسي والكتاب العام، حتى تمكن الإفادة منه على مقدار أوسع. ولهذا أثبت المراجع وأحلت عليها، وسجلت قائمة في أهم المصادر والمراجع التي وقع الرجوع إليها في التأليف، حتى

يسهل الأمر على من يريد زيادة في التوسع والاطلاع. وتضمن الكتاب خرائط تاريخية، وصوراً أثرية، ومختارات من الأنقال تزوِّد دارسه بمعلومات مفيدة في مختلف النواحي. وبذلك جاء الكتاب مسايراً لمناهج الدراسة الحديثة في بسطه وطريقة عرضه. وفضلت أن اسجل بعض الاعلام بلفظها الأجنبي ليمكن ضبطها والعثور عليها في مظانها الأصلية.

ولا منَّ على قارىء بجهد ومشقة؛ فذلك يعرفه كل من تصدى لعمل مركز ودراسة متينة. وإنما الذي أقوله: هو أن هذا العمل لم يكن ـ في حد ذاته ـ إلا محاولة للنفع والإفادة دعت إليهما الضرورة، ودفعت إليهما الحاجة.

إن الحروب الصليبية، التي تمثل دوراً هاماً في تاريخ الشرق والغرب، وصوراً من الصراع بين الإسلام والمسيحية، لم تلق اعتناء خاصاً من كتاب العربية إلا في العصور الأخيرة، إذ اتجهت إليها الأنظار بالدراسة الخاصة التفصيلية، ولعل لمجريات هذه العصور اثراً في هذا الالتفات إلى صفحة هامة من صفحات التاريخ الإسلامي. هذا زيادة عن سير المناهج الجامعية في البحث والاختصاص في ناحيتي الدراسة والانتاج.

أما في الكتب القديمة فهي مبعثرة هنا وهناك تُسجَّل وتذكر تبعاً للأحداث العامة، أو هي مسجلة لبعض الفصول منها: في اختصاص التأليف بشخص أو دولة. ولم تكن تلك الكتب القديمة تسميها بهذا الاسم (الحروب الصليبية). إنما هذا إطلاق افرنجي لتلك الحروب راج في الشرق أخيراً بعد هذا الاتصال الجديد بين العالمين.

والكتب الحديثة دراسات متنوعة لصور مختلفة من صور هذه الحروب، إمَّا قصدت بالبحث رأساً أو تبعاً لدراسة بطل من أبطالها، أو أثر من آثارها. ولعل الكتاب الوحيد الجامع لها ـ فيما نعلم ـ هو كتاب «الأخبار السنية في الحروب الصليبية» للسيد علي الحريري. إلا أن هذا الكتاب لا يتماشى مع منهج الدراسة المتحدث عنه، إذ الكتاب لا يتناول القسم الثاني من المنهج (الحروب الصليبية بالمغرب الإسلامي). ولهذا

أعملت الجهد لإبراز كتاب يساير المنهج ويفي بالحاجة، راجياً من الله أن يقع به النفع والاتعاظ، وأن يحقق الغاية من جمعه وتأليفه. إنه ولي التوفيق.

محمد العروسي المطوي
المدرس بالمعاهد الزيتونية - تونس
محرم *1373* سبتمبر *1953*



الفصل الأول

حالة المجتمع الإسلامي
قبيل الحروب الصليبية



إن من يُلقي نظرة على المجتمع الإسلامي قبل إعلان الحروب الصليبية (أي خلال القرن الخامس الهجري والحادي عشر المسيحي) يعرف الظروف التي اختارتها الأمم النصرانية بأروبا للقيام بالحملات الصليبية.

1) مصر الفاطمية

فمصر الفاطمية كانت تعاني مصيبة الدول التي تضعضع سلطانها وأشرفت على الانحلال والاضمحلال. فقد كانت مصر نهباً للثورات الداخلية والمنازعات ما بين الطوائف المختلفة من مماليك أتراك وسودانيين ومغاربة. وكانت المجاعات والقحط والأوبئة تغشاها وتنهك من قواها. وكانت اغتيالات الخلفاء والوزراء تدبّر بأشكال مختلفة ومتنوعة.

استهلّ القرن الخامس الهجري على مصر الفاطمية وخليفتها الحاكم بأمر الله. ولم تكن تسكن فيها الفتنة حتى تشب الأخرى. وكان شذوذه النفسي في غاية الفوضى والارتباك. وكانت مدة خلفه ـ الظاهر ابن الحاكم بأمر الله (411 إلى 427 هـ) مدة فوضى أيضاً. وحدثت فيها مجاعة كبرى فيما بين (415و 417 هـ) واقتتل فيها المغاربة والأتراك، وفشا الطاعون الذي لم ينجُ منه حتى الخليفة. أما مدة الخليفة المستنصر (427 إلى 487 هـ) فقد كانت تمثل عهد اقتطاع أطراف الخلافة الفاطمية: فقد أعلنت تونس انفصالها من طرف المعز بن باديس سنة

438 . وانتزع السلاجقة القدس وفلسطين ودمشق من سيادة الفاطميين سنة 469. أما حالة مصر الداخلية فكانت غاية في الارتباك، ولا أدل على ذلك من تقليد الوزارة مدة تسع سنوات لأربعين وزيراً. ثم حدثت مجاعة كبرى استمرت من 458 إلى 465 أكل فيها الناس لحوم البشر. ثم تولّى المستعلي ابن المستنصر (487 - 495) الذي ظهرت في عهده الحروب الصليبية. وهذا الخليفة كان يمثل الضعف الحقيقي للخلفاء الفاطميين بمصر.

2) الشرق الأوسط والخلافة العباسية

كانت الخلافة العباسية في القرن الخامس الهجري على حالة يرثى لها من الفوضى والانحلال. وإذا كان أمر بغداد قبل بني بويه يتنازعه استبداد الموالي الأتراك، فإنه ـ منذ انتصب بنو بويه ببغداد (334 هـ) ـ ازدادت الحالة سوءا، وأصبحت العداوة مستحكمة بين بني بويه الشيعيين ـ وهم أصحاب النفوذ والسلطان ـ وبين الخليفة وعامة الناس ـ وهم سنيون ـ فكانت الثورات والفتن المذهبية والحوادث تملأ البلاد رعباً وهولاً. ولما تولّى الخلافة العباسية «القائم بأمر الله» (422 - 467) ازدادت الحالة سوءا وأصبح النهب والغصب جهاراً. وشاع شغب الجند والغلمان والترك والديلم إلى أن وقع احتلال بغداد من طرف السلاجقة سنة 447 هـ وأزالوا سلطنة آل بويه.

وإذا كان للسلاجقة فضل فهو في جمعهم لما تفرّق وتشتت من المشرق الإسلامي تحت رايتهم؛ فامتدت سلطنة بني سلجوق امتداداً عظيماً في عهد عظماء سلاطينها (طغرل بك ـ ألب أرسلان ـ ملكشاه). وقد اشتهر السلطان ألب أرسلان السلجوقي بفتوحاته في آسيا الصغرى وانتصاره على أمبراطور الروم[1] رومانوس ديوجونيس في معركة ملازكرد (Mantzikert) (463 هـ ـ 1071م). شمالي بحيرة «وان»، خلصت له بعدها ارمينيا وغالب بلاد الأناضول إلى شواطىء بحر مرمرة فأصبحت

(1) هو الامبراطور (Romanus Diogènes) وقد أسر هذا الامبراطور ثم أطلق سراحه بعد.

القسطنطينية مهددة بخطر احتلالها. ولكن هذه العظمة السلجوقية لم تدم طويلاً، فما إن مات السلطان ملكشاه السلجوقي سنة 485هـ حتى انقسم البيت السلجوقي على نفسه، وانفرط عقد السلطنة السلجوقية التي كانت تمتد من بلاد الصين إلى سواحل الشام شرقاً وغرباً، ومن بلاد القوقاز إلى اليمن شمالاً وجنوباً. وهكذا ما حان موعد الحروب الصليبية حتى كان المشرق الإسلامي في غاية الفوضى والارتباك والتنازع.

3) حالة البلاد الشامية في القرن الخامس الهجري

في مطلع القرن الخامس كانت سورية في الفوضى التي أحدثها الحاكم بامر الله الفاطمي. وفي أول عهد سلفه ـ الخليفة الظاهر ـ كانت سورية تكاد تكون خارجة عن نفوذه فقد استولى صالح بن مرداس (415 هـ ـ 1025 م) على حلب وما إليها. وأغار حسان بن جراح الطائي على أكثر بلاد الشام وفلسطين. وتكرّرت الحوادث سنة 429 هـ. واستمرّ الاضطراب في بلاد الشام حتى افتكها السلاجقة من الفاطميين، ولم تسلم في عهدهم من القتال والنزاع والخصام من أجلها. وقبيل اندلاع الحروب الصليبية كانت بلاد الشام موزعة على الأمراء والسلاجقة المتنازعين: فأنطاكية كانت تحت إمارة باغيسيان التركماني. ودمشق كانت لرضوان بن تتش ابن ألب أرسلان. وبيت المقدس كانت قد أقطِعت للأمير سقمان بن أرتق التركماني.

4) الحالة بافريقية وصقلية والاندلس

في أوائل القرن الخامس الهجري تولّى المعز بن باديس الصنهاجي على إفريقية (406 - 453هـ) فكانت مدته مملوءة بالحوادث والاضطراب، فثورة دموية بين الشيعة والسنيين، وثورة حربية من طرف عمه حماد بالمغرب، وثورة انفصالية من زناتة بطرابلس الغرب. ثم كان إعلان المعز الصنهاجي لقطع الخطبة والتبعية للفاطميين بمصر أعقبه خروج غالب البلاد عنه وزحف الاعراب من بني هلال، فعمَّ كامل البلاد

الفوضى والتخريب والاضطراب من برقة إلى القيروان. أما خلفه تميم بن المعز (453 - 501هـ) فكانت مدته أشد اضطراباً وأكثر فتنة. ويعتبر عصره بافريقية عصر ملوك طوائف فقد ثارت ضده مدن تونس وسوسة وصفاقس وقابس والجريد. وتكونت فيها إمارات مستقلة. وثار عليه مالك ابن علي الصحري حتى هاجم المهدية وحاصرها وهاجم الجنويز والبيزان (Pizanes) المهدية وزويلة فسلبوا ونهبوا. وكانت نكبة المجاعة بالوباء قد عمت البلاد (483هـ ـ 1090م).

أما صقلية فقد لاقت من الثورات والمعارك والاضطرابات الداخلية ما جعلها فريسةً سائغةً لهجمات النرمان (Normand) فاندفعوا إليها وهاجموها بينما أبناؤها يتقاتلون ويتنافسون ويعربدون. وما كانت سنة 484هـ 1091م حتى سقطت صقلية نهائياً في أيدي النرمان، ومُحيت من خريطة البلاد الإسلامية، فكانت الشهيدة الأولى التي ذهبت ضحية الإهمال والتخاذل. وكانت حالة المسلمين السيئة بصقلية من التضعضع والتقهقر أمام جيوش النرمان قد أغرت هؤلاء الغزاة على الاقدام واقتحام الشواطيء الإسلامية بافريقية من بجاية إلى طرابلس الغرب.

[1]أما في الأندلس (الفردوس المفقود، والشهيدة الثانية) فقد كان القرن الخامس فيها قرناً حاسماً لما بين عهدها الزاهر السابق وما بين عهد تراجعها واضمحلالها؛ فمنذ سنة 399 بدأ الاضطراب بالاندلس بجعل ولاية العهد لعبد الرحمان بن منصور الحاجب، فاشتدت الفتنة وعم الفساد. وكانت سنة 407 مبدأ التفرق والتمزق، فكان عصر ملوك الطوائف الذين تكالبوا على الفتك ببعضهم واستنجادهم بملوك النصارى ضد بعضهم بعضاً. وانتهز النصارى الفرصة السانحة التي ينتظرونها منذ فتح الأندلس على يد طارق بن زياد، وأخذت النتائج الإيجابية تظهر لفائدة النصارى.

وجاء دور طليطلة فانتزعها الأذفونش السادس (Alphonse) (478هـ ـ 1085م) وكان انتزاعها مبدأ التفوق الحقيقي للنصارى على

(1) سيأتي لهذا مزيد بيان أثناء الكلام عن الحروب الصليبية بالمغرب.

المسلمين بالاندلس حتى ان نجدة يوسف بن تاشفين لأهالي الأندلس وانتصاره على الأذفونش في معركة الزلاقة (479هـ 1086م) لم تكن إلا إيقافاً مؤقتاً للزحف النصراني، فإنه رغم انهزام النصارى في هذه المعركة فإن المسلمين لم يستطيعوا استرجاع مدينة طليطلة العظيمة.

وبالجملة تلك هي حالة المجتمع الإسلامي قبيل نشوب الحروب الصليبية. وإنها لحالة مغرية للنصارى بالاقدام على أخذ الثأر ورد الفعل. وقد طال انتظار الأمم النصرانية لهذا الأمر، فمنذ أن التقت القوات الإسلامية بالقوات البيزنطية المسيحية في فلسطين سنة ١٣ هجرية وانتصار المسلمين عليهم في معارك اليرموك وأجنادين، منذ ذلك الوقت والإسلام يهاجم النصارى ويفتح أراضيهم، فبقي النصارى يترقبون الفرصة المتيحة والزمن المناسب؛ فكانت أواخر القرن الخامس الهجري أحسن الفرص للانتهاز، بعد أن عجموا عوده وذاقوا حلاوة الانتصار عليه وافتكاك بعض أراضيه واسترجاعها إلى نفوذهم. لقد ذاقوا حلاوة الانتصار بأطراف مملكته الواسعة فليهاجموه بعقر داره بعد أن هاجموه بأطرافه.

البحر الأسود

البحر الأبيض المتوسط

مناطق النفوذ المسيحى التى استولى عليها المسلمون قبل وثبات الأتراك من سلاجقة وعثمانيين

مناطق النفوذ البيزنطى

الحروب الصليبية ـ خريطة عدد (1)

ملحقات الفصل الأوّل

1) فرق الإسماعيلية

كان يصحب حالة التضعضع السياسي في المشرق الإسلامي - قبل نشوب الحروب الصليبية - حالة أخرى من التشتت والاختلاف بين الطوائف والمذاهب الإسلامية من سنيين وشيعة. وكان الإسماعيليون أشدّ عداء على جماعة المسلمين، يعملون على النيل منهم والفتك بهم، ولو كان ذلك على حساب صالح المجموع.

والإسماعيليون ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق العلوي، الذي اختارته جماعته دون أخيه موسى الكاظم (إمام الاثني عشرية). كان هؤلاء الاسماعيليون من غلاة الشيعة، يرون عصمة الإمام مهما اتى بما يخالف ظاهر الدين، لأنه يعلم باطنه وتأويله. ومن أشهر فرق الإسماعيلية: 1) القرامطة 2) الفاطميون 3) الحشاشون.

أما القرامطة فإنهم - منذ أواخر القرن الثالث - كانوا يبثون الرعب والفزع، وكانت اعتداءاتهم دون حصر؛ فكانوا يبيحون سفك الدماء، ويغيرون على الآمنين في الجزيرة العربية والعراق والشام. وكانوا بعملهم هذا من أشد المعاول تهديماً لكيان الخلافة العباسية والمجتمع الإسلامي.

ولئن تمكّن الفاطميون من الاستيلاء على الشام بعد نهاية القرامطة، فإنّ عداءهم للسلاجقة السنّيين جعلهم ينتهزون فرصة الهجوم الصليبي ليكيدوا للسلاجقة.

ولكن الأخطر من كل ذلك هي فرقة الإسماعيلية التي اشتهرت أيضاً باسم «الحشاشون» والتي كانت أخطر جمعية إرهابية عـرفها المشـرق الإسلامي: تعاونت هذه الفرقة مع الصليبيين وفتكت بالكثير من قادة المسلمين ورجالاتهم.

وقبيل الحروب الصليبية (483هـ 1090م) تركزت هذه الفرقة الخطرة بزعامة الحسن بن الصباح، واعتصمت في الشمال الغربي من إيـران بقلعة «ألموت». ومنذ ذلك الحين أخذ الحسن بن الصباح يبث أتباعه للاغارة والاغتيال. وكان له صنف من الأتباع يقال لهم «الفدائيون» يناط بعهـدتهم اغتيال الأشخـاص الذين يعينـون لهم. نعم حاول السلطان ملكشاه السلجوقي إبادتهم، ولكنه لم يفلح لاستماتتهم في الدفاع ومناعة مراكزهم. وبدأت سلسلة اغتيالاتهم منذ سنة (485) بقتلهم نظام الملك، أعظم وزير في الدولة السلجوقية. وسنة (490هـ) قتلوا عبد الرحمان السميرمي، وأرغش النظامي، والأمير يوسف أول شحنة سلجوقية في بغداد[1] وفي سنة (495) لما جمع جناح الدولة (صاحب حمص) عسكره لمهاجمة صنجيل الصليبي وعلِم بعزمه على فتح حصن الأكراد، وثب عليه باطني وقتله بالجامع مما مكّن صنجيل من الاستيلاء على الحصن.

وفي سنة (498) هجموا على قافلة حجيج واردة من خراسان فقتلوا جميع من بها وأخذوا أموالهم، وقتلوا أبا جعفر المشـاط، من شيوخ الشافعية[2] كما أنهم هجموا على الخليفة المسترشد في خيمته وقتلوه (529هـ) وكان المسترشد شجاعاً عظيم النفس عزم على الاستقلال بأمره وإزاحة نفوذ السلاجقة. وضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب[3].

وفي سنـة (525هـ) وثبوا على تـاج الملك بـوري بن طغتكين (صاحب دمشق) وجرحوه جراحات مات من جرائها بعد مدة. وقبل ذلك حاول أبو الوفاء البـاطني تسليم دمشق إلى الصليبيين. أما إسمـاعيل

(1) ابن الأثير - ج 8 - ص 185.
(2) المصدر نفسه ص 228.
(3) الروضتين ج 2. ص 31 وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص 431.

الباطني فسلّم إليهم حصن بانياس وسار معهم[1].

وفي سنة (571هـ) وثبت جماعة منهم على صلاح الدين (الايوبي) ولم يمنعه من سيوفهم سوى دروعه المنيعة التي حالت دون اغتيالهم لأعظم بطل إسلامي في الحروب الصليبية.

وحتى مع الصليبيين كثيراً ما قلبوا لهم ظهر المجن واغتالوا البعض من رجالاتهم. ولكن عداءهم لأبطال وقادة المسلمين كان أشدّ وأخطر.

هذا قليل من أعمال هذه الفرقة الارهابية التي زادت من سوء الحالة الاجتماعية واضطرابها بالمشرق الإسلامي أثناء الحروب الصليبية. وقد استمر إرهاب الإسماعيليين عديد السنين، إلى أن قضى عليهم بإيران هولاكو المغولي (654هـ 1256م) خوفاً من غدرهم وفتكاتهم. ثم قضى على من اجتمع منهم بجبال لبنان الملك الظاهر بيبرس (672هـ 1273م) فشتّت شملَهم وأراح الناس منهم.

(1) تتمة المختصر لابن الوردي ـ ج 20 ـ ص 34 — 35.



الفصل الثاني

ماهية الحروب الصليبية



1 ـ الحروب الصليبية

لم تكن الحروب الصليبية في معناها الواسع إلّا فترة زمنية ولوناً خاصًّا من ذلك الصراع الدائم ما بين الشرق والغرب، ذلك الصراع الذي اختلفت تسميتُه باختلاف الأزمان والمقاصد؛ فإذا كان هذا الصراع يتمثل في العصور القديمة ما بين الفرس من جهة واليونان والرومان والروم من جهة أخرى متخذاً صبغةَ الغزو والاكتساح في سبيل تكوين السلطنات العظمى والامبراطوريات العالمية، فإنّه في العصور الوسطى اتخذ الصبغةَ الدينيةَ من الجهاد الإسلامي والحروب الصليبية الأوروبية. أمّا في العصور الحديثة فإنّ صبغة هذا النزاع كانت هذا الاستعمارَ الذي ران على الشرق عموماً والإسلام خصوصاً في أشكال متباينة وأوضاع مختلفة اعتمد فيها الغربُ ـ أكثرَ ما اعتمد ـ على الحيل والدسائس.

ويبتدىءُ دور الإسلام في هذا الصراع بين الشرق والغرب منذ أن بدأ الإسلام يتجاوز حدودَ الجزيرة العربية، فواقعة القادسية ـ 16هـ ـ كانت معركة حاسمة لإخضاع البلاد الفارسية التي كانت تتزعم الشرق في مصارعة الغرب.

وبذلك تقلد العرب المسلمون هذه الزعامة في الصراع العالمي. وأصبح النزاع ماثلاً ما بين الإسلام في الشرق والأمم النصرانية في الغرب.

أما بدءُ الصراع ما بين الإسلام والنصرانية فقد كان في فلسطين. وكانت وقائع أجنادين ـ 13هـ ـ واليرموك ـ 13هـ ـ معارك فاصلة لإزالة

النفوذ البيزنطي عن كامل بلاد الشام، ودخول بيت المقدس ـ 15هـ ـ تحت حماية الإسلام وسيادته. وتتابعت الفتوحات الإسلامية فشملت مصر وبرقة وافريقية والمغرب وكانت خاضعة للروم البيزنطيين.

ثم تتجاوز الفتوحاتُ الإسلاميةُ ذلك فتعبر المضيق بقيادة طارق بن زياد إلى الاندلس، وتزيل النفوذ القوطي[1] المسيحي عنها. وتتقدم الفتوحات الإسلامية وراءَ جبال البرانس (Pyrénées) وتصل إلى أواسط فرنسا (Poitiers). وازدادت الفتوحات الإسلامية عظمةً واتساعاً بالاستيلاء على معظم جزر البحر الأبيض المتوسط، من رودس إلى صقلية وجنوب شبه جزيرة إيطاليا. بل حاول بعض الغزاة المسلمين محاصرةَ مدينة رومة وفتحَها. كما حاول المسلمون فتح القسطنطينية عدة مرات ولكن الامكانيات لمَّا تسعِفْهم بذلك في تلك الأزمنة الأولى.

ومحاولة المسلمين فتحَ رومة والقسطنطينية معناه محاولتهم فتح مواطن السيادة النصرانية في عاصمتيها الغربية والشرقية. ومن ناحية أخرى فإنّ خسارة الأمبراطورية البيزنطية بسبب الفتوحات الإسلامية كانت خسارة بالغة، إذ انتزعت منها غالب ممتلكاتها ولم يبق إلا جزء ضئيل من أملاكها الواسعة، فانحصرت دائرتها في شبه جزيرة البلقان والأناضول وجزء من جنوب ايطاليا. إلاّ أن القوة الإسلامية وإن استطاعت فتح بلاد الشام وما في شمالها الشرقي إلى ارمينية وجبال القوقاز فإنّ ما كان في الشمال الغربي لبلاد الشام بقيَ عند البيزنطيين وهو بلاد الأناضول (آسيا الصغرى) التي تعتبر المسلك الوحيد لاحتلال القسطنطينية من طرف أيّة قوة شرقية. كما أصبحت المناطق الممتدة طول خط (طرسوس ـ زبطرة ـ ملطية ـ أرض روم) مناطق ثغور وحدود ما بين السيادة الإسلامية والسيادة البيزنطية. وإن أخطر اندفاع وراء هذا الخط، وأكبرَ توغل في بلاد الاناضول إنما يتمثل في غزوة المعتصم لعمورية سنة (223هـ ـ 837م) ثم تراجع إلى الثغور، فكانت مناطق الثغور مجالاً للكرّ

(1) القوط (Goths) شعب جرماني هاجر الى إسبانيا وجنوب فرنسا .وعرفوا بالقوط الغربيين (Wisighots) اما الذين استقروا بإيطاليا وشمال بحر الادرياتيك فهم القوط الشرقيون (Ostrogoths).

والفرّ طيلةَ قرون بين القوات الإسلامية والقوات البيزنطية.

وكان البيزنطيون يجزمون ببعد الخطر عن القسطنطينية ما دامت بلاد الأناضول تحت نفوذهم وسيادتهم. ولهذا فما إن اكتسح السلاجقة بلادَ الأناضول ـ فيما بعد ـ واقتربوا من بحر مرمرة حتى هال البيزنطيين الأمر، وأخذوا يستنجدون بأمم أوروبا. وأعلنوا أن القسطنطينية في خطر، وأن هذا الخطر لا يهدد القسطنطينية وحدها بل يهدد أوروبا بتمامها.

لقد كانت عظمة الفتوحات الإسلامية تحزُّ في نفوس النصارى، وكان أثر هذه الفتوحات يحملهم على الحقد والبغض للإسلام أكثر مما يحملهم على الاعجاب والخوف منه. ولهذا فإنهم كانوا يحترقون شوقاً إلى اليوم الذي يستطيعون فيه ردَّ الفعل، والأخذ بالثأر، وإرجاع النفوذ في مناطق غنية بخيراتها المادية والروحية. وإذ كانت النهضة الإسلامية في عنفوانها فلا سبيل إلى الإقدام على مهاجمتها. وإنما ينبغي الانتظار للفرصة المتيحة والوقت المناسب.

2) الأسباب التي حملت أوروبا على الحروب الصليبية

لكل حادث تاريخي أسبابُه وموجباته. وقد ينتاب تلك الأسبابَ شيء من الاختلاط والاضطراب والغموض والخفاء، ولكنها كلّها ترجع إلى نقطة معينة هي تلك الدوافع التي أظهرت ذلك الحادث وأبرزته إلى الوجود. وما الحروب الصليبية إلّا حادث تاريخي عظيم زاد من اختلاطِ أسبابِه وغموضِها كثرةُ الشعوب التي اشتركت فيها، وكثرة الأنظار والأفكار التي توجهت إليها.

ولهذا اختلف المؤرخون في تعداد هذه الأسباب وتنويعها. ولكن مهما كان هذا الاختلاف، فإن الأسباب التي حملت أوروبا على إعلان الحروب الصليبية ترجع كلّها إلى غرضين أساسيين هما: 1) ردّ الفعل النصراني المشبَع بالحقد ضد العالم الإسلامي ـ 2) دافع الطمع والكسب الذي اختلفت أنواعه وأشكاله.

وسنرى - بعد سرد غالب أسباب الحروب الصليبية - أنها ترجع كلها إلى الغرضين الأساسيين اللذين ذكرناهما آنفاً.

أ - السبب الأول: تهديد القسطنطينية بالاحتلال من طرف السلاجقة. واستنجاد امبراطور بيزنطة بالبابا والأمم النصرانية.

يعتبر تأسيس مدينة القسطنطينية مبنياً من أول أمره على الاعتبار الديني، زيادة على الاعتبار السياسي؛ فإن قسطنطين الأكبر[1] ما أسَّس القسطنطينية إلّا لما رأى أن رومة كانت مبنية على شكل وثني لا يتناسب مع العقائد المسيحية. ومنذ ذلك الوقت أصبحت القسطنطينية عاصمة دينيةً وعاصمة سياسية. واستمرت في عظمتها واعتبارها إلى مبدإ العصور الحديثة حين فتحها العثمانيون سنة (857هـ 1453م).

وقد كانت القسطنطينية طيلة صمودها للإسلام منذ سنة 13هـ تمثل العدو اللدود والخصم العنيد للإسلام ما بين مدافعة ومهاجمة؛ ولهذا فإن أيَّ خطر يهدّد هذه المدينة بالاحتلال فإن معناه انهيار خط الدفاع المسيحي[2]، وفتحُ الباب على مصراعيه ليكتسحَ المسلمون القارة الأروبية. إنَّ هذا الشعور هو الذي جعل أروبا النصرانية تُصْغِي إلى نداء الامبراطور البيزنطي «الكسيس كومنين[3] Alexis - Comnène» بعد أن طرد السلاجقةُ البيزنطيين من غالب آسيا الصغرى ومن شمالي بلاد الشام، وبعد أن جُعِلت مدينة نيقية إحدى عواصم السلاجقة وهي مدينة مشرفة على بحر مرمرة من ضفته الشرقية بينما القسطنطينيةُ تقابلُها في ضفته الغربية. فاستنجاد إمبراطور بيزنطة بالأمم المسيحية إن هو إلّا نداء لإنقاذ مركز المقاومة الأول المسيحي الصامد أمام القوات الإسلامية منذ عدة قرون.

---

(1) قسطنطين الأكبر اعلن 313م ان المسيحية اصبحت الدين الرسمي للدولة وكانت قبل ذلك غير معترف بها من قبل الدولة الرومانية بل طالما طاردت أصحابها وعذبتهم. وانتهى من بناء القسطنطينية سنة 330م.

(2) ان ما قدره الغربيون هو ما تحقق فيما بعد لما افتتح العثمانيون القسطنطينية وتوغلوا في أروبا وبلاد البلقان.

(3) تولى الامبراطورية من (1081م) الى (1118م).

ب - زوّار بيت المقدس النصارى وادّعاؤهم مضايقةَ المسلمين لهم، وانتهاكهم لحرمات الأماكن النصرانية المقدسة.

يعتبر الدين الإسلامي أول من أعلن التسامح في العقائد، وأوصى برعاية أهل الذمة واحترام حقوقهم وعوائدهم ومعابدهم؛ فالقرآن الكريم يقول: «لا إكراهَ في الدين قد تبين الرشدُ من الغَيِّ». ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من ظلم ذميا فأنا خصمه يوم القيامة». وعمرو بن الخطاب رضي الله عنه لما توجه إلى بيت المقدس سنة 15هـ ـ لعقد صلحها وأدركته الصلاة وهو في كنيسة القيامة أبى أن يصلّي فيها مخافةَ أن يدعيَ المسلمون الكنيسة بعده. وهارون الرشيد ـ الخليفة العباسي ـ بعث بمفاتيح كنيسة القيامة إلى الأمبراطور شارلمان تشريفاً له من ناحية، واظهارَ احترامِ الإسلام لأصحاب العقائد المخالفة من ناحية أخرى.

هذه هي وجهة النظر الإسلامية إلى الأديان المخالفة، وخصوصاً لأصحابها الذين استظلوا بحمايةِ الإسلام واستقرّوا تحت نفوذه. وهذا هو المبدأ العملي الإسلامي تجاه النصرانية وغيرها. وإن أيَّ سلوك يخالف هذا المبدأ دون ـ مبرر شرعي ـ لا يمكن أن يتمشّى مع أصول الإسلام ومبادئه.

نعم قد جاءت فتراتُ ضغطٍ على أهل الذمة ولكنها تنقضي بانقضاء أصحاب ذلك الضغط كعهد الخليفة العباسي المتوكل على الله (206 - 247هـ) الذي لم يقتصر على تمييز أهل الذمة بزيّ خاص والتنفير منهم بل كان شديداً أيضاً على شيعة الامام علي فنال منهم، وهدم قبر الحسين، وضغط على الأفكار فأبطل الجدل والنظر والمباحثات مما كان يجري في عهود الواثق والمعتصم والمأمون. وكعهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (375 - 410هـ) الذي كان عهده عهد الاضطراب والتناقض، حتى «قال اهل التاريخ إنه لم يل مصر بعد فرعون شر من الحاكم رَامَ أن يدّعي الألوهية... وكان كثيرَ التلوّن هدم الكنائس ثم أعادها، وأسلم لذلك اناس من أهل الذمة ثم أذن لمن أسلم أن يعود إلى دينه وبنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخربها»[1].

(1) عن نزهة الناظرين (نسخة خطية بالمكتبة الصادقية بالجامع الأعظم تحت عدد 4446).

وكانت أعمال الحاكم هذه قريبةَ العهد - نسبياً - من حوادث الحروب الصليبية ولكنّ الأقرب من ذلك هو استيلاء السلاجقة على بيت المقدس وانتزاعها من أيدي الفاطميين كما انتزعوا أنطاكية وآسيا الصغرى من أيدي البيزنطيين. وانتابت البلاد الشامية - بما في ضمنها بيت المقدس - أحداث حربية مهولة لأنها أصبحت ميدانَ كر وفر بين القوات المصرية الشيعية وبين قوات السلاجقة السنيّة، وكانت بلاد الشام في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري تعيش ظروفاً حربية استثنائية مما لا يبعد - في هذه الحالة - أن يجد الزوار الأجانب والوافدون على البلاد الشامية والفلسطينية مضايقةً وعنتاً. ولكن ذلك لا يصل - مهما بلغ الأمر - إلى مبالغات النصارى - زوار بيت المقدس - الذين أخذوا يهولون الأمر في أروبا ويَصِمون المسلمين بالتعصب واضطهاد المسيحيين وانتهاك حرمة أماكنهم المقدسة.

وهذا بطرس الناسك أشهر شخصية من زوار بيت المقدس، وأعظم داع للحروب الصليبية وتهييج الجماهير المسيحية، هذا الزائر المسيحي لم يمنعه وجود السلاجقة ببيت المقدس من زيارة القدس وكنيسة القيامة ورجوعه إلى أروبا داعياً للحرب، مثيراً للحماسة، مستفزاً للعواطف. والحرية التي مكنته من الذهاب إلى بيت المقدس ورجوعه سالماً إلى وطنه بدون أذىً كل ذلك يخفّف - على الأقل - من تلك الادعاءات التي أخذ يروجها في مدن أروبا وبخاصة في فرنسا لإثارة الحروب الصليبية.

ولكنّ هذا لا يمنعنا من القول بأن حالة الاضطراب والانحلال التي استولت على الشرق الأدنى قبيل الحروب الصليبية، كانت تضايق بعض زوار بيت المقدس وتلحقهم نوعاً من العنت والارهاق من أناس ركبوا رؤوسهم ولم يتشبعوا بروح التسامح الإسلامي. وقد تكاثر زوار بيت المقدس في تلك الأزمنة كثرة مهولة[1].

---

(1) مما دعا الى كثرة الزوار في القرن الحادي عشر المسيحي ووفودهم على بيت المقدس بتزايد عظيم، اعتقاد أن العالم مقبل على نهايته وفنائه بنهاية القرن.

ومهما كان الأمر فقد كان ادعاء اضطهاد النصارى وانتهاك حرمة الأماكن النصرانية المقدسة من طرف المسلمين - إذ ذاك - كان هذا الادّعاء من أبرز الأسباب التي اتخذت وسيلةً لإثارة العواطف والقيام بالحرب الصليبية خصوصاً لدى الطبقات الشعبية المسيحية بأروبا.

ج - الحياة الاجتماعية وسوؤها بأروبا

كثيراً ما تكون الظروف الاجتماعية والاقتصادية مثيرة لحوادث وانقلابات يتغيّر بها وجه تاريخ الأمم والشعوب، أو تكون مهيئة لاعتناق فكرة وانتشار نحلة أو تلبية دعوة. وهكذا كان الأمر بالنسبة للمجتمع الأروبي في عصر الحروب الصليبية؛ فالطبقة الشعبية كانت في الدَّرَك الأسفل من الانحطاط والفاقة والاحتياج، وكانت تُلاقي الأمرَّين من الضرائب والتسخير والظلم والارهاق، زيادة على المجاعة التي عمت أنحاء أروبا زمن الحروب الصليبية، والتي انتابت هذه الطبقة البائسة أكثر من أي طبقة أخرى، فكيف لا تلبي هذه نداءً ترى فيه منقذاً لها من حالتها السيئة، ومرسلاً بها إلى الانعتاق والحرية. أما طبقة الاشراف والاقطاعيين فقد كانت تسودها فكرة تكوين الممالك والامارات إذ النظام الاقطاعي الذي نفقت سوقه في القرون الوسطى - خصوصاً بعد انحلال الامبراطورية الرومانية المقدسة[1] - كان هذا النظام يدفع بالسادة إلى اقتطاع الأراضي وتكوين الممالك والامارات. وهذا ما حدَا بالكثير من هؤلاء إلى تكوين الحملات الصليبية، وتعبئة الجيوش، والتوجه بها إلى المشرق حيث يتمكنون من تحقيق مطامحهم وأغراضهم.

وكان لنظام الفروسية السائد إذ ذاك أثر واضح في تشجيع غريزة حبِّ الاطلاع والمخاطرات والمغامرات وإظهار الشجاعة والمهارة ممَّا أحكمت نظامَه تقاليد الفروسية وأوضاعها في تلك العصور.

وإذا أضفنا إلى ذلك طمع الأرباح التجارية الذي كان يتمثل في الجمهوريات الايطالية (جنوة - بيزة - البندقية) والذي كان له أبعد الأثر في

(1) الامبراطورية الرومانية المقدسة هي التي أسسها شارلمان (معاصر هرون الرشيد) واستمرت من بعد منتقلة من عائلة الى أخرى ومن قطر الى آخر.

تركز الصليبيين ببلاد الشام أمكن لنا أن نعتبر هذا الطمع حالةً مسيطرةً على قسم من أهالي أوروبا كانت تدفع بهم إلى المساهمة في الحروب الصليبية.

د ـ الغرض الديني في الحروب الصليبية

وليس معنى تعداد المظاهر السابقة أن الشعور الديني المحض لم يكن موجوداً بل كان كثير[1] ممن شاركوا في الصليبيات تدفعهم عاطفة دينية جياشة. ولكن هذا لم يكن إلاّ كسائر المظاهر الأخرى يشمل طائفة من الناس، كما شملت المظاهر الأخرى بقية الطوائف المشاركة. ولم تكن خطب البابا «أوربانَ الثاني Urbain II» أقل أهمية من الحالات الاجتماعية التي سردناها، فقد استعمل البابا جميع وسائل الإغراء لإثارة الحمية في الصدور؛ فزيادة على إعلانه غفرانَ الذنوب والتكفير عن المعاصي لكل مشارك في الحملة الصليبية، وزيادة على إعفاء حماة الصليب من جميع التكاليف المدنية، فإن خطبته التي ألقاها بمجمع «كلارمون Clermont Ferrand» في نوفمبر (1095م ـ 488هـ) يمكن أن تعتبر تلخيصاً موجزاً لجميع ما ذكرناه. ولقد كان في خطبه يضرب على الوتر الحساس كمثل قوله: «وليست (هذه الحرب) لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تُحْصَى، فاتخذوا محجة القبر المقدس وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين. وأنتم املكوها لذواتكم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبناً وعسلاً»[2].

واستخلاص بيت المقدس وإنقاذ قبر المسيح ـ عليه السلام ـ وحماية الصليب هي اللحاف الذي غطيت به وجُمِعَت فيه جميع الأغراض الأخرى التي اختلف أمرها باختلاف هوى كل واحد. وبذلك يظهر أن الانتفاع الشخصي كان هو السائد، وإن يكن خفيًّا لأول وهلة. وحالة الصليبيين التي ذكرناها ينطبق عليها قول أحد المؤرخين الغربيين ـ

(1) قال الراهب انكتيل في تاريخه ـ قليل من الصليبيين كانت لهم غاية دينية حقيقية ـ الخيبة الادبية ص 70.

(2) الأخبار السنية ص 12.

«إن رؤساء الحرب الصليبية كانت أفكارهم تشتغل بمصالحهم الخصوصية أكثر من اشتغالهم بأورشليم[1] وأن المنازع الدينية كانت دائماً متأخرة لديهم عن مصالح تجارتهم[2]. على أنّ هذه المظاهر الانتفاعية، وهذا البعد عن الروح الديني المحض سنراه يتجلّى بصفة عملية واقعية في سيرة هؤلاء الصليبيين في حملاتهم المختلفة.

هـ ـ موقف الفاطميين بمصر

يذكرُ الكثيرُ من المؤرخين المسلمين من القدماء والمحدثين أن من أسباب هجوم الصليبيين على الشرق الإسلامي هو[3] مراسلة الفاطميين لأمم الأفرنج وتشجيعهم على مهاجمة السلاجقة لأن هؤلاء الأخيرين تغلّبوا على الفاطميين وافتكّوا منهم البلادَ الشامية، زيادة على الخلافات المذهبية ما بين أهل السنة والشيعة، وكانت على أشدها في تلك الأزمنة. ولقد كان الفاطميون يعلّقون آمالاً كبيرة على مهاجمة الافرنج للقوات السلجوقية، فاذا استطاع الافرنج زحزحة السلاجقة عن مركزهم، وأضعفوا من شأنهم فإن هذا يمكّن الفاطميين من إرجاع الأراضي التي اغتصبها منهم السلاجقة منذ زمن ليس بالبعيد. كما تذكر بعض المصادر أن اتفاقاً سرّيًا وقع بين الخليفة الفاطمي والامبراطور البيزنطي ضد السلاجقة[4].

ومهما كان موقف الفاطميين بمصر فإنه كان أقرب إلى أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى؛ لأنّ موقفهم في هذه الحملة وتقاعسهم عن إنجاد السلاجقة بل وانتهازهم الفرصةَ لاحتلال بيت المقدس زمن حصار أنطاكية من طرف الصليبيين، ثم تقهقرهم السريع لمّا هاجمتهم القوات الصليبية، كل ذلك يجعل الفاطميين متحملين لقسطٍ وافر من المسؤولية في أسباب الحرب الصليبية أو في أسباب نجاحها.

---

(1) اورشليم هي بيت المقدس.

(2) الأخبار السنية ص 7.

(3) ابن الاثير ج 8 ص 186 ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 427.

(4) حسن حبشي ص 70 ـ اعتماداً على Chalandon و R. Grousset.

ملحقات الفصل الثاني

1 ـ رأيان في دواعي الحروب الصليبية

(أ) نشأ عن عزم القوم على غزو فلسطين اشتعال النفوس حميةً، وكان كل نصراني في أروبا يطمع، فضلاً على ملكوت السماوات، في إصلاح حاله في هذه الحياة الدنيا فكان العبيد يطمعون في فك رقابهم. وكان أبناء العائلات الذين حرموا الميراث بسبب نظام البكرية والأمراء الاقطاعيون الذين كانت قسمتهم ضيزى يطمعون في الاغتناء. وكان الرهبان الذين أضنتهم حياة الأديار، وكان جميع المحرومين طيبَ العيشة، وقد كان عددهم كبيراً، يشيدون قصوراً من الخيال ويعلّلون أنفسهم بأطيب الأماني.

(حضارة العرب لغوساطاف لبون[1] ص349 ترجمة عادل زعيتر)

(ب) أجل، عُـدَّت الحروب الصليبية أحياناً، رد فعل ضد آسيا وانتقاماً من العرب لما كان من غزوهم لأروبة. إلّا أن الحروب الصليبية نشأت في الحقيقة عن الحماسة التي أشعلها بابوات رومة في نفوس العالم الكاثوليكي فلم يكن إنقاذ القسطنطينية التي كان يهددها الأتراك السلجوقيون إلّا أمراً ثانوياً لدى الصليبيين الأولين. والصليبيون قد ذُكر لهم تدنيس أناس من الهمج لقبر يسوع المخلص وذُكِر لهم وجوب حفظ

(1) (Gustave le Bon) عالم اجتماعي فرنسي عاش ما بين (1841 — 1931) من أشهر كتبه حضارة العرب، حضارة الهند، روح الاشتراكية والآراء والمعتقدات. وقد قام بنقل غالب كتبه الى العربية السيد عادل زعيتر.



الحروب الصليبية ـ خريطة عدد (2)

مهد دينهم من التنجيس فلبّت الألوف تلك الدعوة التي رفعت باسم ربّ النصارى.

(تاريخ العرب ـ سيديو ـ ص 259 ـ ترجمة عادل زعيتر)



الحروب الصّليبيّة
بالمشرق الإسلاميّ





صلاح الدين الأيوبي
بطل المشرق الإسلامي في الحروب الصليبية



الفصل الثالث

الحروب الصليبية الأولى

1) الاستعداد للحرب والدعاية لها
2) مسير حملات الصليبية الأولى
3) من وصول الصليبيين الى القسطنطينية الى احتلال أنطاكية
4) احتلال بيت المقدس وتكوين الإمارات الصليبية



1) الاستعداد للحرب والدعاية لها

في سنة 486هـ ـ 1093م ـ قدم إلى بيت المقدس راهب فرنسي يدعى «بطرس الناسك Pierre l'Ermite » للحج والزيارة. ولعله اغتاظ لرؤية السيادة الإسلامية على فلسطين والأماكن النصرانية المقدسة، فعزم على دعوة المسيحيين لانقاذ الأماكن النصرانية المقدسة من أيدي المسلمين، فكرَّ راجعاً إلى وطنه (فرنسا) وعرَّج على رومة حيث يوجد البابا «أروبان الثاني Urbain II».

والبابا، باعتباره الرئيس الأعلى للمسيحيين، كان يعمل على تنفيذ فكرة إنقاذ الأماكن المقدسة النصرانية من أيدي المسلمين. وكان سلفه البابا «قريقوار السابع Grégoire VII» قد فكّر في هذا الأمر استجابةً لدعوة امبراطور بيزنطي سابق[1]. كما كانت له مشاركة وتأييد في محاربة المسلمين بالاندلس[2]. وقد اتخذ البابا من بطرس الناسك أداةً للدعاية ونشر الفكرة في المجامع العامة، والمحافل الشعبية ليهيىء الأفكار، ويثير الحماسة الشعبية للعمل على إنقاذ بيت المقدس، وكنيسة القيامة (Saint - Sépulcre)[3]. وسار بطرس الناسك متجولاً في ايطاليا وفرنسا، راكباً بغلةً، معتنقاً صليباً، مهيّجاً للأفكار، مثيراً للحماسة. وكان له تأثير

(1) فيشر ص 174.

(2) (Collection «Que Sais - Je?» - Les Croisades - R. Grousset).

(3) في الكتب القديمة (كنيسة قمامة) اشهر الكنائس المسيحية على الاطلاق ويعتقد النصارى ان قيامة المسيح عليه السلام تكون منها. وقد بنت هذه الكنيسة والدة قسطنطين الأكبر باني مدينة القسطنطينية وقد تم بناء الكنيسة 335م.

كبير على العامة والرعاع.

المجامع الكنسية

أما البابا أوربان فإنه عمل على عقد المجامع الكنسية للبحث عن كيفية تنفيذ خطة غزو البلاد الشامية، وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين.

وكان المجمع الكنسي الأول بمدينة «بليزانس Plaisance» بشمالي ايطاليا، حضره الكثير من الرهبان والأساقفة والعلماء والسياسيين، وكان انعقاد المجمع في مارس 1095م (488هـ). واتفق المجمع على فكرة تخليص الأماكن المقدسة. ولكن هذا المجمع لم يظهر له مفعول، لأنه بمجرد ما تفرق الناس قلَّت حماستهم لذلك. وكان من جملة الأسباب التي جعلت نتيجة هذا المجمع سلبية الخلاف المستحكم إذ ذاك بين البابا وامبراطور المانيا.

ولما أحس البابا بخيبة مجمع بليزانس عزم على اختيار مكان أصلح لعقد مجمع ثان، فاختار البلاد الفرنسية (موطنه الأصلي)[1] حيث انعقد مجمع كلارمون فران (نوفمبر 1095م ـ 488هـ) ولبَّى الدعوة كثير من الأمراء ورؤساء الكنائس والفرسان ووفود الملوك، زيادة على العامة والطّغام. ورغم شدة البرد فقد عقد المجمع عدةَ جلسات. وكانت خطب البابا أثناءها تضرب على الوتر الحساس: من إثارة الحماسة الدينية، إلى تزيين الاستشهاد في سبيل المسيح، إلى الاغراء بمباهج الشرق وخيراته، إلى التشويق نحو امتلاك الأراضي وتكوين الامارات. وقد أعلن البابا إعفاء حماة الصليب من جميع التكاليف، مظهراً أسفه من أنّ الظروف لم تساعده على المشاركة بنفسه في هذه الحرب

(1) اوربان الثاني فرنسي الأصل وقد كان راهباً «ربيطا بمدينة كلوني بفرنسا».

المقدسة. ثم سلَّم «صليب الخلاص» إلى أسقف مدينة «بوي Puy»[1]، وجعله نائباً عنه في الزعامة الروحية للحرب الصليبية[2].

موعد السفر

اتفق مجمع كلارمون على أن يكون موعد السفر في 15 أوت 1096م (489) وأن يكون اللقاء بمدينة القسطنطينية. وكان هذا الأجل الطويل بين انعقاد المجمع، وموعد السفر لغرضين: 1) ترقب زمن الصيف، 2) التهيؤ للتعبئة، وزيادة الدعاية للحملة الصليبية.

2 ـ مسير حملات الصليبية الأولى

وقبل الموعد المضروب للسفر[3]، تكونت كتائب صليبية شعبية على غاية من الفوضى والاضطراب، لا تخضع لقيادة منظمة ولا هي بمستوفية لشروط القتال. وأكثرها عزل أو مشاة معهم عيالهم من نساء وأطفال، وكانت هذه الحملة الشعبية بقيادة بطرس الناسك، فسارت في اضطراب وفوضى، مخترقة أروبا الوسطى تسلب وتنهب. وقد اشتبكت مع أهالي المدن التي مرت عليها، خصوصاً في بلاد المجر، ومات منها الكثير. ثم وصلت بقايا هذه الحملة إلى القسطنطينية في جويلية 1096م 489هـ. وهال الأمبراطور البيزنطي ما عليه هؤلاء الصليبيون من الفوضى والاضطراب، وخشي منهم على عاصمته فأسرع بنقلهم على المراكب إلى الضفة الشرقية للبوسفور وبحر مرمرة. وما إن علم السلطان قليج

(1) مدينة فرنسية باعلى نهر لالوار.
(2) نظراً لاتخاذ الصليب شعارا في هذه الحروب حيث رسمه الصليبيون على أعلامهم وملابسهم فقد دعيت هذه الحروب بالحروب الصليبية.
(3) سافرت هذه الحملة في شهر افريل 1096م (489هـ).

أرسلان السلجوقي بنزول هؤلاء الصليبيين بآسيا الصغرى حتى هبّ لقتالهم قرب مدينة نيقية ـ عاصمته ـ وأبادهم عن آخرهم[1].

وبينما كانت جيوش بطرس الناسك تلاقي حتفها قرب نيقية تحت ضربات السلطان السلجوقي كانت حركة التجهيز الصليبي على قدم وساق في فرنسا وايطاليا من جانب الاقطاعيين، والأمراء والاشراف. ولما تم التجهيز وحان الموعد سارت الجيوش الصليبية على النظام التالي:

1) حملة من جنوب فرنسا تحت قيادة «ريموند دي صنجيل Raymond de Saint - Gilles» سلكت طريقها من شمال ايطاليا ثم المانيا وكرواطيا وبلغاريا إلى القسطنطينية.

2) حملة من شمال فرنسا تحت قيادة «روبارت كورت هوز Robert Courte - Heuse» و « روبارت الثاني كونت فلاندر Robert II, Comte de Flandre» سلكت طريق شمالي إيطاليا ثم سايرت ساحلها الشرقي وأبحرت من «برنديسي[2] Brindisi» إلى ألبانيا ثم مقدونيا إلى القسطنطينية.

3) حملة من أعالي فرنسا من «برابنت Brabant» في بلاد البلجيك الحالية بقيادة «قود وفروادي بويون Godefroi de Bouillon» وأخيه «بودوين دي بولوني Baudouin de Boulogne» واخترقت هذه الحملة بلاد المانيا ثم المجر إلى القسطنطينية.

4) حملة من جنوب ايطاليا قام بها النرمان الذين استقروا بجنوب ايطاليا؛ وأزالوا حكم البيزنطيين منها بقيادة «تنكريد Tancrède» و «بوهيموند Bohémond»، أمير تارنت. وأبحرت هذه الحملة من مرسى برندسي إلى سواحل البانيا. ثم اخترقت ولاية مقدونية إلى القسطنطينية.

---

(1) سافرت هذه الحملة في شهر افريل (1096م 489هـ).

(2) يذكر بعض المؤرخين ان بطرس الناسك مات في هذه المعركة. والبعض يذكر أنه لما رأى اضطراب هؤلاء الصليبيين وفوضاهم تركهم ورجع الى القسطنطينية حتى قدمت الحملات الأخرى وسار معها الى انطاكية.

وكانت الجيوش الصليبية كلما مرت بناحية انضم إليها المتطوعون لحماية الصليب، خصوصاً جيش «قودوفروا» الذي اخترق اروبا الوسطى. فقد انضم إليه الكثير من المانيا والنمسا والمجر، فتكوَّن من مجموع هذه الجيوش الأربعة جمع عظيم العدد، يشمل مئات الآلاف، حتى نعته بعضهم بقوله «كانت الجيوش الصليبية عبارةً عن شعب كاملٍ يسيرُ» وقالت في شأنهم ابنة الأمبراطور الكسيس كومنين «يخيل أنّ اروبا اقتلعت من أصولها».

لم يصل الصليبيون إلى القسطنطينية دفعة واحدة. وإنما وصلوا في فترات متعاقبة نظراً لاختلاف طرقهم طولاً وصعوبة.

3 ـ من وصول الصليبيين إلى القسطنطينية إلى احتلال انطاكية

قبل أن يجتمع الصليبيون بالقسطنطينية وقعت لهم عدة أحداث مع الأمبراطور البيزنطي؛ فقد كان ألكسيس كومنين يتوجس خيفةً من هذا الجيش العرمرم الذي ربّما تسول له نفسه الاستيلاء على القسطنطينية نفسها[1] هذا زيادة على الأحقاد المذهبية التي يحملها نصارى غرب أروبا ضد نصارى الشرق ولعاصمتهم القسطنطينية باعتبار كنيستها منشقة عن كنيسة رومة[2].

كما أن الكسيس كومنين ـ إذ رأى حملة النرمان من جنوب ايطاليا ـ لم ينس أنه في سنوات (1080 - 1085م) حاول بوهيمند قائد الحملة إزالة الحكم البيزنطي عن مقدونية مع والده «روبير قيسكارد Robert Guiscard». لكل هذا ارتاع الأمبراطور البيزنطي، وساورته المخاوف، وحاول أخذ كبراء الصليبيين رهناً وتوثقة. وكادت الحرب تندلع بين الأمبراطور

(1) ان ما توجسه الكسيس كومنين قد تحقق في الصليبية الرابعة كما سيأتي.

(2) من مظاهر الخلاف بين الكنيستين ان البيزنطيين (نصارى الشرق) يحتجون على اللاتين (نصارى الغرب) أنهم أضافوا الى نص العقيدة الفاظا تجعل روح القدس صادرا من الاله الأب، وانهم استعملوا الخبز الفطير في القداس، وأنهم عكفوا على صيام السبوت وأباحوا لقساوستهم حلق اللحى ـ فيشر ص 175.

والصليبيين. وبعد مخابرات ومفاهمات انتهى الأمر على أن يتعهد الصليبيون للأمبراطور ـ بعد أن أقسموا له يمين الولاء ـ بارجاع أملاكه في آسيا التي افتكها منه السلاجقة. وهو في مقابلة ذلك يعينهم على قضاء مهمتهم بوسائل النقل والادلّاء والجيش.

وكان مما يحزّ في نفوس الصليبيين تلك التعهدات التي ألزمهم بها الأمبراطور البيزنطي بشأن إرجاع ممتلكاته بآسيا، لأن هذا يخالف رغبات الكثير من زعماء الصليبيين الذين كانت تدفعهم إلى اقتحام المعارك والأخطار مطامعهم في تكوين الممالك والإمارات بالمشرق. ولهذا لم يكن الاتفاق بين الكسيس كومنين والصليبيين إلا اتفاقاً ظاهرياً.

مسير الصليبية الأولى في آسيا الصغرى

وحسب هذا الاتفاق الظاهري عبرت القوات الصليبية البوسفور ومرمرة. ونزلت بأرض آسيا الصغرى، وتوجهت إلى مدينة نيقية التي كان سلطانها قليج أرسلان (ملك سلاجقة الروم)[1] خارج المدينة في مهمة. وما إن علم قليج أرسلان بتوجه الصليبيين إليها، ومحاصرتهم لها حتى جمع جيشه وتوجّه إليهم وصمد لقتالهم. وامتد حصار نيقية نحو خمسين يوماً. ثم انتهى بانتصار الصليبيين، واحتلال المدينة من طرف القوات البيزنطية التي تفاوضت سرياً مع القوات الإسلامية المحصورة، واستسلمت لها دون علم أو مشاورة القوات الصليبية اللاتينية. ولهذا فوجيء الصليبيون بالاعلام البيزنطية ترفرف على أسوار نيقية (جمادى الثانية 491هـ ـ 26 جوان 1097م) فاغتاظوا لذلك، واعتبروها خيانةً من

(1) سلاجقة الروم هم الذين استقروا بآسيا الصغرى واستقلوا بعد انحلال الامبراطورية السلجوقية العظمى وكانت عاصمتهم الأولى نيقية. وبعد الصليبية الأولى أصبحت عاصمتهم قونية. وهذه السلطنة هي أطول دول السلاجقة المنفصلة عمرا اذ بقيت قائمة الذات الى سنة 699 هـ وعلى أنقاض هذه الدولة انبعثت الدولة العثمانية في بلاد الأناضول.

الامبراطور البيزنطي، وأسرّوها في أنفسهم.

وحسب العهد المقطوع تركت مدينة نيقية وما جاورها للبيزنطيين. وتقدمت الجيوش الصليبية نحو الشرق مخترقة بلاد الأناضول، ودارت بينهم وبين قليج أرسلان معركة كبرى قرب مدينة «دوريلي» (اسكيشهر الحالية) انهزم فيها قليج ارسلان لكثرة عدد الصليبيين. ومن هناك أخذ قليج أرسلان يمثل أمام أعدائه «حرب الأرض المحترقة» حتى لاقى الصليبيون عناء عظيماً من العطش والتعب والجوع، ومات الكثير منهم ومن دوابهم. وكثيراً ما كان يتخذ البعض منهم الكلاب والخنازير والمعزى لحمل الأمتعة والأدباش.

وتابع الصليبيون طريقهم في اتجاه مدينة قونية ثم اخترقوا سلسلة جبال طوروس الوعرة. ولما وصلوا إلى أرمينية الصغرى (ولاية اطنة الحالية) وجدوا مساعدات كبرى من طرف الأرمن حيث فتحوا لهم أبواب المدن[1] وأصبحوا لهم أعواناً. ومن هنالك توجهوا إلى انطاكية وناصبوها الحصار.

حصار أنطاكية واحتلالها

كانت مدينة أنطاكية وما جاورها تحت حكم ياغيسيان السلجوقي، الذي ما إن علم بوصول الصليبيين حتى استعدَّ لذلك وتحصَّن. وكانت مدينة انطاكية ذات أبراج وحصون كثيرة ومنيعة.

وصل الصليبيون إلى أنطاكية (20 أكتوبر 1097م ـ 491هـ) وشرعوا في محاصرتها، ولاقوا أثناء هذا الحصار كل هول وتعب؛ لأن الحصار استمر من أكتوبر سنة 1097م إلى جوان 1098م. وأظهر الصليبيون أثناء هذا الحصار كل أنواع الرذائل، ونالهم البرد والجوع والتعب، وفتكت

(1) مثل مدن ليكلونيا ـ هيرقلة ـ قيسارية ـ تيانا ـ فوزقون ـ مرعش.

بهم الأمراض حتى مل الكثير منهم الحصار، وضعفت عزائمهم.

وحاول المسلمون نجدة أنطاكية، وفكّ حصارها. ولكن دون نتيجة: حاول ذلك الأمير رضوان صاحب حلب، كما حاول قبله دقاق أمير دمشق. وجاءت نجدة من سلطان إيران السلجوقي ولكن بعد فوات الوقت.

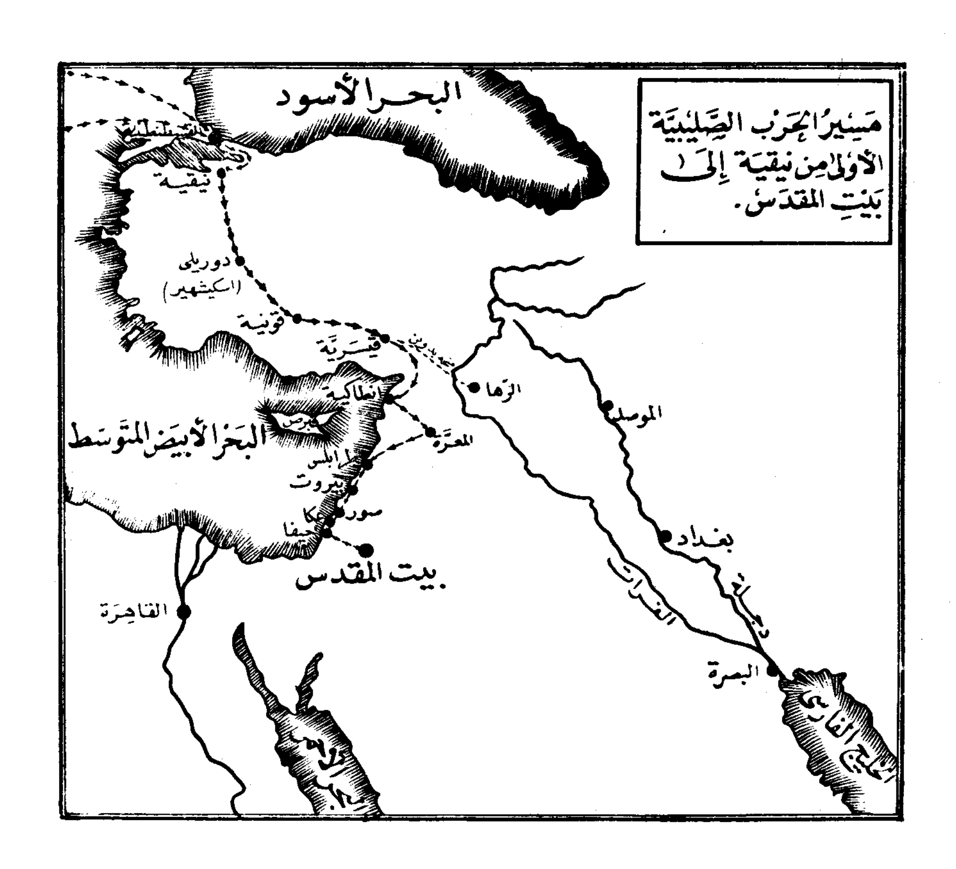
أما الفاطميون بمصر، فقد جعلوا من هذا الحصار، واشتغال أمراء السلاجقة به، فرصة ينتهزونها لافتكاك بيت المقدس من أيدي السلاجقة. وبعث الخليفة الفاطمي ـ المستعلي بالله ـ وفداً إلى الصليبيين يعرض عليهم الصلح والمسالمة، وتأمين أماكنهم المقدسة، وحماية الحجاج النصارى إلى بيت المقدس. ولكن الصليبيين لم يجيبوه إلى ذلك، واستمروا في محاصرتهم لأنطاكية بدون أن يتمكنوا من احتلالها، إلى أن وقعت خيانة من أحد حراس الأبراج الإسلامية (هو فيروز الأرمني)[1] فدخل الصليبيون أنطاكية وعاثوا فيها فساداً وأباحوها أياماً. ثم جاء عماد الدين كربوغا صاحب الموصل إلى أنطاكية بعد احتلالها وحاصر الصليبيين. واجتمع معه عدد من أمراء السلاجقة. واشتد الضيق على المحصورين وكادوا يستسلمون إلا أن سوء سيرة كربوغا مع بقية القواد السلاجقة، وعدم تبادل الثقة بينهم جعل النجدة تبوءُ بالفشل؛ فتقهقرت القواتُ الإسلامية وفكَّ الحصار عن أنطاكية وبذلك استقرت أنطاكية للصليبيين. وانتصب بوهيموند النرماني أميراً عليها.

أما بقية الصليبيين فإنهم اتجهوا إلى بيت المقدس بعد أن استراحوا واستجمعوا قواهم.

4) احتلال بيت المقدس وتكوين الإمارات الصليبية

توجّه الصليبيون نحو بيت المقدس في شهر جانفي 1099م. وفي

(1) كان فيروز الأرمني حارسا لبرج الاختين فتفاوض سريا مع بوهيمند وسلم اليه البرج. وكانت هذه الخيانة الكبرى هي السبب في نجاح الصليبيين.



الحروب الصليبية خريطة عدد (3)

منتصف جوان وصلوا إليها وناصبوها الحصار. وكانت مدينة القدس قد أصبحت تحت سلطة الفاطميين كما تقدم. وكان واليها الفاطمي هو افتخار الدولة، الذي فاجأته القوات الصليبية بزعامة قودفروا دي بويون. وكان لضعف الخلافة الفاطمية، وتضعضع معنويات جيوشها أكبر الأثر في الإسراع بسقوط بيت المقدس واحتلالها من طرف الصليبيين إذ بعد شهر واحد من بدء الحصار (في الخامس عشر من شهر جويلية وشعبان 1099م 492هـ) تمكن الصليبيون من اقتحام الأسوار واحتلال المدينة، مرتكبين أشنع الأعمال وأفظعها. وقد بلغ عدد القتلى من المسلمين سبعين ألفاً، كما أن اليهود نالهم التقتيل والاحراق والتعذيب[1].

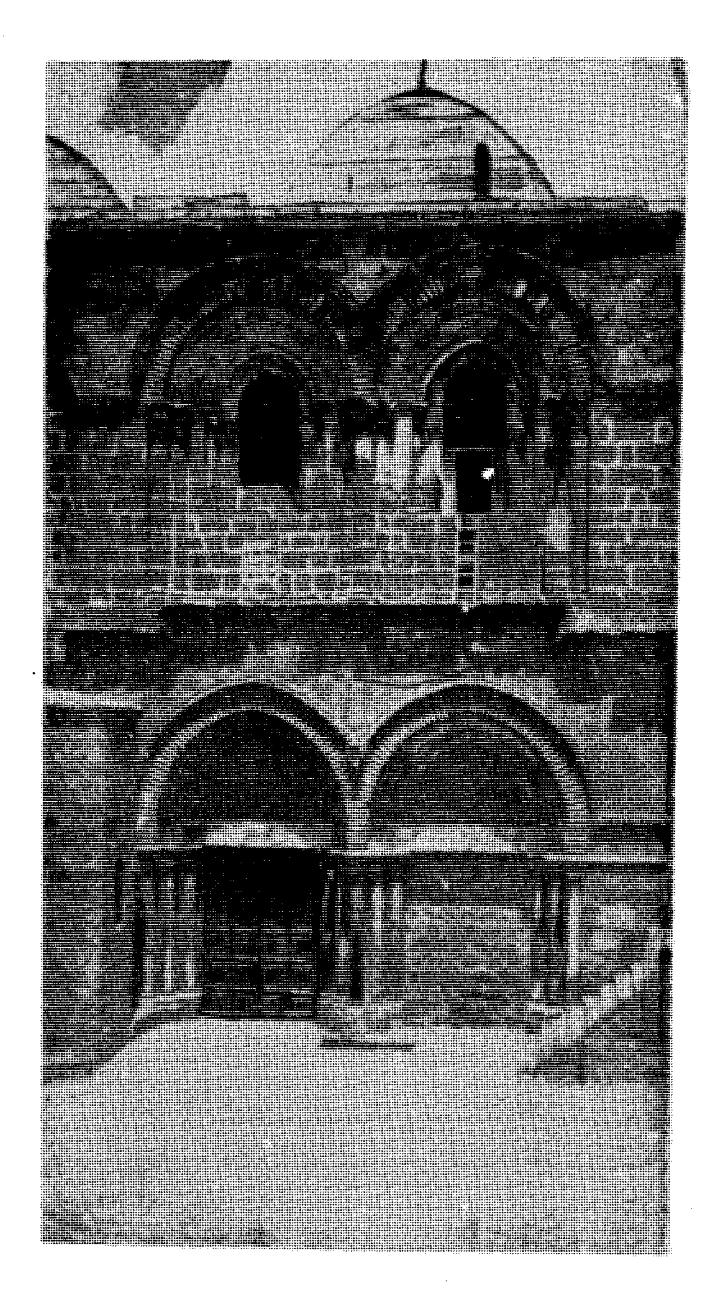
وباحتلال بيت المقدس حقق الصليبيون غرضَهم العام من هذه الحرب ألا وهو استخلاص بيت المقدس، وافتكاكها من أيدي المسلمين، وقد تكبدوا في سبيل ذلك الخسائرَ الباهظةَ من الأنفس، بلغت عدة مئات من الآلاف.

وبقدر ما فرح الصليبيون بهذا النصر بقدر ما استاء المجتمع الإسلامي وشعوبه. أما ملوكه وأمراؤه فقد ألهتهم الخلافات والانقسامات وأصمَّت آذانَهم عمّا يقع بعقر الديار الإسلامية وقبلتهم الأولى.

ويصف لنا ابن الأثير مظهر استياء المجتمع الإسلامي قائلاً: «وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وذكروا ما دَهَمَ المسلمين من قتل الرجال، وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال فلشدة ما أصابهم افطروا». وتأثر الخليفة العباسي ـ المستظهر ـ كما تأثر عامة الشعب. ولم يكن له حول ولا طول. إنما الأمر بيد ملوك السلاجقة المتنازعين المتحاربين واكتفى الخليفة العباسي بارسال وفد إلى أمراء السلاجقة يستنفرهم، فرجع الوفد خائباً حسيراً.

---

(1) كان احتلال الصليبيين لبيت المقدس يوم الجمعة بعد الزوال، فاستبشروا بذلك خيراً اذ صادف نفس الساعة ونفس اليوم الذي رفع فيه السيد المسيح عليه السلام حسب اعتقادهم.



(كنيسة القيامة بالقدس)

وحاول الفاطميون برئاسة الأفضل أمير الجيوش مهاجمة الصليبيين بيت المقدس، ولكنَّ الصليبيين استعدُّوا لذلك، وبادروهم بالقتال - قرب عسقلان - فانهزم الجيش الفاطمي، وعاد الأفضل إلى مصر. وتقدّم الصليبيون إلى عسقلان وحاصروها. ثم رفعوا عنها الحصار بعد أن بُذِل لهم مال كثير.

وبانهزام المصريين أيقن الصليبيون بضعف القوات الإسلامية المشتتة. ولهذا قرر كثيرٌ منهم الرجوع إلى أوطانهم بعد أن استقرَّ الرأي على تكوين مملكة لاتينية ببيت المقدس. واختير لرئاستها «قودوفروا Godefroi» إلا أنه أبى أن يلقَّبَ بلقب ملك. واكتفى بلقب «حامي قبر المسيح».

ومنذ احتلال بيت المقدس، واستقرار الصليبيين فيها، أخذت الامدادات تتوارد عليها لتقوية حاميتها، ولاتمام احتلال بقية السواحل الشامية.

كيف تكونت الإمارات الصليبية:

بعد أن تمكن الصليبيون من النجاح في مأموريتهم، أمكن لهم احتلال جميع السواحل الشامية من بعد. وأصبحت لهم عدة إمارات، هي التي عرفت بالامارات اللاتينية أو الممالك الصليبية وهي هذه:

أ) إمارة الرها

كونها بودوين دوبولوني[1] سنة (492هـ 1098م) وكانت كيفية تكوينها أن صاحب الرها الأرمني بعث إلى الصليبيين مستنصراً بهم، فلبى دعوته

(1) في 18 جويلية 1100م توفي قودوفروا فوقع الاتفاق ببيت المقدس على أن يدعى أخوه بودوين هذا فغادر الرها وانتصب ملكا على مملكة المقدس تحت اسم بودوين الاول. ويذكر في المصادر العربية القديمة باسم «بلدوين أو بغدوين».

بودوين المذكور. ثم غدر به هذا الأخير إذ كوّن مؤامرة ضده حتى قُتل. وانتصب بودوين ملكاً على الرها وما حولها. واستمرت هذه الامارة إلى أن أزالها آل زنكي (539هـ 1144م).

ب) إمارة انطاكية

كوَّن هذه الامارة الأمير النرماني بوهيموند واستقل بهـا، مستنداً على أنّ احتلالها إنما وقع على يديه نتيجةً للمؤامرات التي دبّرها مع فيروز الأرمني. وقد استمرّت هذه الامارات قائمة الذات إلى سنة (667هـ 1268م).

ج) مملكة بيت المقدس

كانت مملكة بيت المقدس هي أعظم الامارات الصليبية. ولهذا كان متوليها يلقّب بلقب ملك أما بقية الامارات فهي تتبع مملكة بيت المقدس، وإن كانت تبعيةً لا أثر لها في الواقع. وكانت هذه المملكة أعظمها شأناً، وأوسعها رقعة، إذ امتدت حدودها في أقصى اتساعها من شمال بيروت إلى جنوب عسقلان. كما كانت تشمل جميع الأراضي المحصورة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط. كما شمل نفوذها الضفة الشرقية للأردن والبحر الميت ووصلت إلى خليج العقبة. وكانت هذه المنطقة الواقعة شرقيَّ الأردن تعرف بامارة الكرك، ومن حصونها الكَرَك والشَوْبَك. واستمرت مملكة بيت المقدس في اتساعها إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي فـانكمشت على ساحـل البحر في مسـاحة صغيرة، متخذة من مدينة «عكا» عاصمة لها.

د) امارة طرابلس

تكونت سنة (496 هـ 1102 م) واستمرت الى (688 هـ 1289 م)

موقع الامارات الصليبية ومدى استقرارها

لم تكن هذه الامارات اللاتينية مستقرَّة الحال، ولا هي قوية العدد

والعُدّة. ولم يمنع من الاسراع بازالتها إلا تضعضع القوات الإسلامية، وتفرُّقها، وانحلالها، فالصليبيون ـ وإن استطاعوا احتلال جميع السواحل الشامية ـ إلا أنهم لم يستطيعوا التوغّل والتقدم داخل البلاد الشامية. وبقيت القوات الإسلامية تحيط بها من الشمال (سلاجقة قونيـة) ومن الشرق (قوات السلاجقة والأتابكة في دمشق ـ حمص ـ حماه ـ حلب الموصل) ومن الجنوب الدولة الفاطمية.

ولـم يكـن للصليبيين جهة خالية من القوات الإسلامية إلّا الجهة الغربية (سواحل البحر الأبيض المتوسط) ولذا كان الصليبيون يتوجسون خيفة من هذا الوضع الحرج، ويتوقعون إلقاءهم في البحر يوماً مّا متى انبعثت نهضة إسلامية فتية. وكان صحيحاً ما قدره الصليبيـون، فقد استمرُوا متَحدِّين للمجتمع الإسلامي، مُدْخلين عليه الـرُعب والفزع، منتهزين ضعفه وانحلاله، إلى ان انبعثت نهضة آل زنكي وآل أيوب فبدأ رد الفعل الإسلامي، وبدأت كفة المسلمين تترجح على كفة الصليبيين.

ملحقات الفصل الثالث

1 — من أسباب نجاح الصليبية الأولى

كان من أهم أسباب نجاح الصليبيين في احتلالهم للبلاد الشامية ما كان عليه المجتمع الإسلامي ورؤساؤه من الانحلال والتدابر، فقد كان النزاع سائداً في مجموع المشرق الإسلامي، إذ كان فاقداً للزعيم الذي يقوده لصدٍّ ايّ عدوٍّ يهاجمه. وقد سجلت المصادر الأدبية والتاريخية صوراً محزنة من التدابر والتخاذل كان يتخبط فيها المشرق الإسلامي، بينما العدو ينتزع المدينة بعد الأخرى. ولهذا نرى كثيراً من مؤرخي تلك العصور يشيرون إلى تلك الحالة بين حين وآخر بمثل هذه الفقرات:

1) بينما الافرنج يحاصرون ويحتلون القدس كان محمد بن ملكشاه يحارب اخاه لأبيه بركياروق.

2) ملك الافرنج عكا من واليها العلوي... هذا وملوك الشام مشتغلون بقتال بعضهم بعضاً.

3) توجه فخر الملك أبو علي بن عمار من طرابلس إلى بغداد مستنفراً لما حل بطرابلس وبالشام من الافرنج. واجتمع بالخليفة المستظهر وبالسلطان محمود، فلم يحصل منهما غرض..... وتم للافرنج الاستيلاء عليها.

4) بعد حديث عن القدس - .. ووصل المستنفرون إلى بغداد في رمضان فاجتمع أهل بغداد في الجوامع واستغاثوا وبكوا، حتى انهم

أفطروا من عظم ما جرى عليهم. ووقع الخلاف بين السلاطين السلجوقية فتمكن الفرنج من البلاد.

ـ « النقول عن ابن الاثير» ـ ابي الفداء ـ ابن الوردي»

2 ـ صرخة في واد

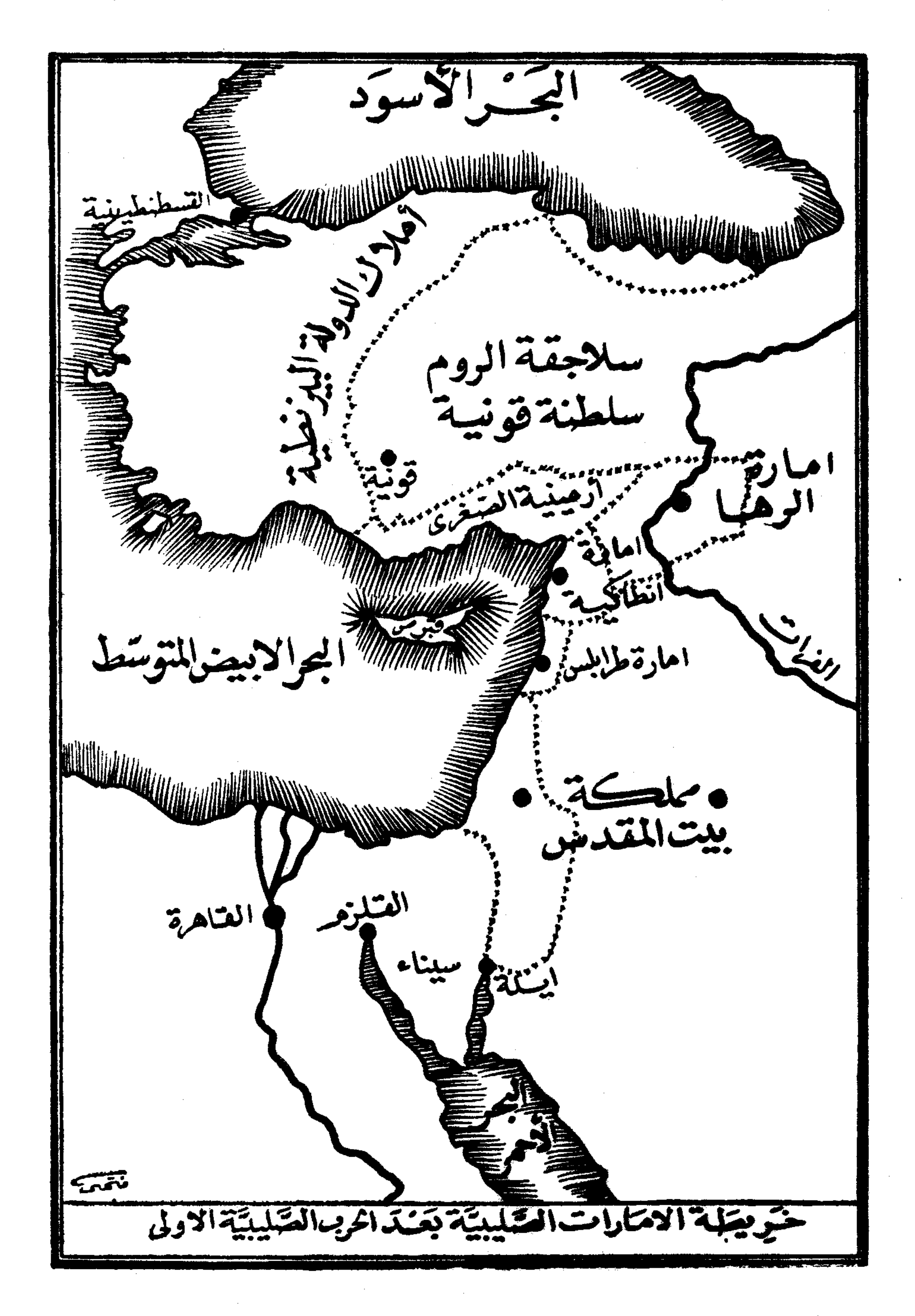
ولعل من ابلغ ما يصور اهتزاز المجتمع الإسلامي، ونقمته على ملوكه ورؤسائه، تلك القصيدة الطويلة التي قالها الأبيوردي[1] بعد احتلال القدس من طرف الصليبيين. وهذه أبيات منها:

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... ولم يبق منا عرضة للمحارم
وشرّ سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فَإِيْهاً بني الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم!
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم؟
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي، أو بطون القشاعم
تسومهم الرُّوم الهوانَ، وأنتم ... تجرّون ذيل الخفض فعل المسالم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدى ... رماحهم، والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العارَ ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويغضي على ذل كماة الأعاجم؟
فليتهم إذ لم يذودوا حميّةً ... عن الدِّين ضنوا غيرةً (بالمحارم)
ران زهدوا في الأجر إذ حمس الوغى ... فهلّا أتوه رغبةً في الغنائم؟
دعوناكم. والحرب ترنو ملحة ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم

(1) ابو المظفرُ محمد بن أحمد، ينتهي نسبه الى بني أمية ـ توفي بأصبهان سنة 557 هـ وولد بأبيورد فنسب اليها، له تآليف وشعر (وفيات الاعيان ـ ج 4 ص 71).

تــراقب فيـنــا غــارةً عــربيــةً تطيل عليها الروم عضَّ الأباهم
فـان أنتمُ لم تغضبوا بعـد هذه رمينـا إلى أعـدائنـا بـالجــرائم

(ابن الأثير باختصار - ج*8* - ص *189* - مطبعة الاستقامة)



الحروب الصليبية خريطة عدد (4)

الفصل الرابع

نهضة آل زنكي - الصّليبيّة الثانية

1) نهضة آل زنكي
2) الحرب الصليبية الثانية
3) النزاع على مصر بين نور الدين والصليبيين

1 ـ نهضة آل زنكي

كانت الحالة الاجتماعية والسياسية بالمشرق الإسلامي من أعظم الأسباب التي ساعدت الصليبيين على نجاحهم في الحملة الصليبية الأولى، وتكوين الامارات اللاتينية. وكانت المنافسات الداخلية في الأمبراطورية السلجوقية، والمنازعات والقتال بين ورثة هذا الملك العظيم أكبر معين على استقرار الصليبيين بالبلاد الشامية، وتطاولهم على الممالك الإسلامية، وإدخالهم الرعبَ والفزَعَ على المجتمع الإسلامي بينما الملوك والأمراء والقواد يتحاسدون، ويقتتلون، ويخذل بعضهم بعضاً؛ فكانت هذه الحال السيئة: من فقد الوازع الديني، ومن التفسخ الأخلاقي، والانحلال الاجتماعي، تتطلب نهضة صالحة، وقائداً منقذاً يتبعه الأمن الاجتماعي، والضرب على أيدي الظَلَمة والمفسدين، ثم محو هذا العار الذي التصق بالجموع الإسلامية، عار استقرار الصليبيين بعقر ديار الإسلام.

واستمرت هذه الحالة السيئة إلى ما بعد استقرار الصليبيين، حتى قيض الله رجالاً مصلحين عملوا على إزالة تلك العلل قدر المستطاع. وقد بدأت هذه الحركة الاصلاحية بنهضة آل زنكي، التي تمخضت عن نهضة آل أيوب.

بيت آل زنكي

آل زنكي عائلة عرف أول أفرادها زمن السلطان ملكشاه السلجوقي.

وهو قسيم[1] الدولة آقسنقر. كان من مماليك «ملكشاه» وأصحابه وتربّى معه منذ الصغر، فلما تولّى ملكشاه السلطنة اتخذ آقسنقر من قواده وأمرائه، إذ كانت تبدو عليه علامات الكفاءة والقيادة والاستقامة، وباشارة من الوزير نظام الملك ولي آقسنقر مدينة حلب من قبل السلطان ملكشاه. فاستمرّ والياً عليها إلى أن جرت بينه وبين تاج الدولة، تتش بن ألب أرسلان، معارك انتهت بقتله سنة 487هـ ولم يترك آقسنقر الا ولداً صغيراً له من العمر عشر سنوات (عماد الدين).

- عماد الدين زنكي - الأتابك[2]

قضى الطفل عماد الدين زنكي حياته الأولى تحت أوصيائه وأصدقاء أبيه. ومن أبرز هؤلاء عماد الدين كربوغا صاحب الموصل. وشارك - وهو شاب - في بعض المعارك والمناوشات التي كانت تثار ضدّ الامارات الصليبية، فكانت تبدو منه البراعة والشجاعة. واسترعى انتباه السلاجقة والخليفة العباسي فأُقْطِعَ سنة 516 مدينة واسط وشحنكية البصرة[3]. وفي سنة 519 أعطيت له شحنكية بغداد والعراق. وفي سنة 521 نال الولاية على الموصل. وهنا فسح المجال أمام هذا البطل ليظهر نبوغه، ويقوم بنهضته الاصلاحية.

كان عماد الدين زنكي ذا همة عالية، لا مطمع له إلّا تكوين

(1) عرفه صاحب وفيات الاعيان بقوله: ابو سعيد آقسنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب؛ جد البيت الاتابكي أصحاب الموصل (ج 1 ص 271).

(2) اتابك لفظ يطلق على مربي اولاد الملوك. وعماد الدين زنكي نال هذا اللقب لأن السلطان محمود السلجوقي سلم اليه ولديه (الب ارسلان وفروخ شاه) لتربيتهما فاستحق هذا اللقب (عن وفيات الاعيان لابن خلكان). وقد شاعت هذه الكلمة في هذا العصر وكوّن أصحابها دولاً وامارات عرفت بدول الاتابكة.

(3) صاحب شرطتها.

مملكة إسلامية موحدة تقوى على مجابهة الصليبيين، وإبعاد خطرهم، وإزالة نفوذهم. وكانت سياسته مبنيةً على بث الأمن والعدالة الاجتماعية داخلياً. وعلى توسيع مملكته وتنظيمها خارجياً. وكان من عدله ونظامه أن شاع ذكره، واشتهر صيته. وبعثت إليه المدن تستنجد به ضد ظلم حكامها وسوء سيرتهم. وصادف ذلك هوىً في نفس عماد الدين، فأخذ يحتل المدن والحصون والقرى بالجزيرة الفراتية وديار بكر وغربي الفرات. ولم يمض زمن حتى أصبحت دولته تشمل الجزيرة الفراتية وأعالي الفرات وحمص وحماة وحلب وبعلبك ومعرة النعمان. كما افتك عدة حصون من الصليبيين، إذ أصبح يتاخمهم في كثير من الجهات ولم يبق خارجاً عنه من البلاد الشامية إلّا دمشق وما حولها، والممتلكات الصليبية، فكانت مملكة دمشق والممالك الصليبية هي الأعداء الرئيسية لعماد الدين زنكي.

فتح الرها[1]

وأعظم ما سجله عماد الدين زنكي هو فتحه لمدينة الرُها، وانتصاره على أميرها جوسلين الثاني سنة (539هـ ـ 1144م)، فأزال بذلك أول إمارة صليبية من حيث تكوينُها، ومن حيث امتدادُها بالمشرق الإسلامي. وكان للرها ما يقرب لبيت المقدس من القداسة في أخيلة العالم المسيحي، ولأنها تمت بأصولها إلى المسيحية الأولى وهي أول الدول الصليبية وترس الصليبيين من ناحية الشرق[2].

---

(1) الرها او الاديسة هي مدينة اورفا الحالية بشرق تركية شرقي الفرات سمت خليج الاسكندرونة ولها حرمة عند النصارى لكثرة ما فيها من الاديرة والكنائس ويقال ان بكنيستها العظمى منديل المسيح عليه السلام. كما بها معالم اسلامية جليلة منها جامع ينسب للخليل عليه السلام ومقام لايوب الصديق واضرحة لجابر الانصاري وابي عبيدة بن الجراح ـ وبديع الزمان الهمذاني ـ انظر عنها معجم البلدان ودائرة المعارف الاسلامية.

(2) فيشر ص 185 (تاريخ أروبا في العصور الوسطى) قسم 1.

واستمر عماد الدين زنكي في أعماله الجهادية والاصلاحية الى سنة (541هـ - 1146م) - فعندما ذهب إلى محاصرة قلعة جعبر[1] (على الضفة اليسرى من الفرات الأوسط)، وبينما كان محاصِراً لهذه القلعة، اغتاله - وهو نائم - جماعة من مماليكه بتحريض من أعدائه، فاثخنوه جراحاً مات بعدها بقليل.

وهكذا انتهت حياة هذا البطل الشهيد بعد «أن سار العدل في أيامه، واطمأنَّ الناس إلى سلامتهم الشخصية بعد أن أتى على تلك البلاد حين من الدهر عدم فيه الناس الثقة والأمن»[2]. هذا زيادة على محبته للعلم والعلماء، وإجرائه المصالح العامة وتأمين السبل وترفيه العيش والتيسير على الناس في الضرائب.

نور الدين محمود زنكي

لما توفِيَ عماد الدين زنكي ترك عدة أبناء أكبرهم سيف الدين غازي ونور الدين محمود، فاقتسم الأخَوان المملكة بينهما: القسم الشرقي لسيف الدين غازي، عاصمته الموصل، والقسم الغربي لنور الدين محمود، عاصمته حلب. وكانت مملكة نور الدين محمود بهذا الوضع هي المتاخمة للممالك الصليبية، ممَّا جعل نور الدين محمود يقوم معهم بصراع عنيف دام طولَ حياته؛ فقدر له بذلك أن يكون من أعظم أبطال الإسلام مقاومةً للصليبيين.

ولقد كان حُسْن النية ما بين الأخوين (سيف الدين غازي ونور الدين محمود) خيرَ ضمان لعدم الشقاق بينهما، فلم تؤثر فيهما الأغراض والمنافسات كما أثرت في غيرهما من ورثة الممالك والامارات.

وكان أعداء عماد الدين زنكي قد انتهزوا فرصة موته فانقض

(1) كانت قلعة جعبر بحوز بني عقيل.

(2) بروكلمان ج 2 ص 219 الترجمة العربية (تاريخ الشعوب الاسلامية).

جوسلين الثاني على مدينة الرها، واسترجعها، وعاث فيها، وانقضّ صاحب دمشق على بعلبك وكان الوالي عليها إذ ذاك، من قبل عماد الدين زنكي، القائد أيوب بن شاذي، فالتحق بصاحب دمشق وأصبح من قوّاده.

كانت حركة هذا الانقضاض خير ما عجم به عود نور الدين محمود بعد موت أبيه. ولهذا فما إن سمع بتوجه جوسلين الثاني إلى الرُها حتى توجه إليه من حلب في عشرة آلاف فارس واسترجعها منه. وفر جوسلين بعد أن مكث فيها نحو أسبوع فقط (541هـ في جمادى الثانية - وفي نوفمبر 1146م) وأدب نور الدين أهل الرُها المنتقضين. ثم أخذ يوسع مملكته على حساب الصليبيين، ففتح عدة حصون ومعاقل من أهمها حصون: أرتاج - باراة - بصرفوت - كفر لاثا. وبينما كان نور الدين محمود في عمله هذا كانت الأخبار قد وصلت إلى أروبا مستنجدة مستصرخة، فأخذت أروبا المسيحية تستعد لحرب صليبية أخرى.

2) الحرب الصليبية الثانية

يرجع سبب إثارة الحرب الصليبية الثانية إلى احتلال الرّها من طرف عماد الدين زنكي، ثم إلى استرجاعها مرةً ثانية من طرف ابنه نور الدين محمود ومعاقبته لأهلها، فقد كان هذا هو السبب الأصلي للحرب الصليبية، نظراً لما لهذه المدينة من الحرمة والقداسة عند المسيحيين، ونظراً لهذه الوثبة الإسلامية الجديدة، التي جعلت الامارات الصليبية تستهدف لخطر داهم.

وكان الداعي المحرض لهذه الصليبية راهباً فرنسياً اسمه «سان برنارد Saint Bernard de Clairvaux» وكان البابا إذ ذاك «اوجان الثالث[1] Eugène III» وعُقِدَ مجمع كنسي في مدينة «فيزولاي[2] Vézelay»

(1) تولى البابوية مدة «1145م 1153م».

(2) مدينة فرنسية في مقاطعة «آفالون/ Avallon» الحالية.

(مارس 1146 - 540هـ) واستجاب لذلك ملك فرنسا «لويز السابع Louis VII» وامبراطور المانيا «كونراد الثالث Conrad III» وسارت الجيوش الصليبية سالكة أوروبا الوسطى حتى وصلت القسطنطينية (اكتوبر ـ نوفمبر 1147م ـ 542هـ ـ). ولم تكنٍ علاقات الصليبيين مع الامبراطور البيزنطي «عمانويل Emmanuel» حسنةً. ولهذا سرعان ما توجه الصليبيون إلى آسيا الصغرى.

أما كنراد الثالث فقد سلك الطريق الذي سلكته الحرب الصليبية الأولى، فاصطدم مع سلاجقة قونية قرب إسكيشهر، وأجبروه على التراجع إلى نيقية ومنها إلى القسطنطينية حيث امتطى سفنا نقلته إلى بيت المقدس على طريق البحر. وأما لويز السابع ـ ملك فرنسا ـ فقد سلك الطريق الساحلي لبلاد الأناضول تجنبا لملاقاة السلاجقة. ولكن رغم ذلك فقد التقت به الجيوش الإسلامية السلجوقية وفتكت به (جانفي 1148م ـ 542هـ ـ) في جهة «بيسيدي[1] Pisidie». ولما وصل إلى ميناء أطالية[2] اكترى من واليها البيزنطي مراكبَ نقلته مع حاشيته والبعض من جيشه إلى أنطاكية. وهنالك اجتمع بصاحب أنطاكية «ريموند Raymond de Poi...»[3]. وكان من رأي هذا الأخير أن تقع محاربة نور الدين محمود؛ لأنه يمثل الخطر الحقيقي ضد الامارات الصليبية. ولكن لويز السابع امتنع من ذلك، مفضلاً زيارة بيت المقدس قبل كل شيء. واحتدم الخلاف بينهما حتى خرج لويز السابع مغاضباً متجهاً إلى بيت المقدس، حيث كان ينتظره امبراطور المانيا. وفي بيت المقدس تداول الرأي: امبراطور المانيا ولويز السابع وملك بيت المقدس، فاستقرّ أمرهم على أن يتوجهوا إلى مدينة دمشق ويحتلوها، رغم أن صاحبها يعتبر حليفاً للصليبيين، ومن أنصارهم ضد آل زنكي. وعلى هذا القرار سارت القوات الصليبية إلى دمشق وناصبتها الحصار. ولكن هذا الحصار لم يستمر إلا نحو خمسة أيام إذ دبّ الخلاف بين القادة الصليبيين، وهُدِّدُوا

---

(1) الجانب الغربي من ولاية قونية اليوم.

(2) اهم مدن خليج «اطالية / Adalia».

(3) كان صاحب انطاكية ابن اخي زوجة لويز السابع.

بقدوم سيف الدين غازي ونور الدين محمود. كما أن الدماشقة ساوموا مملكة بيت المقدس بتسليم حصن بانياس، إذا رُفع الحصار عن دمشق. وهكذا انتهى الأمر برفع الحصار عن دمشق (543هـ 1148م) وانتهت الحرب الصليبية الثانية بهذا الفشل الذريع والخيبة المرة، مما أنعش المجتمع الإسلامي، وقوّى من معنوياته. وقد كان أهم أسباب هذه الخيبة تلك الغلطة السياسية التي ارتكبها الصليبيون عندما توجهوا إلى حليفتهم دمشق، وناصبوها الحصار.

بقية أعمال نور الدين محمود

كان نور الدين محمود متبعاً لخطة أبيه (عماد الدين زنكي)، عاملاً على إيجاد وحدة إسلامية قوية، يستطيع بها التغلب على الصليبيين. وما فتىء نور الدين يحارب أعداءه، ويوسع دائرة ملكه على حساب هؤلاء الأعداء من صليبيين ودماشقة؛ فأخذ يفتح الحصون والقلاع. وتغلب على صاحب انطاكية (ريموند) وقتله (جويلية 1149م صفر 544 هـ). كما تغلب على جوسلين الثاني، واحتلّ الكثير من حصونه وقلاعه الواقعة شمالي حلب، منها عين تاب - عزاز - حصن الباره - تل خالد - كفر لاثا - كفرسوب - دلوك - مرعش - نهر الجوز - برج الرصاص[1]. وهكذا لم يمض قليل حتى أصبحت أملاك إمارة الرّها وغالب أملاك أنطاكية، -خصوصاً ما كان منها شرقي نهر العاصي[2]- خاضعة لسيادة نور الدين محمود.

احتلال الصليبيين لعسقلان، واحتلال نور الدين محمود لدمشق

كانت المملكة المصرية في هذا الزمن على غاية من الفوضى

(1) عن كتاب الروضتين.

(2) هو نهر عيسى، وتسميه الافرنج نهر L'Oronte.

والاضطراب. وأمام هذه الحالة السيئة اتجهت إليها أنظار الصليبيين، خصوصاً ملمكة بيت المقدس التي استغلت هذا الضعف والفوضى، فتوجهت جيوشها إلى مدينة عسقلان واحتلتها سنة (548هـ ـ 1153م). وكانت عسقلان هي آخر ما بقي للفواطم بالبلاد الشامية. أما نور الدين محمود فقد أخذ منه هذا الأمرُ مأخذاً عظيماً، سيّما وهو لا يستطيع إنجاد عسقلان ما دامت مملكة[1] دمشق تحول بينه وبينها، ولما كانت تظْهِرُه هذه المملكة من التقرّب إلى الصليبيين والخضوع لهم. لهذا وغيره عزم نور الدين محمود على فتح دمشق واحتلالها قبل أن يحتلّها الصليبيون. وقد ساعده على هذا العزم وجود حزب يناصره في دمشق يتزعمه القائد أيوب بن شاذي. وسار نور الدين إلى دمشق. وسرعان ما استسلمت إليه المدينة وفتحت أبوابها (في صفر 549هـ ـ 1154م). وبذلك ضمَّ نور الدين جميع البلاد الشامية الإسلامية. ثم عيَّن نور الدين محمود القائد أيوب بن شاذي حاكماً على مدينة دمشق، وعيّن أخاه شِيركوه بن شاذي حاكماً على ولايتها.

3) النزاع على مصر بين نور الدين والصليبيين

أشرنا سابقاً إلى أن مصر كانت في غاية الفوضى والاضطراب، وذلك بسبب الثورات الداخلية التي تثار من أجل التحصيل على منصب الوزارة، فالخليفة الفاطمي أصبح لا يمثل شيئاً، إنما الأمر بيد المتغلّبين من الوزراء والقواد. وكم جرت من مذابح ومعارك من أجل الوزارة للخلافة الفاطمية. ولم تستقر الحالة إلّا بتولية طلائع بن رُزَيِّك للوزارة سنة 549. ولكنه ما إن قتل (558هـ ـ 1163م) وتولّى بعده ابنه رزيك بن طلائع حتى عادت الفوضى.

وكان كلٌّ من نور الدين محمود، وملك بيت المقدس «أموري

(1) هذه المملكة هي من دول الأتابكة استولى عليها آل طغتكين من 497 الى ـ 549 ـ وكان آخر ملوكها مجير الدين أبق بن محمد، وهو الذي استسلم الى نور الدين وقضى بقية حياته في بغداد (ابن الأثير).

«Amaury I»[1] ينظر إلى مصر نظرة خاصة، ويود ضمَّها إليه لتعزيز جانبه. ولا يمنع كلًّا منهما عن احتلالها إلا خوفُه من الآخر. وكانت الخلافات الداخلية من أجل الوزارة الفاطمية موجبةً لتداخل كلٍّ من نور الدين وأموري في السياسة المصرية، وباعثة بهما إلى النزاع من أجل مصر.

ثورة شاور السعدي

عندما انتصب رُزَيِّك بن طلائع وزيراً للخلافة الفاطمية، ثار ضده شاور[2] بن مجير السعدي الوالي على مصر العليا. واستطاع أن يتغلب على رزيك ويقتله، وأن ينتصب وزيراً للخليفة الفاطمي «العاضد» في المحرم سنة (558هـ 1162م).

وأساء شاور السعدي وأبناؤه السِّيرة مما جعل أحد القواد (ضرغام بن عامر اللّخمي) يتواطأ مع الخليفة الفاطمي ضد الوزير شاور؛ فثار عليه وألجاه إلى الفرار وانتصب ضرغام على كرسي الوزارة، فتوجه شاور السعدي إلى دمشق مستنجداً بنور الدين محمود، متعهداً له بنفقات الحملة، وغرامة سنوية قدرُها ثلث إيراد البلاد المصرية. ولكنّ نور الدين محمود تلكّأ وتردَّد في إجابة طلب شاور السعدي إلى أن حدث ما أباد هذا التردد؛ فقد جاءت الأخبار معلمة بأن أموري (ملك بيت المقدس) هجم على مصر وتغلّب على ضرغام، فحالفه وأقرَّ له بالجزية خوفاً من تحالف شاور السعدي مع نور الدين محمود. هنا اضطر نور الدين إلى إجابة طلب شاور السعدي؛ فبعث معه قائده أسد الدين شيركوه. وكان من ضمن رجاله صلاح الدين الأيوبي. وهو ابن أخيه نجم الدين أيوب بن شاذي. وسرعان ما انتصر أسد الدين شيركوه على ضرغام.

(1) تولى بعد بودوين الثالث مدة (1162 ـ 1174) وتطلق عليه المصادر العربية القديمة (أملريك) أو مري.

(2) ابو شجاع شاور بن مجير السعدي ينهي ابن خلكان نسبه الى أبي ذؤيب عبد الله والد حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ.

وانتصب شاور السعدي على الوزارة من جديد، إلا أنه لم يَفِ بما تعهّد لنور الدين محمود، بل حالف مملكة بيت المقدس سرّياً؛ فاضطر أسد الدين لمحاربته بمساعدة صلاح الدين ابن أخيه. واستنجد شاور السعدي بملك بيت المقدس؛ واستطاعت الجيوش الشامية أن تصمد للجيوش المصرية والصليبية في بلبيس[1] من رمضان إلى ذي الحجرة (559هـ 1164م). وانتهز نور الدين محمود اشتغال أموري بحرب مصر، فتوجه إلى حصن حارم وحصن بانياس وفتحهما؛ فخشي أموري على مملكته، وأخذ يفاوض أسد الدين شيركوه في عقد هدنة بينهما. وتمت الهدنة على شرط انسحابهما عن مصر وتركها لأصحابها. وعلى هذه النتيجة انتهت الجولة الأولى من النزاع على مصر بين نور الدين والصليبيين.

الدور الثاني من النزاع على مصر

استفاد أسد الدين شيركوه من ذهابه الأول إلى مصر، إذ سبر أغوار المملكة المصرية وعرف ما فيها، وأيقن بضرورة الاستيلاء عليها للتغلب على الصليبيين، لهذا أخذ يهوّن أمرها عل نور الدين، ويطلب منه الاذن في احتلالها، وأذعن نور الدين أخيراً لرأي قائده فَجُرِّدَت حملة ثانية على مصر سنة 562هـ ـ 1167م ـ بقيادة أسد الدين شيركوه. وما إن سمع الوزير شاور بتوجه الجيوش النورية إلى مصر حتى بعث إلى أحلافه الصليبيين فأسرع إلى نجدته أموري ملك بيت المقدس. وتقابل الجيشان في صعيد مصر قرب «المُنْيَة» فانتصرت الجيوش النورية 563هـ 1167م ـ انتصاراً باهراً. وأظهر الشاب صلاح الدين الأيوبي براعة وثباتاً. ثم سارت الجيوش الشامية شمالاً إلى الإسكندرية فدخلتها دون مقاومة تذكر. وعمل القائد شيركوه على إتمام فتح البلاد المصرية (الفسطاط والقاهرة) فترك نصف جيشه بالاسكندرية، موكلاً قيادته وأمره إلى صلاح الدين الأيوبي.

(1) انظر موقعها بالخريطة عدد 2.

وكانت هذه المرة الأولى التي تولّى فيها صلاح الدين القيادة وتحمّل المسؤولية، وكأنَّ القدر قد هيّأ له المجال لاظهار بطولته وعبقريته؛ فإنه ما إن توجه عمه أسد الدين شيركوه إلى الفسطاط والقاهرة حتى هاجم الصليبيون الاسكندرية وحاصروها برًّا وبحراً بمساعدة الأسطول البيزنطي. واشتد الضيق على المحصورين بالاسكندرية وكادوا يستسلمون. ولكن صلاح الدين (القائد الشاب) أظهر الجلد والمقاومة، ودافع أحسن دفاع إلى أن أدركه عمه شيركوه. ومثل المرة الأولى انتهى الدور الثاني من النزاع على مصر بعقد هدنة التزم فيها الطرفان بالانسحاب عن مصر، وتركِها لأصحابها.

الدور الثالث والأخير من النزاع على مصر

لم يكن أموري (ملك بيت المقدس) مخلصَ النية في الهدنة السابقة، إذ لم يسحب كامل جيشه عن مصر؛ لأنه كان ينوي الاستيلاء عليها متى ابتعدت الجيوش الشامية عنها. وما إن اطمأنَّ لهذا حتى جرّدَ حملةً على البلاد المصرية واستولى على بلبيس، وفتكت جيوشه بالسكان وذبحوا الكثير منهم. وأغراهم هذا الانتصار فتقدموا إلى الفسطاط[1]. وخاف الوزير شاور من استيلاء الصليبيين عليها، فأشعل فيها النيران التي استمرت (54) يوماً أتت عليها تماماً. وتقدم الصليبيون إلى القاهرة وناصبوها الحصار. وأجرى شاور السعدي مفاوضات مع الصليبيين، وأحكم التمطيط لهذه المفاوضات ريثما تصل الجيوشُ النوريةُ التي بعث يستنجد بها.

وإذ كان نور الدين محمود عازماً على الاستيلاء على مصر فقد انتهز الفرصة مرةً أخرى، وأرسل للمرة الثالثة قائدَه شيركوه بمعية صلاح

(1) كانت مدينة الفسطاط هي العاصمة الأولى لمصر الاسلامية منذ عهد عمرو بن العاص وما زالت أطلال هذه المدينة المحترقة تشاهد الى اليوم قرب مصر القديمة الحالية.

الدين (ابن أخيه). وما إن وصلت الجيوش الشامية وانضمَّ إليها الجيش المصري حتى بادر الصليبيون بالانسحاب، وفكِّ الحصار دون إقدام على قتال.

ودخل شيركوه إلى القاهرة دخول القائد المنقذ، هلَّلَ له الناس واستبشروا به، وقرَّبَهُ الخليفة العاضدُ منه وخلع عليه. ثم دُبِّرت مؤامرة ضد شاور السعدي فقتل (564 ـ 1169) وانتصب أسد الدين شيركوه وزيراً للخلافة الفاطمية. ولكن لم تدم وزارته أكثر من شهرين فتوفي في جمادى الثانية 564 (مارس 1169م).

ملحقات الفصل الرابع

1) لله درك نور الدين من ملك

قال العماد الأصبهاني[1] يمدح نور الدين محمود لمّا ضمَّ إليه المملكة المصرية:

لله درُّك - نور الدين - من ملك بالعزم مفتتح، بالنصر مختتم
آثار عزمك في الإسلام واضحةٌ وسرّه لك بادٍ غير مكتتم
بما من العدل والاحسان تنشره تخافُ ربَّك خوفَ المذنب الاثم
أوردت مصرَ خيول النصر عادمة ثني الأعنة إقداماً على اللجم
فأقبلت في سحاب من ذوابلها وقضبها بدماء الهام منسجم
تمكَّنَ الرعب في قلب العدو بها تمكُّنَ النار بالإحراق في الفحم

* *

لله درُّك نور الدين من ملك عدل لحفظ أمور الدين، ملتزم
كانت ولاية مصر قبل عزتها بكشف دولتها لَحْماً على وَضَم
فالنيّلُ ملتطم، جارٍ على خجل جاراً لبحر نوال منك ملتطم
اغز الفرنج، فهذا وقت غزوهم واحطم جموعهم بالذابل الحطم

---

(1) عماد الدين محمد بن محمد الاصبهاني عاش من 519 الى 597 ولد بأصبهان وقدم الى بغداد ثم الشام حيث اتصل بنور الدين محمود. ثم أصبح بعد من خاصة صلاح الدين الايوبي - له تآليف كثيرة في الأدب والتاريخ، وديوان شعر. من أشهر تآليفه الفتح القسي في الفتح القدسي، وخريدة القصر وجريدة العصر.

وطهِّرِ القدس من رجس الصليب وثب على البغاث وثوب الأجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما في عقد عز من الاسـلام منتظم
محمود الملك الغازي يسـوسهما بالفضل والعدل والافضال والنُعم
بـالشكر كـل لسـان نـاطق أبـداً محمود الملك، محمود بكل فم
فأشكِ مصـر، وأظهر عـز سنتها كم تعتفي، وإلى كم تشتكي وكـم!

(كتاب الروضتين ج 1 ص 175)

الفصل الخامس

سلطنة صلاح الدين الأيوبي
الصليبية الثالثة

1) سلطنة صلاح الدين الأيوبي
2) استرجاع بيت المقدس من طرف صلاح الدين.
3) صلح الرملة ونهاية صلاح الدين الأيوبي.



1 - سلطنة صلاح الدين الأيوبي

وزارة صلاح الدين وإلغاء الخلافة الفاطمية

فكّر الخليفة «العاضَد» الفاطمي في اختيار وزير له بعد وفاة أسد الدين شيركوه، فقرَّ قراره على اتخاذ يوسف صلاح الدين خلفاً لعمه شيركوه رغم صغر سنه، ورغم وجود كبار القواد والرجال ضمن الجيش الشامي المرابط بمصر، فإن الخليفة «العاضد» اختار صلاح الدين لهذا المنصب الخطير[1]. وإذ كانت الخلافة الفاطمية شيعية ومناوئة للخلافة العباسية فقد عمل صلاح الدين الأيوبي على إزالتها وإلغائها. وأخذ يمهد لهذا الالغاء ويجس نبض رد الفعل، فأمر بعض[2] المساجد بقطع الخطبة عن العاضد الفاطمي، والدعاء للمستضيء العباسي. وإذ لم يظهر غضب لهذه البادرة فإنه عَمَّمَ هذا القطع في بقية المساجد. وفي هذا الوقت كان الخليفة العاضد على فراش الموت. ولم يمض قليل حتى توفي بدون أن يعلم بهذا الحادث التاريخي الهام. (مات العاضد يوم عاشوراء 567هـ ـ 1171م) وبموت العاضد انقرضت الخلافة الفاطمية

(1) يرجع بعض المؤرخين أسباب هذا الاختيار الى أن الخليفة العاضد كان يرجو التغلب على صلاح الدين نظرا لصغر سنه (31 سنة) ولكن الأقدار كان لها غير هذا.

(2) بدىء القطع من ثاني جمعة من المحرم سنة 567.

التي استمرت في مصر من سنة 362 إلى سنة 567[1].

سلطنة صلاح الدين الأيوبي

بموت الخليفة العاضد خلا الجو للملك الناصر (صلاح الدين يوسف ابن أيوب) وأصبح المتصرّف في مصر وصاحب السيادة فيها. وبقي تابعاً ـ سياسياً ـ لسيده نور الدين محمود، إلا أنها تبعية اسمية فقط.

وما إن أصبح صلاح الدين مستقلاً بمصر حتى أخذ في توسيع دائرة ملكه، وتنظيم مملكته، فغزا بلاد النوبة (جنوبي مصر) واحتلّ بلاد اليمن والحجاز. وأصبح البحر الأحمر تحت سيادته ونفوذه. واستمرّ صلاح الدين تحت الولاء الاسميّ لنور الدين محمود إلى أن توفي نور الدين (شوال 569هـ ـ 1173م) فانقسمت مملكته وتشتت. ولم يترك نور الدين محمود إلّا ولداً صغيراً عمره إحدى عشرة سنة لقب بالملك الصالح، وتولى تدبير مملكته شمس الدين ابن المقدم. وأخذت الفوضى تسود البلاد الشامية. وكان صلاح الدين لا يسرّه تفكك الوحدة الإسلامية الناشئة، واتخذ من مهاجمة سيف الدين غازي لشرقي مملكة نور الدين، ولمهادنة ابن المقدم مملكة بيت المقدس، ذريعة لتوجهه إلى دمشق واحتلالها في ربيع الأول (570هـ ـ 1174م). أما الملك الطفل ـ الصالح إسماعيل ـ ففرّ إلى حلب. ثم سار صلاح الدين إلى حمص وحماة واستولى عليهما. وتألّب ضدّه أمراءُ الدولة النورية وسيف الدين غازي صاحب الموصل بمشاركة الاسماعيلية[2] والصليبيين. ولكن

---

(1) ابتدأت الخلافة الفاطمية في المغرب منذ 297 واتخذت مدينة المهدية «بتونس» عاصمة لها. ثم انتقلت الخلافة الى القاهرة زمن المعز الفاطمي سنة 362 هـ.

(2) كان رئيس الاسماعيلية في الشام في ذلك الزمن هو سنان شيخ الجبل، الذي راسله سعد الدين كمشتكين وبذل له أموالا كثيرة ليرسل جماعة من اتباعه لاغتيال صلاح الدين. =

صلاح الدين استطاع أن يهزمهم جميعاً في معارك كثيرة أهمها معارك: قرون حماة، تل السلطان، أعزاز. وفي المحرم (571هـ ـ 1175م) تملك صلاح الدين مدينة حلب، واستمر صلاح الدين في عمله لتوحيد البلاد الشامية والمصرية تحت رايته. وما حلّت بسنة (582هـ ـ 1186م) حتى أصبحت مملكته تشمل شمال العراق والكردستان والشام واليمن ومصر وبرقة.

لم يكن صلاح الدين أثناء توسيع مملكته وتوطيد أركانها متجهاً بكليته إلى محاربة الصليبيين، بل كانت تقع بينهم وبينه مناوشات لا تذكر. وكان مع البعض منهم في هدنة ومسالمة، خصوصاً مع «أرناط صاحب الكرك Renaude de Chatillon» الذي كانت إمارته تفصل بين البلاد الشامية والبلاد المصرية، فكانت الهدنة التي وقعت بينه وبين صلاح الدين تسمح للقوافل بالانتقال من مصر إلى الشام أو العكس في سلامة وأمن.

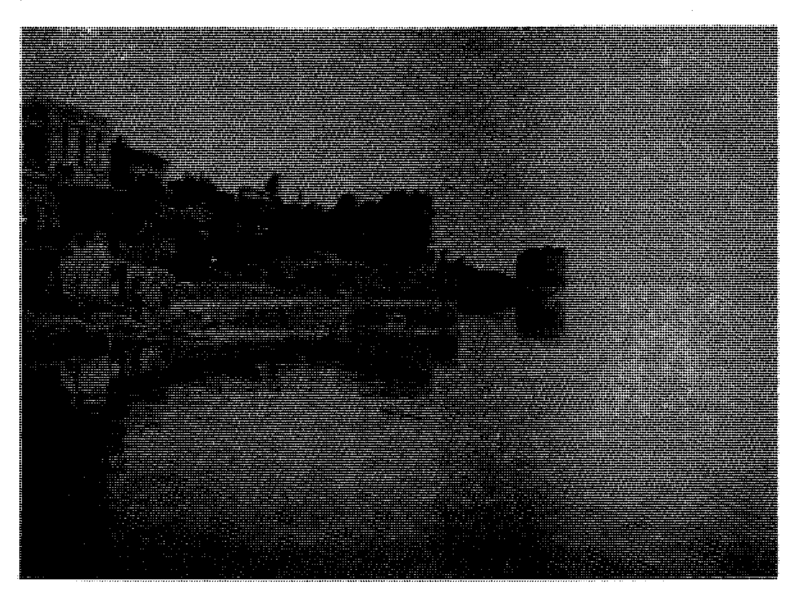
2 ـ استرجاع بيت المقدس

غدر صاحب الكَرَك وانتقاض الهدنة

في سنة (582هـ ـ 1186م) اعتدى ارناط على قافلة[1] تجارية تابعة لصلاح الدين الأيوبي فغنم أموالها وأسر رجالها. ورغم إنذارات صلاح الدين لأرناط بإرجاع ما اغتصبه فإن أرناط تمادى على إبائه وتعنته؛ فقرّر صلاح الدين الأيوبي الانتقام منه. وأقسم أن يقتله بيده متى ظفر به.

= وتمت المؤامرة فعلا، ولم ينج صلاح الدين من الاغتيال إلا بأعجوبة فقد حال بين جسمه والسيف لباسه الحديدي.

(1) هنالك بعض الروايات تقول: إن ضمن القافلة أخت صلاح الدين الأيوبي كما يذكر البعض ان القافلة كانت قاصدة فريضة الحج وفيها ابن اخته وكان ذلك سنة 583 هـ ولكن قصد صلاح الدين اليه منعه من التعرض لقافلة الحجاج ـ عن ابن الاثير، ج 9، ص 175.



بحيرة طبرية، جرت قربها معركة حطين

كان هذا الاعتداء الشرارة الأولى لانـدلاع الحروب التي شنهـا صلاح الدين ضد الصليبيين والتي أذاقهم فيها الأمرَّين، وذاع اسمه في أوروبـا على ممرٍّ الأجيال. بل بلغ الأمـر بهم أنهم أصبحوا يخـوفون صبيانهم بذكرِ صلاح الدين الأيوبي (Saladin). واستمرت هذه الحروب سنواتٍ متتاليةً. وكانت نتيجتهـا ما يأتي:

معركة حطّين

(ربيع الثاني 583هـ ـ جويلية 1187م).

عزم صلاح الدين الأيّوبي على معاقبة صاحب حصن الكَرَك وعلى مهاجمة مملكة بيت المقدس؛ فخرج من دمشق في المحرم (583هـ ـ 1187 م). ولما وصل رأس الماء جعله مركزاً لاجتماع الجيوش، فقد استنفر المسلمين للجهاد العام. وبقي ولده الملك الأفضل برأس الماء وسار هو إلى بُصْرى. وسار مظفّر الدين كوكبري إلى عكا. ومن بصرى

توجه صلاح الدين إلى حصن الكَرَك والشَوبَك. ثم عاد إلى طبرية. وأيقن الصليبيون باتساع الخطة التي دبرها صلاح الدين ضدهم فاجتمعت كلمة رؤسائهم، وحشدوا جموعهم وتوجهوا إلى طبرية. وتقابل الفريقان في حِطّين. وجرت معارك قاسية بين الطرفين انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي انتصاراً حاسماً، فقد هُزِم الصليبيون انهزاماً تاماً لم يفلت منهم أحد، بين قتلى وأسرى. وبلغ عدد قتلاهم عشرة آلاف، وأسر ملك بيت المقدس، وأرناط موقد شرارة هذه الحرب. وأظهر صلاح الدين شهامة وعطفاً مع أعدائه، خصوصاً ملك بيت المقدس. أما أرناط فقد برّ صلاح الدين بيمينه في شأنه وضرب عنقه. وكذلك أمر بقتل أسرى الداوية والاسبتارية[1].

من انتصار حطين إلى استسلام بيت المقدس

بعد الانتصار الكبير لصلاح الدين في حطّين توجه بقواته إلى ميناء عكـا؛ فاستسلم مَنْ فيها بأمان ودخلها صلاح الدين غرة جمادى الأولى (583 هـ - 1187م) وانتقل الصليبيون منها إلى مدينة صور. ثم وقع احتلال المدن والحصون التي حول عكا مثل (تبنين - صيدا - جُبيل - بيروت) وبعد ذلكساير الساحل وحاصر عسقلان مدة أربعة عشر يوماً. وانتهى الأمر باستسلامها في ١٦ جمـادى الثانيـة (583هـ - 1187م). وبذلك نصب صلاح الدين حصاراً على بيت المقدس، وحال بينها وبين الامدادات الصليبية التي كانت ترد إليها من الساحل: وتوجه إلى بيت المقدس بعد استسلام (الرملة - الداروم - غزة - بيت لحم - النطرون) وناصبها الحصار. ولم يطل أمد هذا الحصار سوى أسبوع واحد، انتهت بعده المقاومة الصليبية واستسلمت لصلاح الدين. ولم يفعل مع أهلها ما فعله الصليبيون مع المسلمين لما احتلوها في الحرب الصليبية الأولى،

(1) انظر ملحقات الفصل عن هاتين الفرقتين، اما الأماكن فحققهـا في الخريطة عدد 2.

لأن دينه وشهامته يأبيان عليه ذلك، فسمح للصليبيين بافتداء أنفسهم مقابل مقدار من المال (10 دنانير للرجل ـ 5 للمرأة ـ 2 للطفل) وأوسع لهم في أجل هذا الفداء لمدة 40 يوماً؛ فخرج الصليبيون تحت حماية القوات الإسلامية إلى مدينة صور، متعهدين بعدم الرجوع إلى الحرب. ودخل صلاح الدين بيت المقدس في رجب 583هـ (اكتوبر 1187م)[1]

كانت سياسة صلاح الدين الأيوبي في احتلاله للحصون والمدن الصليبية مبنيَّة على المحافظة على الأنفس البشرية قدر الامكان. وترجع سرعة احتلاله لمملكة بيت المقدس إلى سياسة الأمان الذي كان يبذله للصليبيين؛ فكانوا يُخْلُون قلاعهم ومدنهم، ويتوجهون إلى مدينة صور.

وهذه السياسة التي سلكها صلاح الدين كانت محل نقد من بعض المؤرخين نظراً للمتاعب التي انجرَّت له بعدها، لأن الصليبيين، وإن تعهدوا بعدم الرجوع إلى الحرب، إلا أن اجتماعهم بمدينة صور أغراهم على نقض العهد الذي قطعوه لصلاح الدين.

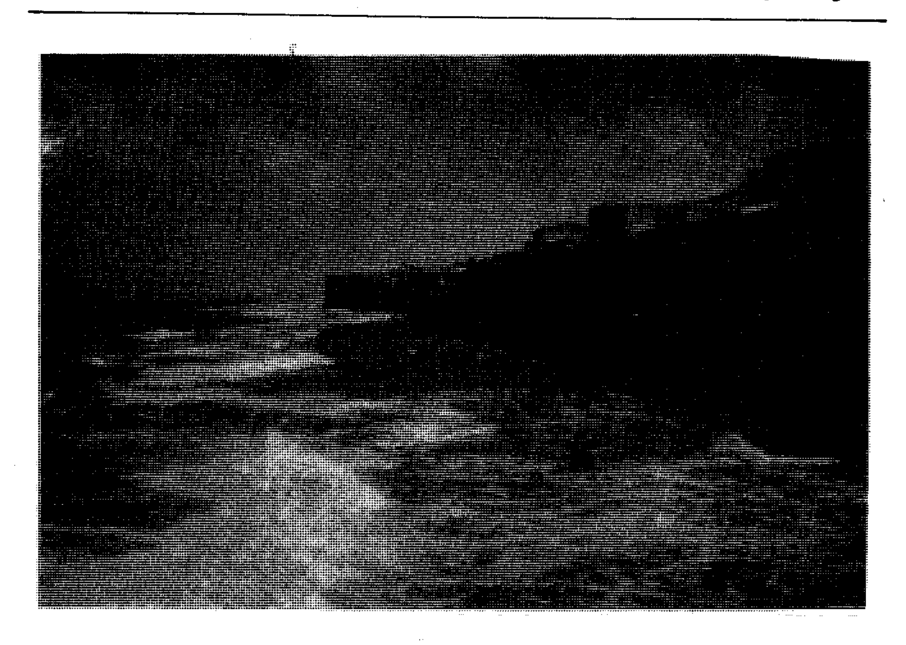
3) حصار عكا والحرب الصليبية الثالثة

حصار عكا

ما إن اجتمعت الفلول الصليبية المنهزمة بمدينة صور حتى أغراها اجتماعها وكثرتُها على نقض العهدِ الذي أعطته لصلاح الدين، لهذا توجه الصليبيون إلى مدينة عكَّا وناصبوها الحصار، اعتماداً على قوتهم المجتمعة، وعلى الامدادات التي ترد إليهم من أروبـا. وحصار عكا كان

---

(1) لما احتل الصليبيون بيت المقدس فرحوا واستبشروا لأن وقت استسلامها «الجمعة بعد الظهر»، كان يوافق نفس اليوم والساعة التي رفع فيها المسيح عليه السلام حسب اعتقادهم. واسترجاع صلاح الدين لبيت المقدس ودخوله إليها كان يوم ذكرى معراج الرسول ﷺ، وذلك مصادفة عجيبة.



سور مدينة عكا

له دويٌّ هائل في التاريخ نظراً لطوله الزمني (استمر عامين) ونظراً لضروب الشجاعة والبسالة والاقدام التي أظهرها كلٌّ من المتحاربين، سواء من المسلمين أو من الصليبيين.

سارت الجيوش الصليبية إلى عكا في 8 رجب (585هـ ـ 1189م) ووصلتها في منتصفه. وكانت هذه الجيوش تساير الساحل، ترافقها المراكب البحرية. وما إن وصل الصليبيون عكا حتى حاصروها براً وبحراً. ثم وصلت الجيوش الاسلامية. وحاصرت القوات الصليبيةَ من ناحية البحر. ونصب صلاح الدين خيمته على تلّ كيسان. واستمرت المناوشات والمعارك. وكان الأمر يشتد ويزداد كل يوم وساعة، فصلاح الدين بعث النفير إلى أطراف مملكته، والصليبيون تتوارد عليهم الامدادات[1] من أوروبا، التي ضجّت لنبأ استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس.

(1) كانت هذه الامدادات تتمثل غالبا في ورود سفن الجمهوريات الايطالية، وحتى من شمالي أوروبا كالدنمارك.

الحرب الصليبية الثالثة

وبينما كان الصليبيون يحاصرون مدينة عكا كانت ممالك أروبا تستعدّ لحرب صليبية ثالثة إثر الانتصارات الباهرة التي سجّلها صلاح الدين الأيوبي ضد الامارات الصليبية، واسترجاعه لبيت المقدس. وقد امتازت الحرب الصليبية الثالثة بأن كان على رأسها أعظم ملوك أروبا في ذلك الزمان:

1) امبراطور المانيا «فريديريك بربروس Frédéric Barbe - Rousse».
2) ملك فرنسا «فيليب اوغسطس Philippe Auguste».
3) ملك الانكليز «رتشارد قلب الاسد Richard Cœur de Lion».

مصير الحملة الالمانية

سار الأمبراطور الألماني في جيش لَجِب يُشمل نحو مائة ألف محارب مخترقاً بلاد المجر في اتجاه القسطنطينية. وأفزع هذا الجيش العرمرم الأمبراطورية البيزنطية، فلم يجد الألمان مساعدة ولا استبشاراً من البيزنطيين. وبلغ الأمر بالأمبراطور[1] البيزنطي أن أخطر صلاح الدين بمجيء الألمان. وأعلمه بأنه سوف لا يمدهم بأية إعانة. وعبرت الجيوش الالمانية إلى آسيا الصغرى. مقتفية خطى الصليبية الأولى. واعترضتهم قوات[2] سلاجقة قونية، ولكنها لم تستطع صدَّهم عن متابعة السير. ولما وصلوا أرمينية وجدوا من الأرمن خيرَ مساعد. إلا أن غَرَق الأمبراطور الألماني، وموته بنهر «سالف» في جبال أرمينية جعل هذا

(1) كان الامبراطور البيزنطي اذ ذاك هو «إسحاق لانج Isaac L'Ange».
(2) وكان سلطان قونية السلجوقي هو قليج ارسلان بن مسعود بن قليج أرسلان.

الجيش في تشتت واضطراب، ورجع غالبه إلى المانيا. أما بقيته فقد امتطت السفن إلى عكا وصور بقيادة «فريدريك دوسواب Frédéric de Souabe» ابن الأمبراطور الألماني. وحتى هذا الابن مات أثناء الطريق. ولم يصل إلى عكا إلا عدد قليل من هذا الجيش العرمرم، الذي لو وصل تامّاً لكان له أثر كبير في النزاع بين الصليبيين وصلاح الدين.

الحملتان الفرنسية والانكليزية

التقى الانكليز والفرنسيون في صقلية. وأقاموا فيها مدة طويلة بينما الصليبيون في عكّا ينتظرونهم بفارغ صبر. وإذ لم يكن الملكان: الفرنسي والانكليزي على وفاق، فقد بارح الفرنسيون صقلية في آخر مارس 1191م (587هـ) بينما الانكليز بارحوها بعد ذلك بعشرة أيام.

ووصل الفرنسيون إلى عكا في ٢٠ أبريل فأضافوا للصليبيين بعكا قوة أخرى وشدُّوا أزرهم.

أما ملك الانكليز «قلب الأسد» فقد ألقت عاصفة بأسطوله على جزيرة قبرص، التي كانت تابعة للأمبراطورية البيزنطية، فما كان من قلب الاسد إلا محاربة البيزنطيين والاستيلاء على قبرص والاستقرار بها مدة. ثم أبحر إلى عكّا بعد أن استنجد به[1] ملك بيت المقدس الذي أطلقه صلاح الدين من الأسر.

انتهاء مقاومة عكا واحتلالها من طرف الصليبيين

ازداد الصليبيون قوةً بمجيء قلب الأسد. ورغم المحاولات

(1) هو Guy de Lusignan.

العديدة التي بذلها صلاح الدين ورجاله لانقاذ مَن بعكا من المسلمين وفكِّ الحصار، فإنَّ كل المحاولات لم تُجْدِ نفعاً. واضطر المحصورون إلى الاستسلام بعد أن أيقنوا باستحالة نجدتهم وفك الحصار عنهم. وفي ظهر يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الثانية 587هـ (جويلية 1191م) بينما كان صلاح الدين يستشير خاصته فيما ورد عليه[1] من عزم المحصورين على المصالحة والاستسلام، ارتفعت الاعلام الصليبية على أسوار مدينة عكا معلنة احتلالها واستسلامها؛ ففوجىء المسلمون وارتاعوا. واستبشر الصليبيون وصاحوا.

الخلاف لدى القادة الصليبيين ورحيل الفرنسيين

لم يكن الاتفاق سائداً بين القادة الصليبيين. وقد رأينا الخلاف الذي كان بين ملك فرنسا وملك الانكليز عندما كانا في صقلية. وكان الخلاف أشدَّ بين ملك بيت المقدس الطريد وبين المركيز[2] صاحب مدينة صور. وقد كان ملك الانكليز يميل إلى ملك بيت المقدس بينما ملك فرنسا هواه مع المركيز صاحب صور، الطامع في تاج مملكة بيت المقدس. وحالما تمَّ انتصار الصليبيين في عكا عادت الخلافات إلى الظهور. وانتهت على اتفاق يتضمن استمرار ملك بيت المقدس حاملاً للتاج مدة حياته. وبعد موته يتولاه المركيز كنراد.

وبادر الملك الفرنسي بالرحيل إلى بلاده. أما قلب الأسد فقد انتشى بهذا الانتصار، وأخذ يهاجم القوات الإسلامية محاولاً افتكاك بيت المقدس من يد صلاح الدين الأيوبي، وجرت بينه وبين صلاح الدين

---

(1) كانت غالب المخابرات بين صلاح الدين والمسلمين المحصورين في عكا بواسطة عوام «سباح» يخترق نطاق الحصار حاملا الرسائل إما من صلاح الدين أو من المحصورين بعكا.

(2) هو «Conrad de Montferrat كنراد مونت فيرا».

معارك كثيرة، من أشهرها معركة أرسوف (شعبان 587هـ وسبتمبر 1191م) انتصر فيها الصليبيون، واعتبروها أخذاً بثأر معركة حطين.

4) صلح الرملة ونهاية صلاح الدين الأيوبي

استمرّت المعارك بين صلاح الدين والصليبيين. وحاولوا مرات الاقتراب من بيت المقدس حتى أصبحوا مرةً على فرسخين منها. وكان قلب الأسد لا يجاسر بمحاصرة بيت المقدس مخافَةَ أن يكون الحصار قاضياً عليه؛ لأن حماة بيت المقدس في هذه الصليبية لم يكونوا كحماتها في الصليبية الأولى. وتكاد الوقعات تكون سجالاً بين الصليبيين وصلاح الدين: الصليبيون لم يستطيعوا التوغل داخلَ البلاد الشامية وإنقاذ بيت المقدس، وصلاح الدين لم يستطع زحزحة الصليبيين عن الساحل وإلقائهم بالبحر، أو إبادتهم والانتصار عليهم. ولهذا كانت الدعوة إلى المهادنة تجد رغبة عند الجانبين. وإنما كان يعرقلها اشتراط الشروط وعدم التنازل.

معاهدة وصلح الرملة

وأخيراً رَكَن الطرفان إلى الصلح والمهادنة، فتم ذلك في شعبان (588هـ ـ سبتمبر 1192م) وكان أهم ما في هذا الصلح:

1) أن يستقر الصليبيون في الشريط الساحلي الممتد من صور إلى حيفا.
2) السماح للنصارى بزيارة بيت المقدس دون ضريبة يدفعونها.
3) أن تقع هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر.

والشريط الساحلي الذي استقرّ فيه الأفرنج هو الذي اعتبر امتداداً لمملكة بيت المقدس السابقة. وأصبحت مدينة عكا عاصمة لمملكة بيت

المقدس الحديدة. وبعد الهدنة بقليل غادر قلب الأسد[1] السواحل الشامية قاصداً بلاده بعد أن اكتسب شهرة عظيمة، وأصبح ألمع شخصية في الحرب الصليبية الثالثة.

وهكذا انتهت الصليبية الثالثة. وكان صلح الرملة قاطعاً لسلسلة الحروب التي أثارها صلاح الدين ضد الصليبيين، والتي اكتسب بها شهرة عالمية ومجداً لا يبلى. وقبل هذه الحروب كان المسلمون لا يملكون شيئاً غربيَّ نهر الأردن، وإذا بنتيجة هذه الحروب تفصح عن استرجاع بيت المقدس إلى حَظيرة الإسلام، واستيلاء المسلمين على الأراضي المحصورة بين نهر العاصي والأردن وبين البحر الأبيض المتوسط، ما عدا أجزاء ساحلية قليلة بقيت لامارة أنطاكية وإمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس الجديدة[2].

نهاية صلاح الدين الأيوبي

بعد صلح الرملة سار صلاح الدين إلى بيت المقدس وأمر بإجراء عدة إصلاحات وتنظيمات. ثم سار قاصداً دمشق فوصلها في 25 شوال 588. ولم يعمر صلاح الدين طويلاً بعد صلح الرملة؛ فقد وافاه الأجل وهو بدمشق فأسلم الروح في 27 صفر 589هـ (4 مارس 1193م)، وفارق الحياة بعد أن أدى رسالته على أكمل وجه وأتمه. وبعد أن خلَّد له مجداً في جهاده وأخلاقه وتعميره وإنشائه. وماذا ينتظر من البطل بعد أداء مهمته؟ إنه لا ينتظر منه سوى الصعود إلى الرفيق الأعلى ليلقى مثواه وجزاءه. رحم الله صلاح الدين وأجزل ثوابه.

(1) كان إبحار قلب الأسد في 9 أكتوبر 1192م.

(2) انظر الخريطة عدد 5.

ملحقات الفصل الخامس

1) أمين حياً وميتاً!

«. . ومن نوادر هذه الواقعة ومحاسنها أن عوّاماً مسلماً كان يقال له عيسى. وكان يدخل إلى البلد (عكا)، بالكتب والنفقات على وسطه، ليلاً على غرّة من العدو. وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو. وكان ذات ليلة شدّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر، وعام في البحر فجرى عليه من أهلكه. وأبطأ خبره عنا، وكانت عادته أنه إذا دخل البلد طار طير عرّفنا بوصوله فأبطأ الطير فاستشعر الناس هلاكه. ولما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر في البلد وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً، فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام. ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب. وكان الذهب نفقة للمجاهدين فما رؤي من أدّى الأمانة في حال حياته وقد أدّاها بعد وفاته إلا هذا الرجل».

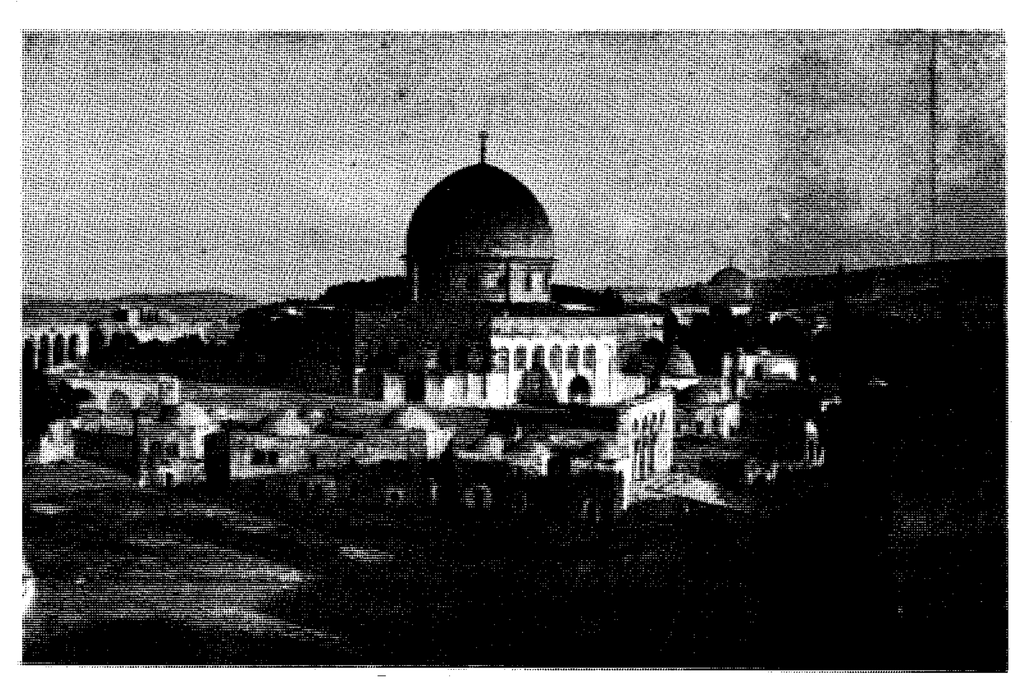
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص*135, 136*

---

2) بعد مائة عام

أول خطبة جمعة بالمسجد الأقصى

كان استرجاع بيت المقدس من طرف صلاح الدين الأيوبي يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة 583 وقت صلاة الجمعة. لكن



المسجد الأقصى، قبلة الإسلام الأولى

تعذرت إقامتها ذلك اليوم لضيق الوقت. ولهذا كان يوم الجمعة 4 شوال ـ ثامن يوم الفتح ـ هو أول يوم أقيمت فيه صلاة الجمعة منذ أن احتل الصليبيون بيت المقدس. وكان أول خطيب خطب في المسجد الأقصى هو القاضي محيـي الدين بن زكي الدين. ومما قاله هذا الخطيب بعد مقدمات الخطبة: «أيُّها الناس. ابشروا برضوان الله الذي هـو الغايـة القصوى والدرجة العليا لما يسَّرَهُ الله على أيديكم من استرداد هـذه الضالة وردّها إلى مقرّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه، وإماطة الشرك عن طرفه بعد أن امتد عليها رواقه، واستعمر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بنى عليه، وبالتقوى فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه. فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه السلام، وقبلتكم التي تصلّون إليها في ابتداء الإسلام.

وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقر الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي. وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو

في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين. وهو المسجد الذي صلّى فيه رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلم ـ بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبدَه ورسوله وكلمتَه التي ألقاها إلى مريم وروحه، عيسى الذي شرفه الله برسالته، وكرَّمه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته. فقال الله تعالى «لن يستنكف المسيحُ أن يكونَ عبداً لله» وقال «لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح بنُ مريم». وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين. لا تشدُّ الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعتقِد الخناصر بعد الموطنين إلّا عليه. ولو لا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار، ولا يباريكم في شرفها مبار. فطوبَى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعاتُ البدرية، والعزماتُ الصدّيقية، والفتوح العُمَرية، والجيوشُ العثمانية، والفتكاتُ العلوية.

جدّدتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية. فجازاكم الله عن نبيكم أفضلَ الجزاء. وشكرَ لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبَّل منكم ما تقرّبتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء؛ فاقدروا ـ رحمكم الله ـ هذه النعمة حق قدرها. وقوموا لله تعالى بواجب شكرها، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة». إلى آخر ما جاء في الخطبة (انظرها كاملة في كتاب الروضتين ص 110 - 111 ـ من الجزء الثاني).

3) الداوية والاسبتارية

اعتمدت الامارات الصليبية بعد استقرارها ـ أكثر ما اعتمدت ـ على فِرَقِ الفرسان الداوية والاسبتارية. وكانت هذه الفرق بمثابة جيش دائم للممالك الصليبية بالبلاد الشامية. وكانت إقامته بالقلاع والحصون

والثغور. وقد اكتسبوا شهرة واسعة[1] في محاربتهم للمسلمين، ونالوا عطف واستحسان الشعوب النصرانية وملوكها؛ فوُهِبتَ لهم العطايا وحُبست عليهم الأملاك والعقارات. وكان هؤلاء الفرسان يشبهون المرابطين من المسلمين، فيهبون أنفسَهم للجهاد ومراقبة العدو بالحدود والثغور. وكان لهؤلاء الفرسان زيّ خاص وأنظمة خاصة تشتمل على كثير من مبادىء الفروسية السائدة في تلك العصور، وعلى كثير من مظاهر التقشف المسيحي. وقد كانت الفكرة الأصلية للانضمام إلى هذه الفرق هي التطوع لمحاربة المسلمين والدفاع عن المسيحيين والأماكن النصرانية المقدسة.

أما الداوية أو فرسان المعبد (Les Templiers) فقد نشأت ونُظِّمَ قانونها منذ استقرار الصليبية الأولى. وقد صدر قانون أنظمتها ومبادئها سنة (512هـ 1118م) زمن بودوين الثاني. وقد أسس هذه الفرقة جماعة[2] من الفرسان الفرنسيين الذين قدموا إلى بيت المقدس في الحرب الصليبية الأولى. وأقاموا في عمارة تنسب إلى هيكل (Temple) سيدنا سليمان بن داود فنسبوا إليه.

ونظراً لما أغدِقَ على هذه الفرقة من العطايا والهبات فإنها أثرت ثراءً فاحشاً، واتجه نشاطها من بعدُ إلى الناحية المالية الصرفة، فأصبح أفرادها صيارفة لهم مصارف مالية لدى البابا وملوك أوروبا. إلى أن صدر قانون من البابا «كليمانت الخامس Clément V» سنة (712هـ 1312م) حجَّر فيه وأبطل قانون هذه الفرقة من الفرسان، التي لم تبق لها صبغتها الأصلية وأصبحت لها خطورة.

أما «الاسبتارية Les Hospitaliers» فيرجع تأسيسها إلى ما قبل الحرب الصليبية الأولى عندما طلب جماعة من تجار مدينة آمالفي[3]

---

(1) قد رأيت كيف ان صلاح الدين الايوبي بعد انتصار حطين لم يسمح باطلاق هؤلاء الفرسان من الأسر ولم يتسامح معهم كما تسامح مع بقية الصليبيين.

(2) عدتهم سبعة أو ثمانية برئاسة Hugues de Payens.

(3) (Amalfi) مرفأ إيطالي يقع بخليج «سالرن Salerne» وكانت أمالفي إذ ذاك تابعة لمملكة نابلي (Naples).

الايطالية من الخليفة الفاطمي ـ المستنصر معد ـ سنة (440هـ 1048) أن يسمح لهم بإقامة دَيْر وبيمارستان (Hôpital) ببيت المقدس على أن يكون مأوى وملجأ للحجاج النصارى للإقامة والعلاج أثناء زيارتهم لبيت المقدس. لكن تطوّر أمر هذه الجماعة لما قدمت الصليبية الأولى إذ وهبهم «قودوفروا دوبويون Godefroi de Bouillon» هباتٍ عديدة؛ وكان رئيسهم إذ ذاك يدعى «جرار Gérard». فصدر قانون جديد في تنظيمهم. وأصبح يطلق عليهم فرسان «القديس يوحنا Saint - Jean». وكانت لهم مشاركة قوية في محاربة المسلمين والدفاع عن المصالح الصليبية.

وعندما استرجع صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس تحوّل أفراد هذه الفرقة إلى مدينة عكا. ثم انتقلوا بعد ذلك إلى جزيرة قبرص فجزيرة رودس التي استمروا فيها من سنة 710هـ 1310م ـ إلى سنة 929هـ 1522م، فلما استولى عليها السلطان العثماني سليمان القانوني خرجوا منها إلى جزيرة مالطة وصمدوا لمحاربة العثمانيين وهجوماتهم. وفي سنة (1213هـ 1798) استولى بونابرت الفرنسي على جزيرة مالطة في طريقه إلى مصر. وأخذ أمر هؤلاء الفرسان بعد ذلك يضعف شيئاً فشيئاً حتى انقرضوا.



خريطة الإمارات الصليبية ومملكة صلاح الدين الأيوبي بعد الحرب الصليبية الثالثة.

الحروب الصليبية ـ خريطة عدد (5)

الفصل السادس

الصليبيتان الرابعة والخامسة

1) الحرب الصليبية الرابعة
2) استيلاء الصليبيين على القسطنطينية وإنشاء سلطنة لاتينية فيها.
3) الحرب الصليبية الخامسة.
4) حصار دمياط واحتلالها
5) محاولة الصليبيين الهجوم على القاهرة وخيبتهم وقعة المنصورة.



1) الحرب الصليبية الرابعة

الخلاف بين اللاتين والبيزنطيين

كان الخلاف مستحكماً بين الكنيستين الشرقية والغربية؛ فالمذهب الكاثوليكي كان يسود أروبا الغربية. وعاصمته رومة، مركز البابا. والمذهب الأرثوذكسي كان يسود أروبا الشرقية وعاصمته القسطنطينية، مركز كنيسة أيا صوفيا.

وكنيسة رومة تعتبر كنيسةَ القسطنطينية منشقةً عنها، مخالفةً للكثير من مبادئها المسيحية. وزيادة على هذا الخلاف المذهبي فهناك خلاف جنسي، فالبيزنطيون يعتبرون نصارى الغرب رواسب للقبائل البربرية التي هاجمت الحضارة الرومانية، والبيزنطيون هم الذين حافظوا على ذلك التراث قدر الامكان، وصدُّوا كل قوة تريد الانقضاض عليه وعلى العالم المسيحي، سيما الزحوف الإسلامية.

أما اللاتينيون فإنهم يزدرون البيزنطيين ويسخرون منهم، إذ كانوا رعايا للدولة الرومانية العظمى. وكان اليونانيون ـ كما كانت بقية المشرق ـ تحت الحكم الروماني اللاتيني وسيادته. وكان يسودهم اعتقاد أنه لن يستطيع مقارعة المسلمين إلا دولة لاتينية، تحل محلّ البيزنطيين

على البوسفور[1].

وهذا الاعتقاد كان هو المبدأ الذي انبنت عليه الخلافات السياسية بين أروبا الغربية والأمبراطورية البيزنطية، ونتجت عنه الحروب الكثيرة والمحاولات المتعددة للاستيلاء على أملاك الأمبراطورية البيزنطية. وقد سبقت الاشارة إلى بعض هذه الحروب والمحاولات في الحديث عن الحرب الصليبية الأولى.

وكنتيجة لهذا الشعور فإنّ الحرب الصليبية الرابعة سيتحوّل اتجاهها، لسبب غير منتظر، إلى القسطنطينية. ويقع احتلالها من طرف الصليبيين.

الحرب الصليبية الرابعة

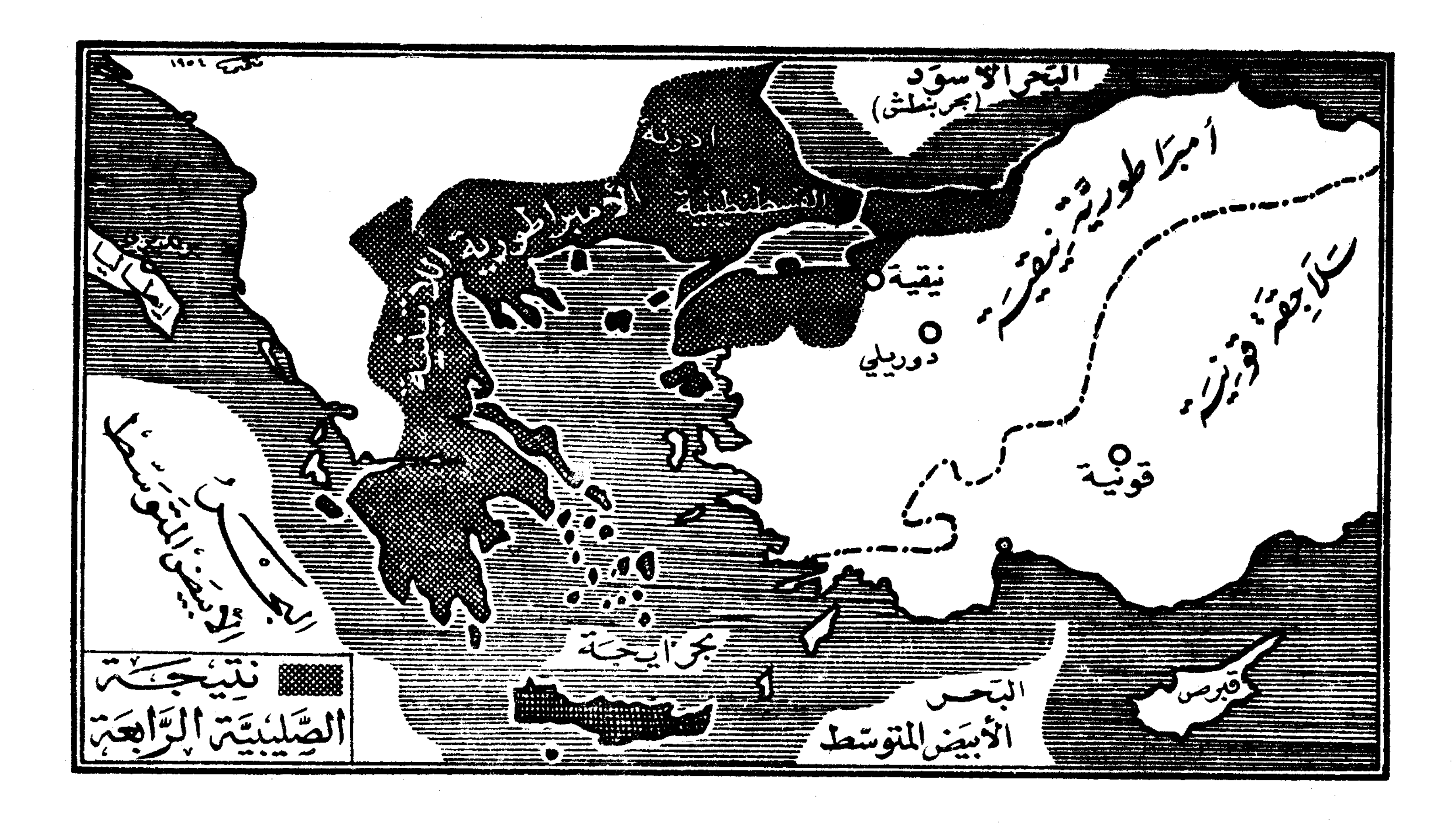
كان الدافع لهذه الحرب الصليبية هو الدافع العام للحروب التي سبقتها، دافع استرجاع بيت المقدس من أيدي المسلمين. وقد أثيرت هذه الحرب تحت إشراف البابا «اينوسان الثالث Innocent III» وكان داعيتها «فولك دونويي Foulouques de Neuilly». واستجاب لدعوته كثير من الاقطاعيين والأشراف بفرنسا، منهم بودوين التاسع. وكان عزم الصليبيين أن يتجهوا إلى مصر باعتبارها صاحبة السيادة على بيت المقدس. واتفقوا على أن يكون الإبحار من البندقية، يكترون سفنا تقلهم من هنالك إلى مصر. ووصل الصليبيون إلى البندقية، ولكنهم عجزوا عن دفع معلوم إيجار السفن البالغ مقداره - 85000 - مارك فضة.

دوق البندقية يحول اتجاه الصليبيين

لما احتار الصليبيون في جمع المال استغل دوق البندقية[2] «هنري

(1) أروبا في العصور الوسطى لفيشر ص 187.

(2) كل ملك من ملوكهم يسمونه (دوك) بالكاف المشوبة بالجيم فيقال (دوك البندقية) صبح =



الحروب الصليبية - خريطة عدد (6)

دندولو Henri Dandolo» هذه الحيرة فعرض عليهم التوجه إلى مدينة زارا[1] (Zara) بولاية دالماسيا التابعة لمملكة المجر. ورغم احتجاج البابا على هذا الاتجاه المخالف للغرض الأصلي فإن الصليبيين انقادوا إلى دوق البندقية واستولوا على مدينة «زارا» بقيادة الدوق، ولفائدة البندقية طبعاً.

وبينما الصليبيون ودوق البندقية نشاوى بهذا الانتصار إذ أقبل عليهم «ألكسيس الصغير Alexis le Jeune» ضدّ المتولي على عرش القسطنطينية ألكسيس الثالث، الذي عزل أباه واغتصب منه كرسي الامبراطورية. وبالغ ألكسيس الصغير في تعهداته ودفع التعويضات للصليبيين متى استطاعوا تحقيق رغبته في افتكاك منصب الامبراطورية من غاصبه.

وتحلّبَ فمُ دوق البندقية لهذا الاستنجاد والتعهدات؛ فأعمل جهده لتوجيه الصليبيين إلى القسطنطينية بعنوان إجابةِ الكسيس المطالب بعرش القسطنطينية. وأفلح الدوق في مهمته فأبحرت الحملة الصليبية واتجهت إلى عاصمة البيزنطيين. وفي 11 جويلية 1203م (599هـ) شرعت في محاصرة القسطنطينية، وانتهى الحصار بانتصار الصليبيين وإرجاع العرش إلى مستحقه. ولكن خلافاً كبيراً نشب بين الصليبيين والبيزنطيين بسبب التعويضات والتعهدات المالية أدّى إلى قيام الحرب وإعادة حصار القسطنطينية. وفي 12 افريل سنة 1204 م استسلمت المدينة وسقطت في أيدي الصليبيين والبنادقة؛ فعاثوا في المدينة ونهبوا ذخائرَها ونفائسَها، وأتوا على معالمها التاريخية وآثارها الفنية.

= الأعشى ج ـ 5 ص 48 ـ ومدينة البندقية (Venise) مدينة ايطالية تقع بخليج البندقية شمال بحر الادرياتيك. وكانت بالعصور الوسطى عاصمة لجمهورية البندقية التي كان لها دور كبير في نقل التجارة بين الشرق والغرب. وكانت لها مستعمرات بجزر الارخبيل والبحر الأسود. وقد قامت بدور عظيم زمن الحرب الصليبية.

(1) مدينة بيوغسلافيا على ساحل البحر الادرياتيك في مقاطعة دالماسيا.

2) السلطنة اللاتينية بالقسطنطينية

لما استولى الصليبيون على القسطنطينية انتخبوا «بودوين التاسع» امبراطوراً على القسطنطينية تحت اسم «بودوين الأول» اما منافسه «بونيفاس Boniface de Montferrat» فقد تولى ملكية مقدونيا وشمالي تساليا. وكان نصيب البنادقة من هذه الغنيمة كبيراً: اشتمل على أهمّ الجزر بالبحر الأيوني وشبه جزيرة المورة وجزائر بحر الأرخبيل وغير ذلك. كما أصبح بطريق القسطنطينية من البنادقة. وهكذا كانت نتيجة الحرب الصليبية الرابعة عندما تحوّل اتجاهُها عن مقصدها الأصلي؛ مما يزيد تأكيداً أن الروح الدينية لم تكن المسيطر الرئيسي على الصليبيين. واستمرت هذه الأمبراطورية اللاتينية (الفرنسية) مستولية على القسطنطينية إلى أن تمكن الاغريق من إرجاع عاصمتهم والتغلب على الصليبيين (سنة 1261م ـ 660هـ) بقيادة ميخائيل امبراطور نيقية[1].

3) الحرب الصليبية الخامسة

الدعوة للحرب الصليبية والاتجاه إلى الشام

في سنة 612هـ 1216م دعا البابا «هونوريوس الثالث Honorius III» إلى حرب صليبية خامسة؛ فاستجاب لدعوته ملك المجر «أندري الثاني André II» ودوق النمسا «ليوبولد السادس Léopold VI». وكان الغرض منها إنقاذ بيت المقدس واستخلاصها من أيدي المسلمين.

وكان سلطان الدولة الأيوبية إذ ذاك هو الملك العادل (ابو بكر بن ايوب) الذي ما إن سمع بنزول الصليبيين بعكا (613هـ سبتمبر 1217م)

(1) (Michel Paléologue).

حتى سار من مصر إلى الشام لملاقاة الصليبيين. ونهب الصليبيون البلاد الشامية من بيسان إلى بانياس، وكذلك صيدا والشقيف. وكان الملك العادل يتحاشى مجابهة الصليبيين وجهاً لوجه لقلّة جيشه حينذاك. ثم قصد الصليبيون قلعة الطور[1] وحاصروها (17 يوماً) ولكنها امتنعت عنهم، فعادوا أدراجَهم إلى عكا.

وإذ لم تأتِ الحرب في البلاد الشامية بفائدة تذكر قرر ملك المجر الرجوع إلى بلاده؛ أما ملك بيت المقدس[2] (مملكة عكا) فقد قرر مع بقية الصليبيين التوجه إلى البلاد المصرية واحتلالها باعتبارها المستولية على بيت المقدس. وكانت خطة الصليبيين مبنية على مهاجمة مدينة دمياط الواقعة على الفرع الشرقي لدلتا النيل: على معنى أنهم يحتلونها ثم يسايرون فرع النيل إلى القاهرة.

بدء حصار دمياط

في شهري صفر وماي سنة (615هـ 1218م) نزلت القوات الصليبية أمام دمياط وناصبوها الحصار. وكانت مدينة دمياط حصينة منيعة. ولهذا استمر حصارها مدة طويلة. وحدث أن مات الملك العادل (615هـ 1218م) أثناء الحصار، فدخل الاضطراب على الجيوش الإسلامية.

واستغلَّ الصليبيون هذه الفوضى، وتقوّت جهودهُم في التضييق على دمياط، والتغلب على تحصيناتها حتى استولوا عليها (شعبان 616 نوفمبر 1219). واستجم الصليبيون مدةً ثم قرروا متابعة زحفهم والتوجه إلى القاهرة. واستطاع الملك الكامل ابن الملك العادل أن يرجع الأمور إلى معتادها فاستقام له الأمر بمصر وأمسك بزمام السلطة وبعث إلى

(1) قلعة منيعة على جبل قريب من عكا. بناها الملك العادل (عن ابن الاثير).

(2) كان ملك بيت المقدس هو (Jean de Brienne) بعد ان تزوج بوارثة مملكة عكا (مارية).

إخوته ـ أمراء الشام ـ مستنجداً بهم ضد الصليبيين. واستعد لملاقاة الصليبيين في المكان الذي يسمى «المنصورة».

واقعة المنصورة

استعد الملك الكامل لملاقاة الصليبيين قرب المنصورة وصمد لهم هناك. واستمرّ القتال محتدماً بين الطرفين. وخشى الملك الكامل تفوق الصليبيين واحتلالهم القاهرة فأجرى معهم مخابرات في الصلح. وعرض عليهم تسليمَ بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية في مقابل تسليمهم دمياط والخروج من مصر. ولكنَّ الصليبيين لم يرضوا بهذا بل طلبوا ـ زيادة على ذلك ـ بتسليم حصن الكَرَك وثلاثمائة ألف دينار تعويضاً عن تخريب بيت المقدس. وهكذا أضاع القادة الصليبيون فرصة لا تعوَّض. وأغراهم عنادهم بمهاجمة القاهرة. وصادف أن كان الوقت زمنَ فيضان النيل؛ فقطع المصريون الجسور واندفعت المياه في الأرض المنخفضة التي كان فيها الصليبيون، فغمرتهم المياه، وحصرتهم من كل جانب، وأصبحوا في الماء والوحل. وانتصبت قوات إسلامية في المنفذ الوحيد الذي يمكن للصليبيين الخروج منه فأسقط في أيديهم، وركنوا إلى الاستسلام والخروج من مصرَ والانسحاب عن دمياط بدون مقابل (رجب 618هـ ـ اوت 1221 ـ)

جهل الصليبيين لطريق الغزو

هكذا انتهت الحرب الصليبية الخامسة بمثل هذه الخيبة المرّة. وقد ارتكب الصليبيون هفوتين كبيرتين كانتا السبَب في هذه الخيبة:

1) تفويت الصليبيين فرصة المصالحة التي عرضها الملك الكامل

حتى غدوا محلَّ لوم وتعنيف من رؤساء الممالك الأوروبيـة، خصوصاً ملك فرنسا.

2) سلوك الطريق الذي اتبعه الصليبيون لغزو مصر والقاهرة. وهو يعاكس الطريق الطبيعي للاستيلاء على البلاد المصرية، طريق الصحراء وشمالي سيناء (وهو الطريق الذي كان يسلكه المهاجرون والفاتحـون والتجار والحجاج والسائحون منذ أقدم العصـور. وهو طـريق إبراهيم عندما سار إلى بلاد العرب بابنه إسماعيل، وطريق يوسف عندما سار من الشام زمن الفراعنة، وطريق قمبيز ملك فارس حين سار لغزو مصر، والاسكندر المقدوني الذي مدَّ فتوحَه إلى الهند)[1] كما هو نفس الطريق الذي سلكه القائد عمرو بن العاص لفتح مصر، وسلكـه اموري زمن النزاع على مصر بينه وبين نور الدين محمود، وأمكنه الوصـول إلى القاهرة ومحاصرتها.

وهكذا كان جهل الصليبيين بالطريق الطبيعي للاستيلاء على مصر من أهم الأسباب التي أدّت إلى انهزامهم. ومن الغريب أيضاً أنّ حرباً صليبيةً أخرى ستتبع نفس طريق هذه الصليبية وسيكون نصيبها الفشل كذلك.

(1) تاريخ الاسلام السياسي ـ حسن ابراهيم حسن ج 1 ـ ص 183.

ملحقاتُ الفصْل السّادس

1) عيسى وموسى

لما أحدق الخطر بالصليبيين في مصر واضطروا إلى المفاوضة في الانسحاب والجلاء عن مدينة دمياط جاء قادة الصليبيين إلى الملك الكامل ليوقعوا على صلح الجلاء والانسحاب. واستقبلهم الملك الكامل في أبهة وعظمة؛ ويصف هذا المشهد ابن كثير بقوله:

«فجاء مقدموهم إليه، وعنده أخواه المعظم عيسى وموسى الأشرف، وكانا قائمين بين يديه، وكان يوماً مشهوداً؛ فوقع الصلح على ارادة الكامل - بيض الله وجهه - وملوك الفرنج والعساكر كلها واقفة بين يديه. ومد سماطاً عظيماً فاجتمع عليه المؤمن والكافر والبر والفاجر. وقام راجح الحلي[1] فأنشد:

هنيئاً فإنّ السعدَ راح مخلدا ... وقد أنجز الرحمانُ بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحاً بدا لنا ... مبينا وإنعاماً وعزًّا مؤبَّدَا
تَهلَّلَ وجهُ الدهر بعد قطوبه ... وأصبح وجهُ الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم باهله الطغا ... ة واضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سلَّ عزْمَه ... صقيلاً كما سلَّ الحسام مجرّدا
فلم ينجُ إلاّ كلُّ شلو مجدَّلٍ ... ثوى منهم أو من تراه مقيداً

(1) ابو الوفاء شرف الدين راجح بن إسماعيل الاسدي الحلي مدح ملوك مصر والشام، مات سنة 627 هـ.

ونادى لسان الكون في الأرض رافعاً عقيرتَهُ في الخافقين ومنشدا
أَعُبَّادَ عيسى: إن عيسى وحزبَهُ وموسى جميعاً يخدمون محمدا

من البداية والنهاية لابن كثير ج 13 - ص 95
النجوم الزاهرة ج 6 - ص 242

2) هدم سور بيت المقدس

كان الملك المعظم، عيسى بن الملك العادل، سلطاناً على الشام وبيت المقدس. ولما سمع بأن الصليبيين سيتوجهون إلى بيت المقدس أمر بهدم سور القدس وتخريبه. وشرع في تخريبه في المحرم سنة 616هـ. وقد استاء الناس من هذا العمل فخرجوا هائمين حيارَى تاركين أموالَهم وأهاليهَم، حتى مات خلق كثيرٌ من الجوع والعطش. ونهبت الأموال التي كانت لهم بالقدس، وارتفع الثمن، وغلت الأسعار، وذم الناس الملك المعظم على فعله هذا، إذ كان داعياً إلى بعث الفزع والروع في القلوب. وكان عملاً لا يتناسب مع جعل بيت المقدس وأهله تحت حمايته ورعايته. وقد أتاهم الخوف من حيث يرجون السلامة والأمن. وساءَ الخرابُ أحدَ الشعراء فأنشد قائلاً:

مررتُ على القدس الشريف مسلمًا على ما تبقَّى من ربوع كأنجم
ففاضت دموعُ العين مني صبابةً على ما مضى من عصرنا المتقدم
وقد رامَ علجٌ أن يعفّي رسومه وشمرَّ عن كفي لئيم مذمّم
فقلت له: شُلَّت يمينك خلِّها لمعتبر أو سائل أو مسلّم
فلو كان يفدي بالنفوس فديته بنفسي. وهذا الظن في كل مُسْلِم

(عن النجوم الزاهرة ج 6 ص 245)

الفصل السابع

الصليبيتان السادسة والسابعة

1) الحرب الصليبية السادسة.
2) استيلاء فريدريك الثاني على بيت المقدس صلحاً ثم استردادها من طرف الملك الصالح أيوب.
3) الحرب الصليبية السابعة.
4) استيلاء الصليبيين على دمياط.
5) انهزام الصليبيين وأسر الملك لويز التاسع.



1) الحرب الصليبية السادسة

كان الامبراطور الالماني ـ فريدريك الثاني ـ أعظم ملوك أوروبا إذ ذاك؛ فقد كان تاجه يشمل المانيا وايطاليا الشمالية وصقلية. وضمَّ إليه أيضاً تاج مملكة بيت المقدس لما تزوج بابنة جان دوبريان، وارثة مملكة بيت المقدس. ولقد سعى البابا هونوريوس الثالث في هذا الزواج حتى يَسْتَغِلَّ قوة فريدريك الثاني للقيام بحرب صليبية جديدة، وإنقاذ بيت المقدس. وقد حَصَل البابا على وعدٍ منه للقيام بهذه الصليبية: إذ لما ذهب ملك بيت المقدس سنة 619هـ (1222م) إلى إيطاليا، مستنجداً بالبابا بعد هزيمته في مصر، وقَعَ الاتفاقُ مع فريدريك الثاني حتَّى يقوم بحرب صليبية ويسترجِعَ بيت المقدس.

فريدريك الثاني والحضارة الإسلامية

كان فريدريك الثاني امبراطوراً على صقلية التي ما زالت عامرةً بالمسلمين. وكان محبًّا للمسلمين والثقافة الإسلامية، متخذاً كثيراً من العوائد الإسلامية، معتمداً على المسلمين في كثيرٍ من الأمور. وله اطلاع واسع على الثقافة الإسلامية، شديد الاعجاب بها. وكانت سيرته هذه لا يرضى عنها المسيحيون، وعلى رأسهم البابا، فأشاعوا عنه أنه كفر واعتنق الديانة الإسلامية.

وكانت له صلاتٌ بملوك الإسلام، خصوصاً الملك الكامل، سلطان مصر؛ فقد كانت المراسلات والوفود تتبادل بينه وبين فريدريك الثاني. وزاد من غضب البابا والمسيحيين على فريدريك الثاني أنه تباطأ في التوجّه إلى المشرق واستخلاص بيت المقدس. حتى إذا تولّى البابوية «قريقوار التاسع Grégoire IX» لم يحتمل هذا التلاعبَ والتباطؤ من الأمبراطور الألماني، فأعلن حرمانه[1] ولعنه، وحرَّم الذهاب معه إلى الأماكن المقدسة، مما جعل المسيحيين يُحْجمون عن مشاركته في حربه الصليبية. ولم يصاحِبْه إلاّ مئاتٌ قليلةٌ من الفرسان لما توجه إلى البلاد الشامية فيما بعد.

الخلافات في العائلة الأيوبية

كانت السلطنة العظمى التي شادها صلاح الدين الأيوبي مسرحاً للخلافات والاضطرابات بعد موته. ولكن أخاه (الملك العادل) استطاع أن يتغلب على الموقف. وأن يمسك بزمام السلطنة ويصبح سيّداً قوياً. إلا أنه لما مات الملك العادل ـ مدة حصار دمياط سنة 615هـ ـ عادت الخلافات بين أبنائه الثلاثة: 1) الملك الكامل صاحب مصر ـ 2) والملك المعظم صاحب دمشق وبيت المقدس ـ 3) والملك الأشرف صاحب الجزيرة وخلاط. وساءت العلاقة بينهم، خصوصاً بين الملك الكامل والملك المعظم.

وتحالف الملك المعظم ضد أخويه (الكامل والأشرف) مع جلال الدين ابن خوارزمشاه، طريد جنكيزخان زعيم التتر؛ فقد تفاقم أمر التتر في هذا الوقت وأخذوا يزحفون على المشرق الإسلامي، فتغلّبوا على الدولة الخوارزمية ووصلوا إلى شرقي العراق. وخاف الملك الكامل

(1) عقوبة اللّعن والحرمان كانت من أقوى الوسائل التي اتخذتها البابوية في العصور الوسطى للانتقام من كل مخالف لها او منتقض عليها. وكانت مظهرا من مظاهر السلطة الدينية الواسعة ألتي كانت للبابوية على الشعوب المسيحية اذ ذاك.

(سلطان مصر) من هذا التحالف الذي أمضاه أخوه المعظم مع جلال الدين بن خوارزمشاه الذي لا تقلُّ قساوة جيوشه ونهبهم وتخريباتهم عن أعمال التتر القاسية.

ونتيجة لهذا الخوف من تحالف الملك المعظّم والخوارزميين بعث الملك الكامل إلى الأمبراطور فريدريك الثاني يستقدمه إلى عكّا ليشغل أخاه المعظم عما هو فيه. ووعده ببيت المقدس[1]. وكان رسوله الموفد لهذا الغرض فخر الدين ابن الشيخ.

وحدث أن مات الملك المعظم قبل مجيء فريدريك الثاني، لأنه مات في ذي القعدة 624هـ (نوفمبر 1227م)، فانتهى بذلك أكبرُ منافس للملك الكامل. ولكن رغم هذا فقد سارت الأمور إلى غايتها.

2) استيلاء فريدريك الثاني على بيت المقدس صلحا

نزل الأمبراطور فريدريك الثاني بعكّا سنة 625هـ (سبتمبر 1228م). وكان الملك الكامل آنذاك بالبلاد الشامية؛ فقد توجّه إليها من مصر ليستولي على مملكة أخيه المعظم، التي أصبحت لابنه داود، الملك الناصر بن المعظم. ورغم قلة العدد الذي كان مع الأمبراطور فريدريك فإن مخابرات في الصلح جرت بين الأمبراطور والملك الكامل انتهت إلى اتفاق بينهما على القواعد الآتية:

أ ـ تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين على شرط أن يبقى سورُ بيت المقدس مخرَّباً ولا يعاد تجديده وبناؤه، وأن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة (جامع عمر). ويكون الحكم في الرساتيق إلى والي المسلمين[2].

ب ـ يكون على ملك الصليبيين القرى الممتدة على الطريق من بيت المقدس إلى مملكة عكا الصليبية.

---

(1) تتمة المختصر لابن الوردي ج 2 - 148.

(2) الرساتيق (مفرده رستاق) القرى والكور.

ج - يتعهد فريدريك الثاني بمساعدة الملك الكامل ضد خصومه سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين، كما يتعهد الامبراطور بالحيلولة دون الامدادات الصليبية إلى الأمراء الصليبيين بالشام مدة عشر سنوات ونصف. وكان الاتفاق في ربيع وفي فيفري سنة 626هـ 1229م.

ماهية هذا الصلح

كان الملك الكامل مدفوعاً إلى هذه المصالحة نظراً إلى الخلاف الذي نشب في العائلة الأيوبية، ونظراً لما يعلمه في الأمبراطور فريدريك من اللّين وقلّةِ التعصب، وما له من تسامح وتفهم.

وهذا الصلح يجعل بيتَ المقدس مدينةً مشتركةً بين المسيحيين والمسلمين، احتفظ فيه كلٌ منهم بأماكنه المقدسة. ولكن هذا الصلح لم يكن مَرْضِيًّا عنه لا من المسلمين ولا من الصليبيين. وقد استغل أعداء الملك الكامل هذا الصلح للتشهير به، فعقدت المجالس العامة في دمشق، وبكى الناس لهذا الحادث، واستغلَه أعداؤه ضده. أما الصليبيون فكان من أشد الأمور عليهم تعهد فريدريك بمساعدة الملك الكامل، ومنع الامدادات الجديدة إلى الامارات الصليبية.

وبعد الصلح بقليل توجّه فريدريك الثاني إلى زيارة بيت المقدس، واقتبله فيها شمس الدين، القاضي بنابلس نيابةً عن الملك الكامل، ثم أقلع إلى أروبا. أما الملك الكامل فانه انصرف بعد ذلك إلى توحيد مملكة بني أيوب تحت رايته فتمَّ له ذلك. ولكن ما إن مات سنة 635 هـ (1237م) حتى عاد البيت الأيوبي إلى الانقسام.

استرداد الملك الصالح أيوب لبيت المقدس

تولى الملك الصالح ايوب ابن الملك الكامل سنة 637هـ (1239م). وكان حسن التدبير، يعتبر آخر عظماء سلاطين بني أيوب. وكانت له عداوة مع بقية امراء بني أيوب، خصوصاً عمه الملك الصالح اسماعيل، الذي استولى على دمشق، وتحالف مع الصليبيين، وتنازل لهم عن بعض البقاع، منها طبرية.

وكانت قد نزلت قوات صليبية جديدة قادمة من فرنسا[١] من أشهر رجالها «طيبو الرابع كونت شمبانيا Thibaut IV» و«كونت بروطانيا بيير موكلير Pierre Mauclère» فلم يكن من الملك الصالح أيوب (صاحب مصر) إلا الاستعانة بالقبائل الخوارزمية. وجرت بينه وبين عمه الصالح إسماعيل والصليبيين معارك شديدة انتصر فيها الملك الصالح أيّوب عليهم جميعاً سنة 642هـ (1244م)[2] واسترجع بيت المقدس إلى حظيرة السيادة الإسلامية؛ فاستبشر المسلمون بهذا الانتصار، وفزعت أوروبا منه مما كان داعياً إلى إثارة حرب صليبية أخرى.

3) الحرب الصليبية السابعة

لويز التاسع ملك فرنسا يقود الحملة

كان لاسترجاع المسلمين بيت المقدس ردُّ فعل في أوروبا

(1) كان في هذه الحملة كثير من الشعراء انظر عنها ص 345 (R. Grousset: L'épopée des Croisades)

(2) تاريخ ابي الفداء (المختصر) ج2 ص 172 وبعض الكتب التاريخية تنسب ذلك الى الناصر =

المسيحية تجلّى في الحرب الصليبية التي قام بها ملك فرنسا(لويـز التاسع) فقد تجهز لحرب صليبية تجهيزاً عظيماً، واصطحب معه الكثيرَ من الأمراء والاشراف بفرنسا. وكان معه إخوته الثلاثة:

1) روبير دارتوا (Robert d'Artois)
2) الفونس دو بواتييه (Alphonse de Poitiers)
3) شارل دانجو (Charles d'Anjou)

كما كان معه المؤرخ الفرنسي لهذه الحملة (جوفروا دو سرجين) (Geoffroy de Sergines).

وأرسلت أساطيل لويز التاسع بجزيرة قبرص في سبتمبر 1248م (646م) لكنه بقي هنالك نحو ثمانية أشهر اتصل فيها بالامارات الصليبية في البلاد الشامية. وبإشارة من قيادة الفرسان الداوية قرر لويز التاسع الهجومَ على البلاد المصرية وغزوها؛ لأنها ذات السيادة على الأماكنْ المقدسة، وأن سلاطينَها هم الذين استرجعوا بيتَ المقدس المرَّةَ الأولى والثانية.

الاستيلاء على دمياط

وفي شهر ماي سنة 1249م (647هـ) أقلعت الحملة الصليبية من قبـرص في اتجاههـا إلى دمياط. ولكنّ عـاصفةً بحـريةً فـرّقت سفن الأسطول، وجعلتها تصل إلى سواحل مصر في فترات متعاقبـة. وقد كانت مراكب لويز التاسع أولى السفن التي وصلت إلى دمياط (صفر

= الأيوبي ويثبتون الابيات المشهورة:

المسجد الأقصى له آية ... سارت فصارت مثلا سائرا
اذا غدا للكفر مستوطنا ... أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهَّرَهُ أولاً ... وناصر طهره آخرا

إشارة إلى الملك الناصر صلاح الدين والملك الناصر داود.

647هـ ـ جوان 1249م) وفوجىء سكان دمياط وحاميتُها بهذا النزول الصليبي، فاضطربت أحوالهم ودخلهم الرُعب، فأخلوا المدينة وفرّوا تاركين بها الكثيرَ من السلاح والمتاع. وامتلك الصليبيون مدينة دمياط بدون مقاومة ولا عناء، حتى أن الملك الصالح اغتاظ لهذا الهروب، وعاقب الكثيرَ من حماة المدينة بالشنق[1].

ولم يتجه الصليبيون إلى القاهرة بعد احتلال دمياط مباشرةً؛ فقد بقي لويز التاسع نحوَ الستة أشهر ينتظر بقية السفن الصليبية ليزدادَ قوّةً. وقد مكن هذا التأخير المصريين من الاستعداد، وجمع الجيوش لملاقاة الصليبيين. وبادر الملك الصالح بالتوجه إلى المنصورة بُعَيْدَ احتلال دمياط من طرف الصليبيين حتى يستعدَّ لملاقاتهم وصدّهم عن احتلال القاهرة.

موت الملك الصالح ومعارك المنصورة

في الوقت الذي زحف فيه الصليبيون متجهين إلى القاهرة كان الملك الصالح أيوب على فراش الموت؛ فبعدَ تسعة أيام من الزحف الصليبي توفي الملك الصالح (شعبان 647هـ نوفمبر 1249م) في هذا الوقت الحرج العصيب. ولكنّ جاريتَه «شجرة الدر» أنقذت الموقف، إذ أخفت موته إلّا عن بعض خاصة القواد، وأخذت تدبّر معهم الأمر، وتصدر الأوامر باسم الملك الصالح، ريثما يصل ابنه ووليُّ عهده، الملك المعظم تورانشاه[2]. واستطاعت بذلك حفظَ المعسكر الإسلامي من الاضطراب والفوضى.

---

(1) كانت حامية دمياط من بني كنانة. وكان مقدمهم الامير فخر الدين. وقد بلغ عدد من شنق من أعيانهم خمسين شخصاً تاريخ ابن الوردي ج 2 ص 180 ـ والبداية والنهاية ج 13 ص 177.

(2) كان اذ ذاك متوليا حصن كيفا بالجزيرة الفراتية.

وكان مسلك الصليبيين هو مسلك الصليبية الخامسة حيث تكثر الترع والخلجان والبحيرات. وكانت للصليبيين هجمات موفقة واندفاعات كثيرة، واستطاعت فرقة من فرسانهم الدخول إلى شوارع المنصورة، لكنها قتلت عن آخرها[1].

وكان للمماليك[2] البحرية المقام الأول في الحرب والقتال؛ خصوصاً المملوك بيبرس البندقداري. واستمرت المعارك مع الصليبيين بقيادة المماليك إلى أن قدم تورانشاه إلى المنصورة في ذي القعدة، فأخذ بزمام الأمر، وتولى قيادة الحرب وتسيير دفتها.

انهزام الصليبيين وأسر لويز التاسع

كان مركز الصليبيين في غاية الحرج، إذ كانوا محصورين في المثلث الواقع بين فرع النيل وبحيرة المنزلة والبحر الصغير (النهر الصغير). ولهذا كانت أولَى خطط الملك تورانشاه أن يحول دون الصليبيين والمدد الذي يأتيهم من دمياط؛ فنقل سفنا مفككة على ظهور الابل وأنزلها بفرع النيل بين دمياط والعساكر الصليبية. وبذلك سدَّ عن الصليبيين منفذَهم الوحيد. وجرت بين الأسطول المصري والأسطول الصليبي معارك كبيرة انتهت بظفر الأسطول المصري وافتكاك ثلاثين سفينة صليبية[3]. واشتدَّ الضغط على الصليبيين، فقلَّ زادُهم وانقطع مدَدُهم؛ فتفشت فيهم الأمراض ونالهم الجوع، وأباد منهم المسلمون نحو الثلاثين ألفاً. وضاقت الأرض على الصليبيين فأخذوا يخابرون في المصالحة على أن يتخلّوا عن دمياط مقابل استرجاعهم لبيت المقدس. ولكنَّ تورانشاه أبى هذا. وأيقن الصليبيون بتصلّب القوات الإسلامية

(1) كانت هذه الفرقة بقيادة روباردارتوا أخي لويز التاسع. وقد قتل دارتوا مع فرقته باحد شوارع المنصورة.

(2) انظر عن المماليك ملحقات الفصل.

(3) ابن الوردي ج 2 ص 182.



واجهة دار ابن لقمان بالمنصورة التي سجن فيها لويز التاسع
(إدارة الآثار المصرية)

فدخلهم الاضطراب وعمدوا إلى إحراق أخشابهم وخيامهم، وتشتت جموعهم فذهب معظم الجيش تجاه دمياط. أما لويز التاسع فإنه التجأ إلى «تل منية عبد الله» قرب المنصورة. ولما احتوشته القوات الإسلامية وأيقن بالهلاك طلب الأمان فأمَّنه الطواشي[1] محسن الصالحي. وكان مع لويز التاسع نحو خمسة آلاف جندي. ثم اقتيد لويز التاسع إلى مدينة المنصورة حيث اعتقل في دار القاضي إبراهيم بن لقمان، ووكل به الطواشي صبيح المعظمي في (المحرم 648هـ 1250م).

نهاية الصليبية السابعة

لما اتجهت بقية الصليبيين إلى دمياط سارت إليهم القوات المصرية والتقت بهم بفارسكور[1] وهزمتهم. وانتهت بذلك المقاومة الصليبية. ثم افتدى الملك لويز التاسع رقبته وبقية من جيشه بغرامة مالية مقدارها (500,000 من العملة الفرنسية إذ ذاك) وتسليم دمياط بلا قيد ولا شرط[2].

وفي الثامن من شهر ماي 1250م (648هـ) أقلع لويز التاسع مع فلول جيشه من دمياط، متجهاً إلى مملكة عكا الصليبية حيث بقي هنالك أربع سنوات قضاها في تنظيم الامارات الصليبية الباقية. وعقد محالفة مع سنان شيخ الجبل، زعيم الاسماعيلية بالشام. كما تقرّب من التتر الذين كان خطرهم على العالم الإسلامي يزداد يوماً بعد يوم. وفي شهر افريل 1254م (652هـ) جاءت أخبار فرنسا معلمة لويز التاسع بوفاة أمه، فارتحل عن الشام قاصداً بلاده.

(1) الطواشي الخصي.. وهو مولد لم يوجد في كلام العرب، تاج العروس للزبيدي - وعن تكملة القواميس لدوزي تبعاً للمقريزي: انها كلمة تركية تكتب في الاصل - طابوشي -.

(2) انظر الخريطة عدد 7 لتتبع سير الحملة الصليبية السابعة.

مقتل تورانشاه وانتهاء الدولة الأيوبية

قبل ارتحال لويز التاسع عن مصر قُتِل الملك المعظم تورانشاه، إذ دبَّر المماليك البحرية مؤامرة ضده؛ لأنه أراد الاستغناء عنهم بالمماليك الذين جلبهم معه من الجزيرة الفراتية. وقد تواطأت مع المماليك الملكة «شجرة الدر» لأن تورانشاه كان يضايقها ويلح عليها في إعطائه مال أبيه. وقد توعدها إن لم تقر له بذلك. ونجحت المؤامرة وقتل تورانشاه على أبشع صورة (آخر المحرم 648هـ ماي 1250م). وبمقتل تورانشاه انتهت الدولة الأيوبية، وحلت محلها دولة المماليك، التي استمرت مستولية على مصر إلى سنة 923هـ 1517م.

ملحقات الفصل السابع

1) المماليك

المماليك من جهة اللغة جمع مملوك، وهو العبد الذي لا يملك حريته، بل كان ملكاً لغيره. وتطلق دولة المماليك أو سلطنة المماليك على المماليك الذين اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ليكونوا له جنداً وحرساً، لأنه لم يكن محبوباً من «الاكراد» جيش الدولة الأيوبية وعمادها. وفي ذلك يقول العلامة ابن خلدون: وأراد (الملك الصالح) الاكثار من العصابة لحماية الدولة، وإقامة رسوم الملك، وأن ذلك يحصل باتخاذ المماليك والاكثار منهم كما كانوا آخراً في الدولة العباسية ببغداد. وأخذ التجار في جلبهم إليه فاشترى منهم أعداداً. وأقام لتربيتهم أساتيذ معلّمين لحرفة الجندية من الثقافة والرمي، بعد تعليمهم الآداب الدينية والخلقية، إلى أن اجتمع منهم عدد جم يناهز الألف[1].

وهؤلاء المماليك الذين اشتراهم الملك الصالح أيوب يرجعون إلى الجنس التركي، وقد جلبوا من بلاد الخزر والقوقاز وسواحل البحر الأسود. وقد بنى لهم قلعة بجزيرة الروضة بالنيل، ولذلك يقال لهم المماليك البحرية أو التركية. وظهر منهم نبغاء القواد إذ كان لهم ولوع بالحرب والفروسية. وما زال أمرهم يعلو حتى دبروا مؤامرة ضد السلطان «تورانشاه» وقتلوه واستبدّوا بالأمر آخر سنة 648هـ. واستمروا سلاطين على مصر والشام إلى سنة 784هـ. وكان من أشهر سلاطين المماليك

---

(1) التعريف لابن خلدون، نشر وتحقيق محمد الطنجي ص 316.

البحرية المظفر قطز، والظاهر بيبرس، وقلاوون الصالحي، وابنه الاشرف خليل.

ثم استبد المماليك الشراكسة، وهم الذين اشتراهم السلطان قلاوون الصالحي (اقتداءً بسيده الصالح أيوب) ووضعهم في القلعة (قلعة صلاح الدين) ولذلك سمّوا بالبرجية تمييزاً لهم عن المماليك البحرية. واستمرّوا على حكم مصر والشام إلى سنة 923هـ. وكان من أشهر المماليك البرجية الظاهر برقوق، والسلطان الأشرف قانصوه الغوري. وكان آخرهم السلطان الغوري وطومان باي، وهما اللذان انتصر عليهما السلطان العثماني سليم الأول (922 ـ 923هـ) وكانت دولة المماليك من أشهر الدول الإسلامية بمصر. وقد اعتنى سلاطينها باقامة المدارس والمساجد. وأصبحت مصر في عهدهم ملجأ العلماء والمهاجرين من المشرق الإسلامي بعد سقوط بغداد وهجومات المغول. وهم الذين صدوا الزحف المغولي عن بقية العالم الإسلامي، وجدَّدُوا الخلافة العباسية في القاهرة بعد انقراضها من بغداد. واستمرت هنالك إلى أن انقرضت سلطنة المماليك فزالت بزوالهم.

2) دار ابن لقمان على حالها

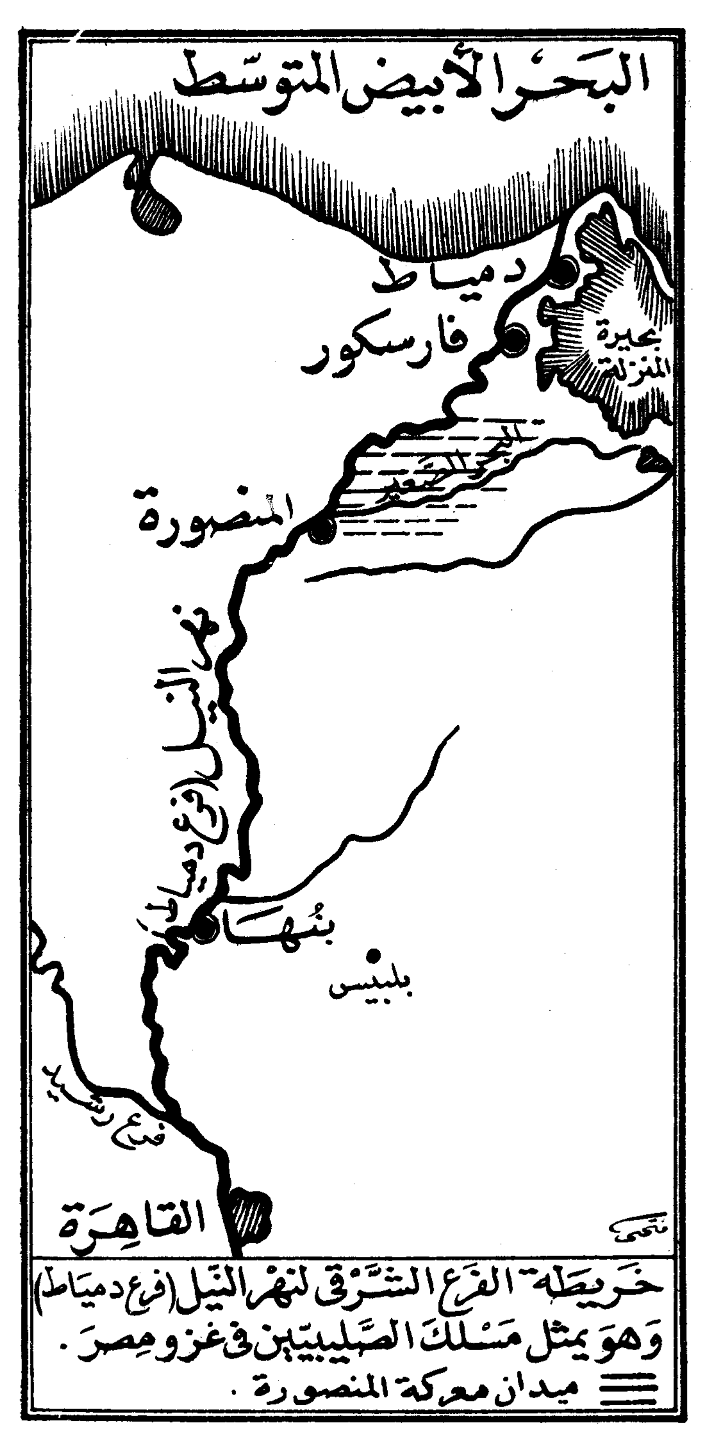
بعد أن أطلِقَ سراح سان لويز شاع في مصر أنه يريد العودة إلى دمياط وغزوها، فقال جمال الدين بن مطروح مهدداً[1]:

قُــل للفــرنسيس إذا جئتَــه ... مقال صدق من قؤول فصيح:
آجـرك الله على مـا جـرَى ... من قتل عبّاد يسوع المسيح
أتيتَ مصـر تبتغي ملكـهـا ... تحسب أن الزَمر يا طبل ريح
فسـاقـك الحَيْنُ إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح

(1) الامير الصاحب جمال الدين يحيى بن عيسى ابن مطروح توفي سنة 649 أو سنة 650 عن النجوم الزاهرة (ج7 ص 24 و ص 27) أصله من صعيد مصر وانتقل الى القاهرة واتصل بالملك الصالح أيوب وبرع في الادب والكتابة.

وكـــل أصحـــابـــك أودعتهم — بحسن تدبيرك بطنَ الضريح
خمســون ألفاً لا تـرى منهم — إلا قتيـلا أو أسيـرا جـريـح
ان كان «بابا كم» بذا راضيا — فَرُبَّ غش قَد أتى من نصيح
وقـل لهم ان أضمروا عـودة — لأخـذ ثأر أو لعقـد صحيـح
«دار ابن لقمانَ على حالهـا — والقيد باق والطواشي صبيح»

«النجوم الزاهرة ج 6 ـ ص 370»



خريطة الفرع الشرقي لنهر النيل (فرع دمياط) وهو يمثل مسلك الصليبيين في غزو مصر.

ميدان معركة المنصورة.

الحروب الصليبية - خريطة عدد (7)



الفصل الثامن

نهاية الصّليبيّين بالمشرق

الصّليبيّة الثامنة

1) نهاية الصليبيين بالمشرق الإسلامي
2) الحملة الصليبية الثامنة بتونس



1) نهاية الصليبيين بالمشرق الإسلامي

لما اعتلى الملك الظاهر بيبرس عرش سلطنة مصر أخذ يهاجم الصليبيين ويفتكُ منهم المدن والحصون (قيسارية ـ أرسوف صَفَد ـ يافا ـ الشقيف ـ أنطاكية ـ حصن الأكراد[1] ـ حصن عكار ـ وغير ذلك) عنوة أو مصالحة وما إن توفي الظاهر بيبرس (676هـ 1277م) حتى انحصرت الامارات الصليبية في منطقة ساحلية صغيرة لا تعدو عكا وطرابلس.

ورغم خطر التتر الذي ساد العراق وفارس، ورغم التعاون المعقود بين التتر والصليبيين؛ فإنَّ الظاهر بيبرس، بما له من دهاء وحسن تدبير، استطاع أن يعقد محالفة مع الامبراطورية البيزنطية، وتعاونا مع تتر القفجاق، الذين اعتنقوا الاسلام مع زعيمهم بَركة خان. وخابت بذلك الآمال التي كان يعلّقها الصليبيون على غزو التتر للعالم الإسلامي، فقد أصبحت منهم قوة مُسْلِمة تتعاون مع سلاطين مصر ضد المغول الذين لم يُسْلِمُوا بعد.

قلاوون الصالحي والأشرف خليل

ولما آلت سلطنة المماليك بمصر إلى سيف الدين قلاوون (678هـ ـ 1279م) بادر بعقد هدنة مع بقايا الصليبيين. ودفعه إلى ذلك عزم التتر على مهاجمة المماليك، ومخالفةُ بعض أمراء الشام عنه. واستعدَّ السلطان قلاوون لملاقاة التتر الذين تقدموا إلى البلاد الشامية، وجرت بينه وبينهم معركة عظيمة قرْبَ مدينة حمص (رجب 680هـ ـ 1282م) انتصر فيها قلاوُون على التتر انتصاراً باهراً، وطاردهم إلى أعالي الفرات. ثم وقع الصلح لحقن الدماء بين السلطان قلاوون وملك التتر[2]. وما إن أمِن السلطان قلاوون جانبَ التتر حتى التفت إلى

(1) حصن الاكراد من اشهر حصون الصَليبيين: ـ وقد لعب دوراً هاماً في الحروب الصليبية.

(2) كان ملك التتر أحمد بن ابغابن هولاكو. وقد أسلم تتر فارس والعراق كما أسلم من قبلهم تتر القفجاق.

الصليبيين، فاستولى على المرقب (684هـ ـ 1285م) وفي سنة 688هـ ـ 1289م استولى على مدينة طرابلس بعد أن ضيَّق عليها الحصار. وأمر قلاوون بهدمها وبناء مدينة جديدة على بعد ميلين منها، حاملة لاسم المدينة الأول.

وبالاستيلاء على مدينة طرابلس لم يبق للصليبيين في السواحل الشامية إلّا مدينة عكّا وما حولها. ثم عزم قلاوون على فتح مدينة عكّا فأمر بصنع النمجنيقات والاكثار منها استعداداً لمهاجمة عكا واحتلالها. وبينما كان الاستعداد يسير حثيثاً لهذا الهجوم إذ بالأجل يوافي السلطان قلاوون الصالحي (سنة 689هـ 1290م) فتولّى سلطنة مصر من بعده ابنه السلطان الأشرف خليل، الذي سُجِّل في عهده نهاية الصليبيين بالبلاد الشامية.

سقوط عكّا ونهاية الصليبيين

ما إن تسلّم الأشرف خليل زمامَ السلطنة المصرية حتى شرع في إتمام ما أراده والدُه من مهاجمة عكّا الصليبية والاستيلاء عليها. واستعدّ لهذا الأمر استعداداً عظيماً فخرج هو من مصر، وخرجت الجيوش الشامية من دمشق، والتقى الجمعان على عكا، ونُصِبَ عليها حصار شديد حتى اضطرت حاميتها الصليبية إلى الاستسلام في 17 جمادى الأولى 690هـ (ماي 1291م) وفرَّ الكثير من الصليبيين على طريق البحر إلى جزيرة قبرص وأروبا.

وكان وقع هذه الهزيمة شديداً على بقية الصليبيين فبادروا إلى الاستسلام بدون مقاومة. وهكذا استسلمت تباعاً مدن (صور ـ صيدا ـ بيروت ـ طرطوس) وكانت هذه الجولة هي الصورةَ الأخيرةَ من صور الصراع المرير بين المسلمين والصليبيين في المشرق الإسلامي، ذلك الصراع الذي استمرَّ قرنين من الزمن (490 - 690هـ) اتصل اثناءهما

العالمان المسيحي والإسلامي. وكان لكلّ منهما أثر في الآخر. وكان غنم المسيحيين أكبرَ وأوفَرَ؛ فقد استفادت أروبا المسيحية من احتكاكها بالعالم الإسلامي فوائد كثيرة، كان لها أبعد الأثر في نهضتها الحديثة، وخروجها من الحالة التي كانت عليها من جهالةٍ وبُعْدٍ عن الحضارة، مما سنراه أكثر تفصيلاً في الفصل الآتي.

هزيمة الصليبيين

كانت أهم الأسباب التي أنهت الصراع الصليبي بالفشل ترجع من ناحية إلى انبعاث روح المقاومة الإسلامية، ومن ناحية أخرى إلى فقدان الحماسة والاتحاد عند الصليبيين.

وإذا كان الصليبيون قد نجحوا أَوَّلَ الأمر في التغلب على المسلمين لفقدان القوة المدافعة والوحدة المانعة؛ فإنّ هذه القوة الإسلامية انبعثت منذ نهضة آل زنكي وتبعتها نهضة آل أيوب التي تمخضت عن سلطنة المماليك القوية.

أما الصليبيون فإن حماستهم الأولى أخذت نارها تخبو شيئاً فشيئاً فامَّحَتْ وحدتهم، وتغلّبت عليهم المصالح الشخصية، وساد بينهم الشقاق والخلاف مما ساعد المماليك ـ آخر الأمر ـ مساعدة كبرى على القضاء عليهم، وطردهم من ديار المشرق الإسلامي.

والواقع أن أمل الصليبيين في البقاء المستمر بالبلاد الشامية، والسيادة الدائمة على بيت المقدس قد أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً منذ أن عجزوا عن الاستقرار ببيت المقدس بعد أن استرجعها صلاح الدين الأيوبي. وانكمشت سيادتهم على ساحل البحر الشامي.

2) الحملة الصليبية الثامنة بتونس

الدولة الحفصية وعلاقتها بصقلية

كانت سيادة تونس (افريقية) تابعةً للموحدين[1] بالمغرب الأقصى. ولكن عندما ثار ابن غانية بتونس على الموحدين توجّه إليه أمير الموحدين (الناصر بن المنصور) من مراكش وقضى عليه. وقبل رجوعه إلى مراكش اختار أبا محمد عبدالواحد بن أبي حفص للولاية على إفريقية؛ فتقلّد ولايتها من سنة 603هـ إلى 618هـ. ولما تولّى ابنه أبو زكرياء الأول سنة 625هـ (1229م) ساد الاضطراب دولةَ الموحدين بالمغرب الأقصى؛ فاستبدَّ أبو زكرياء بامارة إفريقية سنة 632هـ وبويع على ذلك. ثم ضمَّ إليه قسنطينة وتلمسان وبجاية. واتجهت إليه الأنظار بالمغرب الإسلامي فجاءته البيعة من ملوك الأندلس وخطبوا له واستغاث به بعض[2] هؤلاء الملوك لردّ كيد النصارى؛ كما اعترف به الكثير من المدن بالمغرب الأقصى، وأصبح أبو زكرياء الحفصي من أشهر ملوك المغرب الإسلامي. وأصبحت عاصمته (تونس) قبلةَ القُصّاد والمنتجعين، وملجأ المهاجرين.

ونظم أبو زكرياء الأول علاقات تجارية مع الجمهوريات الايطالية: البندقية وبيزة وجنوة. وكانت له علاقات مع الأمبراطور فريدريك الثاني ملك صقلية، الذي عين له سفيراً بتونس. كما عقدت معاهدة بين الطرفين، التزم فيها أبو زكرياء بدفع أداء سنوي مقابل حرية سفنه التجارية، والاتجار في مناطق سيادة الأمبراطور الالماني[3].

---

(1) استولى الموحدون على تونس سنة 554هـ «1159 م» بعد الدولة الصنهاجية.

(2) هو ابن مردنيش صاحب بلنسية وكان رسوله الى ابي زكرياء الاديب ابا عبد الله بن الابار.

(3) ص 126 (Hist. de La Tunisie - A. Pellegrin)

المستنصر بالله الحفصي

في سنة 647 هـ ـ (1249م) ـ توفي أبو زكرياء الأول، فتولّى بعده ابنه أبو عبد الله محمد (المستنصر بالله). وازداد مقام الحفصيين في عهده اعتباراً وازدهاراً. وجاءته البيعة من مدينة فاس، ودُعِيَ له على منابرها.

ولما سقطت بغداد في يد التتر (656هـ ـ 1258م) جاءته البيعة من شريف مكة فتسمى بأمير المؤمنين[1]، وتلقب بلقب المستنصر بالله، واعتبر خليفة للمسلمين واعظم ملوك العالم الإسلامي.

وفي عهد المستنصر بالله ساءت العلاقات بين مملكة صقلية والبلاط الحفصي. فقد مات الامبراطور فريدريك الثاني، الذي عرفت علاقاتُه الحسنةُ مع المسلمين، وتسامحه معهم، ومحبَّتُه للثقافة الإسلامية. وبعد موت هذا الأمبراطور لحقت مسلمي صقلية وجنوب إيطاليا اضطهادات كثيرة ومعاملات سيئة. وتولّى أمرَ صقلية بعد فريدريك الثاني «شارل دانجو Charles d'Anjou» أخو لويز التاسع. وكان قد سار إلى مصر صحبة أخيه الملك لويز عندما قام بحملة صليبية سابقة.

كان تولّي شارل دانجو مملكةَ صقلية نتيجةً لرغبة البابا الذي كان يكره فريدريك الثاني، فعمل على إقصاء جنسه وأهله عن حكم مملكة صقلية. ولم يستتب الأمر لشارل دانجو، فقد ثار عليه كثير من الصقليين، وقَدِم منهم جماعة إلى تونس واستنجدوا بالمستنصر بالله الحفصي، فاقتبلهم بحفاوة وأعطاهم قوةً عسكرية، فاغتاظ لذلك شارل دانجو، واستحكم العداءُ بينه وبين الملك الحفصي، وطالب بالأتاوة التي

(1) تسمّى بذلك يوم الاثنين في 24 ذي الحجة سنة 656 هـ وكانت بيعة مكة من انشاء ابن سبعين (عن الزركشي ص 25).

كان يدفعها الحفصيون لملك صقلية مقابل الاتجار في مناطق سيادته فامتنـع المستنصر ولم يعترف بما طلبه منه.

حملة لويز التاسع على تونس
سنة 668 هـ 1270م

وعندما ترامت الأخبار إلى فرنسا معلمة بالضربات القاسية التي كان يكيلها الظاهر بيبرس إلى الصليبيين في البلاد الشامية عادت إلى الملك لويز التاسع الحمية الدينية، ونسي ما قطعه من عهد بعدم الرجوع إلى محاربة المسلمين، فقرر أن يقوم بحملة صليبية أخرى رغم الهـزيمة والأتعاب التي قاساها في حملته الصليبية الأولى. وقد كان المقصـد الأصلي من هذه الصليبية الجديدة هو الاتجاه إلى المشرق الإسلامي حيث اشتـد الخطر على الصليبيين. ولكنَّ حـدثاً جـديداً حـوَّل هذه الصليبيةَ عن اتجاهها الأصلي، فاتجهت إلى تونس عوض أن تتجه إلى مصر أو الشام.

وإذا كانت الصليبية الـرابعة قـد حوّل اتجـاهَهَا «دوق البنـدقية» لمصالح جمهوريته، فإن هذه الصليبية الثامنة قد حوَّل اتجاهَها واستغلَّها شارل دانجو، عدوُّ المستنصر الحفصي، وأخو لويز التاسع قائد الحملة.

لقـد تمكن شارل دانجـو من التـأثيـر على أخيـه لـويـز (التقي المتحمس) وأقنعه بضرورة التوجه إلى تونس، التي أصبح ملكهـا يلقَّبُ بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين. وفي ذلك ما فيه من إشباع العاطفة الدينية مع إمكان التوجه إلى الأماكن المقدسة من هناك، وافتكاكِها من أيدي المسلمين المستولين عليها.

ونجح شارل دانجو في مسعاه، فاتجه لويز التاسع إلى تونس تنفيذاً لخطة أخيه ومراميه الشخصية، لعلّه بذلك يستردُّ حقّـه الذي ادعّـاه، ويتغلّبُ على خصمه المستنصر بالله الحفصي.

نزول الصليبيين بقرطاجنة

جاءت الأخبار إلى المستنصر تعلمه بتوجه الصليبيين إلى تونس، فعقد مجلسه الشوري الذي بحثت فيه كيفية لقاء الصليبيين: هل يسمح لهم بالنزول، أو يصدّون عنه. وأخيراً استقر الرأي على أن يسمح لهم بالنزول مخافةَ أن ينزلوا في مكان آخر غير حصين. ولا مستعدٍّ لقتال. واخذ المستنصر يستعد لهذا اللقاء، وبَعَثَ بالنفير إلى أطراف مملكته، فجاءت النجدات من مختلف الجهات.

وفي آخر ذي القعدة 668هـ (1270م) أرست أساطيل لويز التاسع أمام مدينة قرطاجنة العتيقة (وأنزلوا عساكرهم بالمدينة القديمة من قرطاجنة وكانت مائلة الجدران. ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ونضدوا شرفاتها، وأداروا على السور خندقاً بعيد المهوى. وكانت عدَّتهم ستةَ آلاف فارس وثلاثين ألفاً من الرجَّالة. وكانت أساطيلهم 300 مركب بين كبير وصغير [1] ولم يشرع الصليبيون في مهاجمةٍ أو قتالٍ جدّي؛ فقد كان لويز التاسع يترقب وصولَ أخيه شارل دانجو من صقلية.

خطة المستنصر بالله الحفصي

ولم يكن المستنصر بالله يفكرّ في مهاجمة الصليبيين؛ فقد كانت خطته مبنية على مجرد الدفاع والمحاصرة. وكان جنده يتكوّن من جيشه، وقوات الموحدين، ومن المتطوعة. وملئت سواحل قرية رادس بالجند

(1) عن ابن خلدون ج 6 ص 293 ويلاحظ ان ابن خلدون كان يروي هذه الحوادث عن جده.

تحت قيادة محمد بن أبي الحسين، رئيس الدولة. وعقد ألوية سبعة تحت نظر يحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح لحصار الصليبيّين من الناحية البرية. وخرج كثير من الصلحاء والفقهاء، والمرابطون لمباشرة القتال بأنفسهم[1].

ولم تكن بين الفريقين معارك ذات أهمية سوى ما ذكره ابن خلدون من أنه في أول المحرم سنة 669هـ 1270م وقعت معركة كبيرة قتل فيها كثيرٌ من الفريقين. كما قام بعضُ الجند بمفاجأة للصليبيين عندما سلكوا طريقَ البحيرة حتى وصلوا إلى المعسكر الصليبي من طريق غير منتظرٍ خروجهم منه. وظفر هؤلاء المغامرون ببعض الشيء من الصليبيين الذين تفطنوا لهذا، وأقاموا حراسة من جانب البحيرة.

موت لويز التاسع

وطالت محاصرة الصليبيين حتى نالهم التَّعبُ والجوعُ، وتفشَّتْ فيهم الأمراض والأوبئة. ولم يسلم لويز التاسع من هذا الوباء فمات باصابة[2] وبائية في المحرم 669هـ (25 اوت 1270م)[3] في نفس اليوم الذي وصل فيه أخوه ملك صقلية وبعد ساعات من موته. وباشر شارل دانجو القيادة، وكان من فائدته استمرار الحرب والقتال إلا أن مرض فيليب [4] (ابن الملك لويز ووارثه على العرش) من جهة، وعزْمَ العربِ المتطوعة على الانصراف والاقلاع عن الحرب من جهة أخرى جعلا كلاً من المستنصر الحفصي والملك الفرنسي يميل إلى الصلح والكفّ عن القتال. وجرت المخابرات والمفاوضات بين الطرفين انتهت بهما إلى الاتفاق والصلح.

---

(1) المصدر السابق.

(2) تذكر المصادر العربية أسباباً أخرى لموت الملك لويز.

(3) ص 59 (La Berberie Orientale sous les Hafsides R. Brunschvig).

(4) هو المعروف بفيليب الجسور (Philippe le Hardi).

اتفاقية المستنصر والصليبيين، ربيع الأول 669 هـ ـ اكتوبر 1270 م

كان أهم ما اشتملت عليه اتفاقية الصلح: عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمسة عشر عاماً تدفع أثناءها الغرامة الحربية التي التزم بها المستنصر بالله الحفصي، وان يقع احترام مصالح الطرفين الدينية والتجارية، وألّا يتعرض الصليبيون لجهة من جهات المسلمين التابعة لسلطان تونس حالا أو مآلا. وتضمنت الاتفاقية فقرة خاصة بملك صقلية في شأن الأموال التي ادّعاها على الدولة الحفصية[1].

وكان الذي تولّى كتابة عقد الصلح القاضي ابن زيتون. وكان حاضراً معه أبو الحسن علي بن عمرو، وأحمد بن الغماز، وأبو زيان بن محمد بن عبد القوي[2]

وباتمام العقد على الصلح اتصل الفريقان اتصالاً سلمياً (ودخل المسلمون محلة النصارى وباعوا معهم واشتروا. وكانت مدة إقامتهم بتونس اربعة أشهر وعشرة أيام[3]. وأقلعت القوات الصليبية عن تونس بعد مدة يسيرة من إتمام الصلح. وصادفتها ـ عرض البحر ـ عاصفة شديدة اتت على الكثير من سفنها ورجالها، ووصلت البقية إلى صقلية سالمة.

الحروب الصليبية أكثر من الحملات الثماني

كانت الحملة الصليبية على تونس هي آخر الحملات الصليبية

(1) توجد النسخة الاصلية لهذا الاتفاق بوثائق وزارة الخارجية الفرنسية؛ ومنها صورة شمسية بمتحف سان لويز بقرطاج ونشرها ـ بـ. قاريو سنة 1912 بتونس ضمن رسالة تتعلق بحملة لويز التاسع على تونس.

(2) ابن خلدون المصدر السابق.

(3) عن ابن الشماع ص 67 تحقيق عثمان الكعاك. تونس.

التي اتخذت رقماً عددياً (الحملة الثامنة). والواقع أن الحملات الصليبية هي أكثر من هذا العدد؛ فقد بقيت الامدادات الصليبية ترد إلى المشرق الإسلامي طيلة هذين القرنين من الزمن. وكانت الاتصالات بين الصليبيين بالشام والنصارى بأروبا لا تعرف الانقطاع طول تلك المدة.

وإذا كانت الحروب الصليبية هي الحروب التي تدعو إليها البابوية متخذة الصليب شعاراً لها وجاعلة هدفها العام حماية المسيحية والمسيحيين، فإن كثيراً من الحروب التي أثيرت ضد بني عثمان لا تخرج عن نعتها بالحروب الصليبية. وكانت الحروب التي أثيرت ضد المسلمين بالاندلس تتجلى فيها الحروب الصليبية بصفة واضحة جلية. وإذا كانت الحروب الصليبية في المشرق قد انتهت إلى خيبتها المرة، فإن الحروب الصليبية في المغرب (الاندلس) قد انتهت إلى انتصار صليبي حاسم، انتهت بزوال الإسلام والمسلمين وانتصار المسيحيين، مما سيرد موضحاً مفصلاً.

ملحقات الفصل الثامن

1) اخت مصر

قال ابن الشماع:

«. . . ومن غريب الاتفاق أن الفرنصيص[1] لما دخل تونس قال احد ادبائها شعراً حسناً:

يا فرنصيص هذه اخت مصر	فتهيأ لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر	وطواشيك منكر ونكير

فصدقت الأقدار قوله. ومات بأرض المعلقة وأقبر بها».

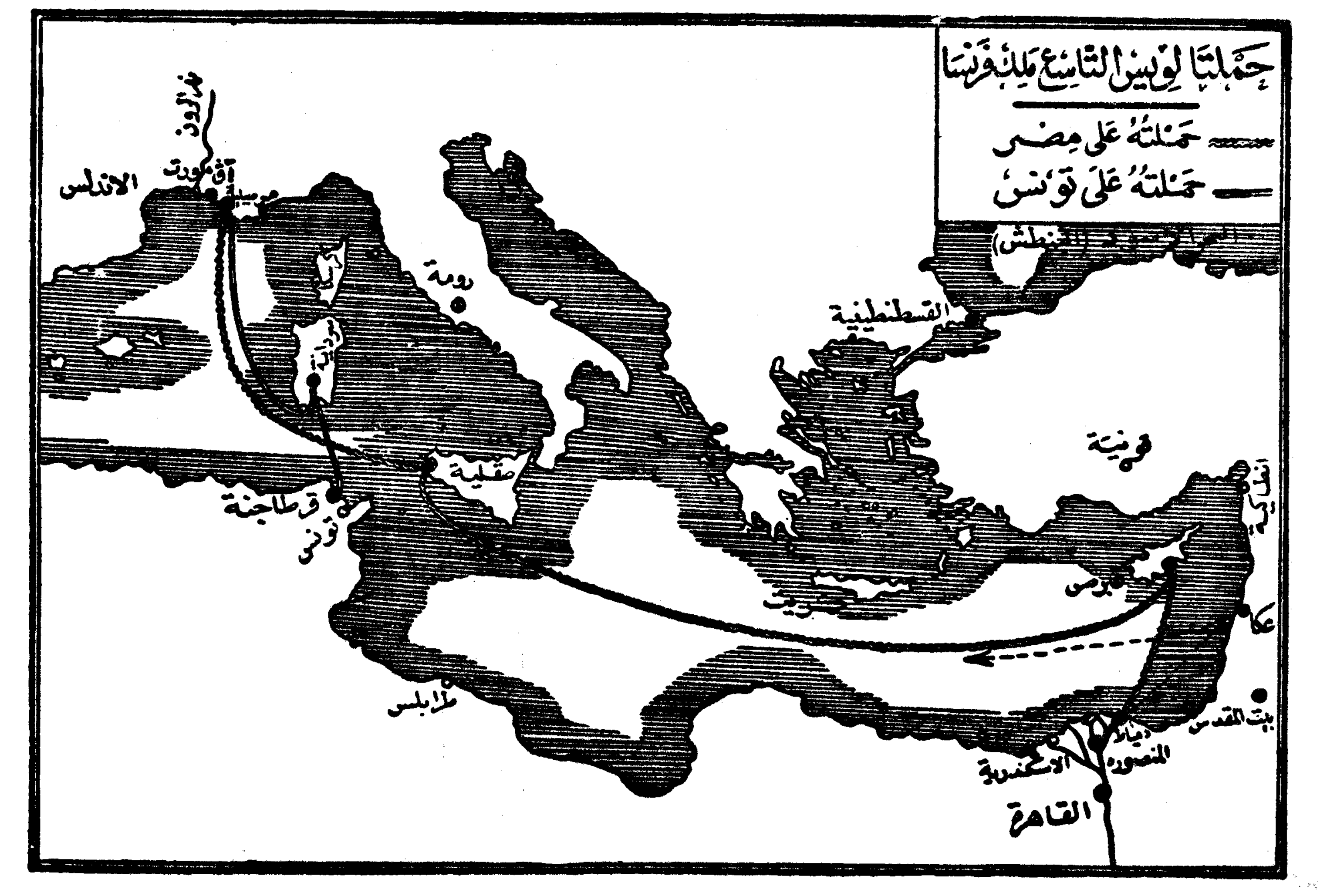
«الادلة البينة النورانية لابن الشماع ص67»

2) زالت دولة الصلب

كان لفتح عكّا من طرف الملك الأشرف صدى بعيد الأثر في المجتمع الإسلامي. وكان هذا الفتح مسجلاً انتهاءَ آخر مقاومة للصليبيين بالبلاد الشامية.

وشارك الشعراء في هذا السرور بقصائد كثيرة منها ما قاله شهاب الدين محمود في قصيدة طويلة:

(1) الفرنصيص هو الملك لويس التاسع، ويعبر عنه ابن خلدون بـ «ريد افرنس».



الحروب الصليبية - خريطة عدد (8)

الحمــد لله زالتْ دولــة الصلُب — وعزَّ بالترك دينُ المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال، لو طلبت — رؤياه في النَّوْم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكًّا وقد هدّت قواعـدها — في البحر للترك عند البر من أَرَبِ
لم يبْقَ من بعدها للكفر إذ خربت — في البحر والبر ما ينجي سوى الهرب
يا يوم عكا، لقد أنسيت ما سبقت — به الفتوح وما قد خُطَّ في الكُتُب
لم يبلغ النطق حدَّ الشكر فيك فما — عسى يقوم به ذو الشعر والادب

(البداية والنهاية ج 13 ص 323).

3) أدرك أندلسًا!

لما اشتد ضغط النصارى بالاندلس على صاحب بلنسية (ابن مردنيش) بعث هذا الأخير بوفد إلى تونس يستغيث بأبي زكرياء الحفصي، ويستنجد به ضد النصارى. وكان على رأس الوفد أبوعبد الله بن الابار (الكاتب الشاعر). ولما مثل الوفد بين يدي أبي زكرياء قام ابن الابار وأنشد قصيدة يستحث بها أبا زكرياء، ويصف فيها ما أصبح عليه مسلمو الاندلس من ضعف وتقهقر امام العدو؛ فبادر ابو زكرياء بالاغاثة، وشحن للوفد سفنا بالمال والقوت والكساء، ولكن وصلت هذه النجدة في وقت أصبح فيه سقوط مدينة بلنسية امراً مفروغاً منه. والقصيدة طويلة تقارب السبعين بيتاً. وفي أولها يقول ابن الابار:

أَدرْك بخيلك خيل الله أندلسا — إن السبيل إلى منجاتها دَرَسا
وَهَبْ لها من عزيز النصر ما التمسْت — فلم يزل منك عزُّ النصر ملتمَسَا
وحاش مِمَّا تعانيهِ حُشاشتها — فطالما ذاقت البلوى صَباحِ مَسا
يا للجزيرة أضحي أهلها جَزَراً — للحادثات وأمسى جدُّها تَعِسا

* * *

تَقَاسَمَ الرّومُ. لا نالت مقاسِمُهم — ولا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسيـة منهـا وقــرطبـة — ما ينسف النفس أَوْمَا يَنْزِفُ النَفَسَا

مــدائن حلّهـا الاشْـــراك مبتسـما   جـذلان، وارتحل الايمـان مبتئسـا
وصيَّـرتها العـوادي العابثـات بهـا   يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دسـاكر كـانت دونهَا حَـرَمَـا   ومن كنـائس كـانت قبلهـا كُنُسَـا
يـا للمساجـد عادت للعـدا بِيَعَـا   وللنـداء غَـدَا أثنـاءهـا جَــرَسَـا
لهفي عليها الى استرجـاعَ فائِتِهـا   مـدارسا للمثـاني أصبحت دُرُسَـا

(انظر القصيدة كاملة مع شيء من اخبار ابن الابار في ازهـار الـريـاض للمقــري ج 3 ص 207 ومـا بعــدهـا طبــع مصـر سنــة (1943 - 1361) .

النص الكامل للاتفاقية (*)
المعقودة بين المستنصر الحفصي والصليبيين

بسم الله الرحمان الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم تسليما.

هذا ما اتفقوا (؟) عليه وعقدوه على يد الشيخ الأجل الأكرم أبو زيان محمد بن عبد القوي الملك الأجل المعظم المختار فيليب[1] بنعمة الله تعالى ملك فرنسا ابن الملك الاجل I(**) الأقدس لويس[2] والملك الأجل جارل[3] بنعمة الله تعالى ملك صقلية والملك الأجل المعظم تيباط[4] ملك نفاره أمدهم الله تعالى بتوفيقه والخليفة الامام المؤيد المنصور أمير المؤمنين أبو عبد الله I محمد بن الأمراء الراشدين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته ورضي عنهم وأبقى للمسلمين بركتهم على شروط يأتي ذكرها وهي[5]:

(*) اعتمدنا على صورة للاتفاقية في حجم الاصل في مكتبتنا وجهت الينا من طرف السيد (قي بوجوان Guy Beaujouan) بواسطة الصديق الدكتور بو بكر بن يحيى خلال الخمسينات عن الاصل المحفوظ بالارشيف الوطني الفرنسي في الكرطون (carton J. 937[2] N 1) تقارن قراءتنا للنص بقراءة المسيو (P. Garrigou. Granchamp) في كتابه Documents divers relatifs a la croisade de Saint Louis. contre Tunis 1270 نشر تونس 1912 صفحات (18, 15).

(**) الخط العمودي (I) يدل على نهاية السطر في المخطوطة.

(1) Louis philipe le Hardi

(2) هولويز التاسع Saint Louis.

(3) Charles d'Anjou.

(4) Thibaut de Champagne roi de Navarre.

(5) الأرقام المتتابعة لفقرات المعاهدة من وضعنا للتوضيح والتمييز.

(1) ـ أن يكون جميع من يتردد من المسلمين الذين من بلاد أمير المؤمنين I ومما هو تحت طاعته وممّا سينضاف إلى طاعته إلى بلد من بلاد الملوك المذكورين والأقماط[6] والزعماء أو إلى جزيرة من الجزائر المعروفة بهم أو ما هو تحت طاعتهم أو ما ينضاف إلى طاعتهم في أمان الله I تعالى لا يعترض أحد منهم في نفس ولا مال كثير أو قليل.

(2) ـ وأن يكفوا كل من يخرج من بلادهم ومما هو تحت طاعتهم من مسطحات وقطع وشياطي[7] وغيرها من سائر I الأجفان[8] كبيرها وصغيرها لضرر أو تعد على شيء من بلاد أمير المؤمنين ومما سينضاف إلى طاعته وما بينهما من جميع البلاد والجزائر والسواحل والمراسي أو على أحد من ساكنيها فمتى أصيب أحد من المسلمين I المذكورين في نفس أو مال قليل أو كثير فعليهم جبر ذلك على المسلمين ورده سواء كان المسلمون واردين على البلاد المذكورة أو صادرين عنها.

(3) ـ وعلى أنهم لا يمدّون أحداً يريد ضرر بلد من بلاد أمير I المؤمنين ولا ما ينضاف إليها ولا أحد من أهلها.

(4) ـ وعلى أنه متى انكسر لأحد من المسلمين المذكورين جفن أو جفن للنصارى وفيه أحد المسلمين المذكورين في مرسى من مراسي بلادهم وفيما يكون تحت I طاعتهم فعلى كل واحد منهم حفظ ما يصل من ذلك الى برّ طاعتهم من المسلمين أو من أموالهم وردّ جميع ذلك الى المسلمين.

(5) ـ وعلى ان يكون جميع من يحلّ من مراكب المسلمين والنصارى من غير البلاد I المذكورة ومما ينضاف الى طاعة المسلمين في مرسى من مراسي أمير المؤمنين في أمن مثل أمن أهل البلاد ما داموا في المرسى المذكور أو مقلعين واردين أو صادرين.

---

(6) الاقماط جمع قمط اوكمت (Comte) من ألقاب الشرف بأروبا في العصور الوسطى. ومازالت بعض العائلات تحتفظ به الى اليوم.

(7) مسطحات: جمع مسطح نوع من السفن قد يكون له سطح. قطع: جمع قطعة (Galère) نوع من السفن كان يسير بالقلاع والمجاذيف. شياطي: جمع شيطي أو شيطية سفن صغيرة ذات صاريين (ينظر دوزى: RDozy Suplement aux dicts arabes

(8) أجفان: مفرده جفن ـ ويجمع على جفون أيضاً: السفينة.

(6) ـ وعلى ان يكون جميع من يصل من تجار I أهل بلاد الملوك المذكورين وجميع النصارى الذين هم أصدقاؤهم في أمن الله تعالى في أنفسهم وأموالهم على المعهود المتعارف فيما لهم وعليهم من بيوعهم وأشريتهم محفوظين في ترددهم وإقامتهم I ما داموا مقبلين على تجارتهم محافظين على ربوط[9] هذا الصلح ويكون لهم من الشروط مثل ما اشترط على الملوك المذكورين سوا حرف[10] بحرف.

(7) ـ وعلى أن يكون رهبان النصارى وقسوسهم سكاناً I في بلاد أمير المؤمنين وهو يعطيهم موضعاً يعمرون فيه دياره[11] وبيوت الصلاة ومواضع لدفن موتاهم والرهبان والقسوس المذكورين[12] يعظون ويصلون مجهراً في كنائسهم ويخدمون الله بما يلزم I شريعتهم وبما هم معوّدون في بلدهم.

(8) ـ وعلى أن جميع التجار الذين في بلد أمير المؤمنين من بلاد الملوك المذكورين وغيرها من النصارى يكونون على عوائدهم في جميع أمورهم ويرد لهم كلّ شيء أخذ لهم I وكل شيء لهم عند الناس وعلى الناس.

(9) ـ وعلى أن الملوك المذكورين لا يقبلوا[13] في بلادهم من يكون عدوّاً لأمير المؤمنين ولا ينجدوا[13] لمن يتحرك لضرر أو لتعد على شيء من بلاده.

(10) ـ وعلى أنّ من حصل من الأسرى I بيد المسلمين أو بيد الملوك المذكورين وبقي حياً فيرد كل أسير إلى أهل دينه.

(11) ـ وعلى أن يقلع الملوك المذكورون وجميع من إليهم وفي محلّتهم من أهل طاعتهم ومن غيرهم من كلّ من تحرك I بحركتهم أو

---

(9) ربوط ورباط جمع ربطة: المعاهدة او شروطها (وهو المقصود هنا) وقد نقل دوزى (التكملة 1 :501) عن دوساسي هذه العبارة «.. ماداموا محافظين على ربوط هذاالصلح».

(10) كذا بالاصل والقاعدة: سواء حرفا بحرف.

(11) كذا بالاصل ويعني ذلك جمع «دير» والجموع الشائعة لدير هي أديار، أديرة، ديارات. ديورة. تنظر معاجم اللغة.

(12) كذا بالأصل وصحته: المذكورون.

(13) هكذا بالاصل وصحته: لا يقبلون ـ لا ينجدون.

وصل في صرختهم أو معونتهم أو يصل من بعدهم مثل الملك أدورد[14] أو غيره كائناً من كان ولا يبقى في برّ المسلمين أحد الا ان بقي لهم أثقال أو بعض ناس فيكونوا في موضع معيّن لهم من جهة I أمير المؤمنين ويكونوا محفوظين منه الى حين رجوع المراكب اليهم.

(12) ـ وعلى أن مدّة انعقاد هذا الصلح بين أمير المؤمنين والملوك المذكورين وغيرهم من الأقماط والزعماء إلى تمام خمسة عشر عاماً شمسية I أولها شهر نوفمبر المتصل بأكتوبر الموافق لشهر التاريخ.

(13) ـ وعلى أن يعطى لهم مائتا ألف أوقية ذهباً وعشرة آلاف أوقية كلّ أوقية منها يقبض عنها من الفضة ما قدره خمسون درهماً من دراهمهم I في الوزن والطيبة يجعل لهم منها نصف العدد محضراً والنصف الثاني مقسط بين عامين شمسيين من تاريخه نصف المقسط يقبض آخر كلّ عام من العامين المذكورين.

(14) ـ والذين يبقون في برّ أمير المؤمنين I بعد سفر الملوك وأجنادهم على ما ذكرنا يكون محفوظين من جهة أمير المؤمنين وإن تعرض لهم عارض في أنفسهم وأموالهم فعلى أمير المؤمنين ردّ ذلك إليهم.

(15) ـ والأنبرور الأجل بودوين[15] صاحب I قسطنطينة والكمت الأجل الفونس[16] كمت طولوزه والكمت الأجل كي[17] كمت دافلندر والكمت الأجل هرى[18] كمت لوسنبرك وجميع من حضر من الأقماط والزعماء والفرسان داخلون I في ذلك كلّه ولازم لهم ذلك شهد على جميع من ذكر في الأعلى[19] المشهدين بما فيه بعد تقريره عليهم وفهمهم جميع ما نسب إلى كل واحد منهم بمحضر جميعهم.

---

(14) هو الذي أصبح فيما بعد ملكاً على انقلترا تحت اسم «ادوارد الاول» وقد وصل ميناء قرطاجة في ثلاثة عشر مركباً بعد وفاة لويز التاسع وعقد الهدنة فتوجه إلى الشام ونزل بعكا. ولم يكن لنزوله أية فائدة لبقايا الصليبيين هناك.

(15) Bauduin Empereur de Constantinople

(16) Alfonse comte de Toulouse

(17) Guy, comte de Flandre

(18) Henri comte de Luxembourg

(19) في الاصل: الأعلا.

(16) ـ وليعطي أميرI المؤمنين على المال المتبقى ضماناً من تجار النصارى للملوك المذكورين وأن كل من يكون عدوّاً للملوك والأقماط المذكورين يصرف ويخرج من بلاد أمير المؤمنين ولا يعاد يقبل[20].

(17) ـ وشهدI أيضاً من حضر من القسوس والرهبان والأساقفة بجميع ذلك وأمير المؤمنين أيده الله تعالى وولده المبارك الأسعد[21] والشيخ الأجل أبو زيان بن عبد القوي[22] وعدوا على دينهم وأمانتهم بتمام ذلك بتاريخ الخامس لربيع الآخرI عام تسعة وستين وستمائة.

(18) ـ وينضاف الى هذا العقد أن يؤدى الى الملك الأجل جارل بنعمة الله ملك صقلية عن الخمسة أعوام الماضية المتصل آخرها بهذا التاريخ ما كان يؤدىI للانبرور[23] سواء ويؤدى للملك الأجل المذكور من اليوم وجاي[24] في كل عام ما كان يؤدى للانبرور مثنياً.

(19) ـ والحمد لله تعالى. شهد بانعقاد هذا الصلح وصحته وثبوته عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفي وعلي بن إبراهيم بن ابي عمرو التميمي وابو القاسم بن أبي بكر اليمني.

---

(20) واضح استعمال الأسلوب العامي الذي مايزال الى الان.

(21) هو يحيى الواثق الذي تولى السلطنة بعده ثم تنازل لعمه أبي إسحاق.

(22) ابو زيان بن عبد القوي أرسله والده (عبد القوي) صاحب تلمسان نجدة للمستنصر عندما علم بعزم الصليبيين على تونس.

(23) الامبراطور النرماني صاحب صقلية سابقاً.

(24) تعبير دارج مستعمل الى الآن يعني من اليوم فصاعداً.



الفصل التاسع

نتائج الحروب الصليبية

في تأثير الاسلام على تمدين أروبا

1) مسالك الحضارة الاسلامية الى أُروبا.
2) ما استفادته أروبا من الحروب الصليبية.
3) اثر الحروب الصليبية على العالم الاسلامي.



1 — مسالك الحضارة الاسلامية الى أُروبا

الحضارة ملك للانسانية

لم تكن الحضارة وقفا على أمة من الامم، أو شعب من الشعوب. وإنما هي جهود متضافرة متتابعة لكل أمة فيها عمل ونصيب. ولكل حضارة من الحضارات حلقة في سلسلة التمدين والعمران.

والذي لا مِراءَ فيه أن الشرق هو أصل الحضارات والمدنيات لأنه موطن البشرية الأول؛ ثم تفرعت وتفرقت في سائر الأقطار والأصقاع. ومن هذه الناحية كان الشرق أسبق الجهات الاخرى للمدنيات القديمة والحضارات الغابرة، وكان مهبط الأنبياء والمرسلين، ومصدرَ الاتصال بين الجانب الالهي والجانب الإنساني.

وعندما بزغت شمس الحضارة الاسلامية إلى الوجود كان العالم في فترة خمود وسكون وانحلال واضطراب؛ وتكاد معالم الحضارات السابقة تُنْسَى وتَتَلاشى ولم تبق منها إلا هياكل جوفاء أو رسوم بالية؛ فقد ذهب لُبَابُها وأخذ البشر يَلُوك قشورَها في شيء من الجمود والعجز عن التقدم بها نوعاً ما.

ظهور الاسلام انبعاث وتجديد للحضارة الانسانية

وكان ظهورُ الاسلامِ في إبّانه حتى لا تندثر معالم الحضارات القديمة، مُحْييا لها، مجدِّداً لمعالمها، مشارِكاً في تنميتها وربط صلة الماضي السحيق بالمستقبل الباهر.

وسرعان ما ازدهرت الحضارة الاسلامية فتلقّفت بقايا حضارات الهند والفرس واليونان والرومان: بحثت عنها في كل مكان، وترجمت أصولَها، وهضمت مبادئها وزادت فيها، ونقّحَتْ منها. ثم ابتكرت وابتدعت؛ مما ساعد على القفز بالحضارة إلى رتبة عليا ومقام محمود.

مسالك الحضارة الاسلامية الى أروبا

كان انتشار الاسلام خارج الجزيرة العربية يوجب التصادم مع القوات والدول السائدة إذ ذاك. وكانت أهم تلك القوات هي الدولة الفارسية بالشرق والامبراطورية البيزنطية بالغرب. وقد استطاع الاسلام ان يتغلب على الفرس بسهولة، فدخلت بلاد فارس في حظيرة الاسلام. وأصبح لها مقام محمود في الجامعة الاسلامية، ومشاركة عظيمة في مدنية الاسلام. أما القوة الرومية البيزنطية فقد أخذ الاسلام يزحزحها عن مراكزها في آسيا وإفريقيا.

وكان الصراع الاسلامي مع القوات البيزنطية يمثلُ ايضا الصراع الاسلامي مع القوات المسيحية في إفريقيا وآسيا وحوض البحر الأبيض المتوسط.

ومناطق هذا الصراع تعتبر من ناحية أخرى مسالك الحضارة الاسلامية الى القارة الأروبية.

وتتمثل أهمّ مسالك الحضارة الاسلامية الى أوروبا في 1) الأندلس ـ 2) صقلية. 3) الحروب الصليبية ـ 4) طريق القسطنطينية ـ 5) الاتصالات التجارية بين الشرق والغرب.

وكان لكلّ مسلك نصيبٌ وافرٌ في نقل معالم الحضارة الاسلامية الى أوروبا. وإذا كانت الحروب الصليبية تمتد قرنين من الزمن، احتكَّ أثناءهما الغرب بالشرق، فانه لا مجازفةَ إذا قيل: إن الحروب الصليبية كانت من أبرز تلك المسالك، ومن أكثرها نقلاً لحضارة الإسلام إلى قارّة أوروبا وشعوبها.

2) ما استفادته اروبا من الحروب الصليبية

اولاً ـ الخبرة وتصحيح المعلومات واتساع النظر

كانت الأمية ضاربةً أطنابَها في شعوب أوروبا عندما تحرّكت هذه الشعوب الى الحروب الصليبية. وكان الغالب منهم لا يتصور من العالم إلا المحيط الذي يعيش فيه. ولم تكن لهم معلومات ولا صور صحيحة عن بلاد الشرق وعن المسافة التي تفصل بينهم وبينه، وحتى عن المناطق والاقطار التي يجب عليهم اجتيازها وسلوكها: فكان من أهمّ ما استفاده هؤلاء الصليبيون الخبرة والمشاهدة وإدراك صورة صحيحة عن المجتمع الاسلامي وبلاد الشرق.

وقد رجع آلاف من الغزاة الصليبيين الى بلادهم وحملوا الى الناس أخباراً تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من ان المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة وأجلوا عنها دينَ التوحيد، ونفوا منها كل فضيلة واخلاص، وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة؛ فلما قفل الغزاة الى ديارهم قصُّوا على قومهم أن أعداءَهم كانوا أهْلَ دين وتوحيد ومروءة وذوي ودّ ووفاء وفضل

ومجاملة»[1] «. . . ولم تجد أوروبا في الحروب الصليبية سبيلاً للاتحاد الداخلي فحسب ومؤثراً جديداً في شتى مرافقها الداخلية، ولكنها كسبت عن سبيلها نظرة جديدة واسعة للحياة. وقد كان هذا الاتساع في مدى النظر اكبر ما اكتسبته من الحروب الصليبية إذا أضفنا إليه روحَ الكشف وتقدّم الجغرافية[2]. . . ».

«وقد وجد الصليبيون أنفسَهم أمام حضارة إسلامية ذات إشعاع عظيم، فبهرهم هذا الإشعاع، ولمسوا التفوّقَ السياسي والتنظيم الاجتماعي عند العرب، فعادوا يحملون انطباعاتهم وينشرون الدعوة إلى إصلاح شامل يبدأ بتحرير الفكر وبتسهيل التبادل المادي والفكري ويصون الحرية الفردية. ويكفل للرعية الرفاهية والطمأنينة[3]. . . »

ثانياً ـ التسامح

الدين الاسلامي دينُ التسامح، لا يجبر الناس على الدخول فيه ولا يجعل من الخلاف في العقيدة موجباً للظلم والاعتساف، فهو مقرر قاعدة (لا إكراهَ في الدين)[4] (وَادْعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)[5] ولم يكن المسيحيون يعرفون صفة التسامح السامية في العقائد إلا في العصور الأخيرة.

وإذا كان التعصب يصاحب الجهالةَ والجمودَ الفكري فان الصليبيين عندما هاجموا العالم الاسلامي كانوا مشبعين بروح التعصب

---

(1) الاسلام والنصرانية لمحمد عبده طبع المنار ـ مصر ـ 1357 هـ
(2) الشرق الاسلامي في العصر الحديث تأليف حسين مؤنس ص 38 نقلاً عن باركر مؤرخ الحروب الصليبية.
(3) عن كتيب أروبا والاسلام ص 34 تأليف أغا خان ـ زكي علي ـ نشر دار المكشوف بيروت
(4) سورة البقرة الآية 256
(5) سورة النحل الآية 125

المقيت، لا يصدهم عن التنكيل بالمخالفين لهم في الدين أيّ شيء. وكانوا يعتدون على أيّ شخص تمكنوا منه، كبيراً كان او صغيراً، رجلاً كان او امرأة، سواء كان مقاتلاً او مسالماً.

وقد بدا تعصُّبُ الصليبيين وقساوتُهم البالغة في مذبحة المسجد الاقصى التي قتلوا فيها ما يزيد على السبعين ألفا مِمّن التجأ إليه من ضعاف المسلمين والمسالمين، كما أن اليهود ـ وهم اذ ذاك لا ناقة لهم ولا جمل في ذلك الصراع ـ لم يسلموا من التعذيب والقتل والإحراق من طرف الصليبيين. وبعكس ذلك كان موقف صلاح الدين الأيوبي عندما استرجع بيتَ المقدس؛ فقد منع الاعتداء على كل صليبيّ بعد أن استسلمت الحامية الصليبية بالقدس ومنحها الأمان. وخرج جميع الصليبيين من بيت المقدس محروسين بالجند الاسلامي فوصلوا آمنين الى مدينة صور.

ولما مرض الملك الانكليزي (قلب الأسد وأكبر خصوم صلاح الدين) بعث إليه صلاح الدين طبيبَه الخاص ورفّه عنه بأن أرسل إليه الفواكه والثلج[1]. وكان الصليبيون يُعْجَبُون من هذا التسامح الصادر عن أعدائهم المسلمين نحوهم، ومن هذه الرحمة التي يبديها المسلمون نحو الصليبيين الذين مسهم الجوعُ أو أضنتهم الجراح وأقعدهم العجز؛ وكيف أن المسلمين لم يستغلّوا العجز لاكراههم على الاسلام، بل لقد كانت هذه المعاملة الرحيمة سبباً في التجاء الكثير من الصليبيين إلى الإسلام، والدخول في الاسلام[2].

والواقع أن الصليبيين كانوا في غاية التعصب وعدم احتمال أيّ نوع من الشفقة مع المسلمين. ولكن هؤلاء الصليبيين إذا اختلطوا بالمسلمين واتصلوا بهم بدا منهم التسامح والاعتدال في معاشرة المسلمين. فقد أجبرت العواصف أسطولاً صليبياً قادماً من انكلترا وفلاندر على الارساء بموانىء البرتغال. وأظهر هؤلاء الصليبيون غاية القساوة مع المسلمين

---

(1) النوادر السلطانية للقاضي ابن شداد ص 158

(2) انظر عن اثر التسامح الإسلامي في انتشار الإسلام بين الصليبيين كتاب «الدعوة إلى الإسلام» من ص 80 تأليف «ت ـ و ارنولد» ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد الحميد عابدين.



صلاح الدين الايوبي يشرف على خروج الصليبيين من القدس

واليهود الذين كانوا تحت حماية نصارى البرتغال بمدينة «اشبونة». كما أن الصلح الذي عقده مسلمو مدينة «شلب» مع الملك «صانشو» لم يُرْضِ هؤلاء الصليبيين حيث لم يُبْقُوا من سكان المدينة سوى ثلاثة عشر ألفاً. أما بقية الستين ألفاً فقد كانوا ما بين قتيل وأسير[1].

ويذكر أسامة بن منقذ: أنه زار بيت المقدس - والقدس إذ ذاك عند الصليبيين - فأفرد له فرسان الداوية زاويةً ملحقة بالمسجد الأقصى ليصلّي فيها، فاغتاظ لذلك أحد الصليبيين الحاضرين، كان قدم حديثاً الى بلاد الشام، وتدخل في الأمر مما ساءَ فرسانَ الداوية، الذين طال مكثهم في بلاد الاسلام وزال عنهم ما كان عندهم من تعصب ديني.

وأثر الحروب الصليبية في أخلاق المسيحيين الصليبيين الذين اختلطوا بالمجتمع الاسلامي له صور عديدة ذكر الكثير منها ابن جبير في رحلته وأسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار».

ثالثاً - الناحية السياسية والقومية

لعلّه من أصدق القول إذا قيل: إن أروبا في عصورها الوسطى لم تجتمع على هدف معين مشترك، هزَّ شعوبها، وعمَّ جميع طبقاتها، مثلما اجتمعت على الحروب الصليبية، فقد كانت الحمية تشمل جميعَ الطبقات تدفعها الأغراض المختلفة والدواعي المتنوعة، ولكنها كانت تحت هدف واحد هو الاتجاه الى المشرق، وقتال المسلمين تحت راية الصليب. وكانت الدعاية تصل الى كل أُذن. وكان الاحساس المتدفق والشعور الملتهب يشمل كلَّ من وصلته الدعاية أو استمع الى الدعاة. واتصل الناس بالعالم الخارجي بعد أن كانوا منعزلين عنه.

وكانت أعظم العلل التي تفتك بالممالك والقوميات الأروبية في

(1) تاريخ الاندلس لاشباخ الالماني ترجمة عبد الله عنان ج 2 - ص 10.

العصور الوسطى هي النظام[1] الاقطاعي القاسي، الذي كان شجىً في حلْق الملوك؛ فقد كان الاقطاعيون يمثلون ملوكاً بجانب الملوك. وكانت إقطاعياتهم تمثل دولاً وسط الدولة، وقد نعت بعضهم أروبا في ذلك الزمن بأنها عبارة عن ممالك عديدة صغرى تبلغ الآلاف. وكانت الشعوب الأروبية تحت تصرّف وحكم هؤلاء الاقطاعيين، يحكمونها حكمَ العسف والإرهاق والإذلال. وكان للحروب الصليبية أثر حسن على الملوك والشعوب معاً؛ فقد سيطرت على كثير من الاقطاعيين فكرة تكوين الممالك والامارات في بلاد المشرق؛ فأخذوا يجهزون الجيوش والمعدّات الحربية لسفر طويل شاق. وفي سبيل ذلك كانوا يبيعون المدنَ والقرى لأفراد الشعب المضطهد، فأخذت هذه الطبقة الدنيا تستنشق نسيمَ الحرية والانطلاق، وتتذوق لذّةَ امتلاك الأراضي والعقارات.

ولم تكن فائدة الملوك أقلَّ من ذلك؛ فقد كان يقوى نفوذُهم وتتسع دائرةُ تصرفهم الفعلي شيئاً فشيئاً بقدر ضعف النظام الاقطاعي. وكان تقوّي الملوك وضعف الاقطاعيين من أهمّ أسباب ظهور القوميات واتحاد الممالك في أروبا.

رابعاً ـ التشريع والاصلاح

كان نفوذ الكنيسة سائداً في العصور الوسطى. وأثناء الحروب الصليبية ازداد هذا النفوذ زيادةً عظيمة، وأصبح للبابوية سلطة نافذة على الملوك وطبقات الشعب، وأثْرَت الكنائس ورجالُها إثراء فاحشاً ممَّا دعا رجالَها إلى الانغماس في الترف والإغراق في الشهوات. واشتهر الكثيرُ

(1) النظام الاقطاعي كان سائداً باروبا في العصور الوسطى، ويقتضي هذا النظام ان الأرض تعتبر ملكاً للملوك وهؤلاء يقسمونها بين الأمراء والسادة مقابل التزامات وتعهدات. ولهؤلاء السادة أعطاء اقطاعاتهم لصغار الفلاحين والمزارعين مقابل الدخول في خدمتهم وطاعتهم، وكان هذا النظام مضعضعاً لقوة الملوك وحاجزاً كبيراً دون الوحدات القومية في تلك العصور.

منهم بالتفسخ الأخلاقي، مما دعا مفكري أوروبا فيما بعد الى الثورة على الكنيسة، واندلاع حركة الاصلاح الديني[1].

وكان ملوك انكلتيرا والمانيا أولَ الثائرين على الكنيسة، وهي البلاد التي كان لها ملوك وأمراء أقاموا بالمشرق زمن الحروب الصليبية[2].

وإنّ فصْلَ الدين عن الدولة في العالم المسيحي، الذي يعتبر من أهم الاصلاحات في نظر الأروبيين، كان من آثار رؤية المسيحيين لفقدان سلطان علماء الدين على الملوك: رأوا ذلك سواء في الأندلس أو في الحروب الصليبية[3]. كما أن دستور انكلتيرا المتين يعتبر كنتيجة بعيدة، وأثراً من آثار الحروب الصليبية[4]. وتعتبر الاصلاحات التي أدخلها لويز التاسع في مملكته (فرنسا) نتيجةً لمشاهداته التي رآها بمصر والشام عندما ذهب الى المشرق متزعماً الحملة الصليبية السابعة. اما فريدريك الثاني، ملك صقلية وامبراطور المانيا، الذي يعتبر اعظم ملوك اروبا تشبعاً بالحضارة الاسلامية واحتذاء لها، والذي قاد الحملة الصليبية السادسة، فانه أول من أسس جامعةً علمية باروبا (جامعة نابلي)، وأول من أسس مجلساً نيابياً ووضع قاعدة المساواة في الحقوق والتكاليف، وأيد سيطرة القانون على جميع الطبقات وأطلق حرية كافة العقائد، وأصدر قانوناً بالاسعاف الدولي للفقراء[5]. وقد رتّب أمور الدولة ترتيباً أجمع المؤرخون على أنه كان حجرَ الأساس في تكوين الدول الحديثة، وأسس الدواوين المختصة وفَصَلَ بين السلطة القضائية والمالية والتشريعية، التي كانت من خصائص الملك وحده، وقضى على سلطة الكهنوت[6]. وتشبُّعُ فريدريك الثاني بالأفكار الاصلاحية ومحبتُهُ للثقافة الاسلامية وتقليدها هو ما دعا البابا الى حرمانه والحكم بإلحاده.

---

(1) حضارة العرب لغوستاف لبون ص 363.
(2) أثر العرب في الحضارة الأروبية للعقاد ص 121 — 122.
(3) المصدر السابق.
(4) غوستاف لبون ص 365.
(5) الخيبة الأدبية في الشرق والغرب ص 182.
(6) المسلمون في صقلية وجنوب ايطاليا تأليف أحمد توفيق المدني ص 203 - 204.

خامساً ـ الطب

ظلّت أروبا في عصورها الوسطى وزمن الحروب الصليبية خاضعة للنفوذ الكنسي والسلطة البابوية. وكانت الكنيسة متسلطة على الشعوب الاروبية وطبقاتها المختلفة، تفرض عليهم القوانين التي يتقبّلونها مهما كان نوعها. وحرّمت الكنيسةُ الغربيةُ الاستحمامَ، وحظرت فتحَ الحمامات بعد أن كانت شائعة في الدولة الرومانية. وربما اتخذت غلْق الحمامات عقاباً تعاقب به أعداءَها[1].

وكانت الكنيسة الغربية تحرِّمُ الطبَّ وصناعته؛ لأن المرض عقاب من الله لا ينبغي للانسان أن يصرفه عمن استحقه. وظل الطب محجراً عليه إلى ما بعد استهلال القرن الثاني عشر للميلاد[2].

وكانت طرق المعالجة عند الصليبيين الذين وردوا الى المشرق بدائية تعتمد على الرُّقَى والتعاويذ، او على اساليب في غاية الفظاظة والقساوة. وقد ذكر أسامة ابن منقذ في كتابه (الاعتبار) صورا من هذه المعالجات الوحشية التي يعالج الصليبيون بها مرضاهم. وكان الصليبيون تبهرهم اساليب المعالجة الاسلامية، ويقتنعون بصلاحها ووجوب الأخذ بها.

ونتيجة لاختلاط الصليبيين بالعالم الاسلامي واطلاعهم على أساليب العلاج والتداوي بدأت تظهر دُورُ المعالجات والبيمارستانات وطرق العلاج الصحيحة في اروبا منذ القرن الثاني عشر الميلادي. وكان نصارى الشرق ـ غير الصليبيين ـ قد انضمُّوا الى هؤلاء النصارى الذين كانوا يعيشون بالمشرق تحت السيادة الاسلامية. وكان هؤلاء النصارى (يؤلفون أغلب الأطباء والصيادلة في الجيش والمعسكرات الصليبية، كما

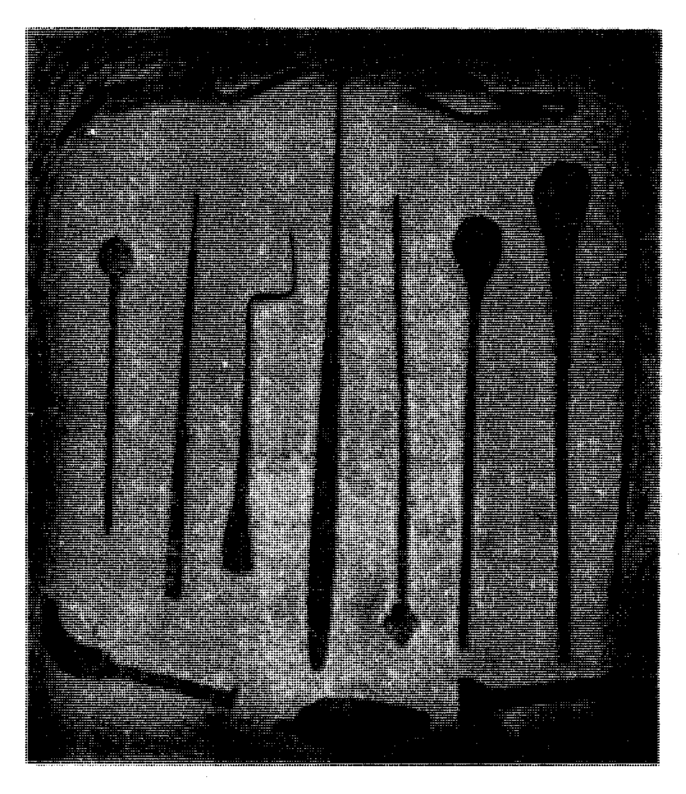
---

(1) كما وقع لمسلمي الاندلس بعد سقوط غرناطة.

(2) اثر العرب في الحضارة الاروبية للعقاد ص 33.

كانوا يضطلعون باعباء الترجمة في مختلف الدواوين)[1].

واشتغل بعض الصليبيين بنقل بعض الكتب الطبية العربية الى اللاتينية؛ فقد اشتغل برنارد سلفستر وفيليب الطرابلسي بالنقل من العربية الى اللاتينية، ونقل اصطفان الانطاكي حول سنة 1127م كتاب (الملكي) في الطب لعلي بن العباس ابن المجوسي[2].



آلات طبية وجراحية عثر عليها في خرائب الفسطاط
(ادارة الآثار العربية - مصر)

(1) التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام تأليف محمد الغزالي ص 222 نقلاً عن مؤرخ صليبي افرنجي.

(2) عمر فروخ، اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الأروبية ص 9. ويقول عنه ابن صاعد في كتابه طبقات الامم: ومنهم علي بن العباس المعروف بابن المجوسي صاحب كتاب كامل الصناعة الطبيعية المعروف بالملكي ألفه للملك عضد الدولة بن ركن الدولة، وهو كناش جليل مشتمل على علوم الطب واعماله ولا اعلم كناشا مثله ص 62.

سادساً ـ التجارة ـ الرفاهية ـ البناء

لعلّ من أعظم ما استفادته أوروبا من الحروب الصليبية ذلك النشاط التجاري الذي حصل بين الشرق والغرب، وذلك التقدم في الملاحة البحرية وتحسين وسائلها ومقوّماتها، سيما استعمال الابرة الممغطسة (البوصلة) التي شاع استعمالها في السفن العربية ونقلها عنهم ملاحو البحر الابيض المتوسط الاروبيون. ثم شاعت شيئاً فشيئاً عند بقية الملاحين الاروبيين.

وكانت السفن الصليبية التي ترد من جنوب اروبا ومن شمالها، محمّلة جنوداً ومقاتلين، تعود الى أروبا مملوءةً بمختلف السلع والبضائع؛ من اقمشة حريرية، ومزركشة، ومن أوان مطعمة مزخرفة، ومن مواد غذائية متنوعة. لعلّ من أعظمها قيمةً السكر الذي لم تكن أروبا قد عرفته بعد؛ فقد كان اعتمادُها قبل ذلك على العسل فقط. وانتقلت الى أروبا الزرابي الفاخرة التي تَنَافَسَ في شرائها النبلاء



نسيج اسلامي «مطرز»
(الفنون الاسلامية ـ م ـ س ـ ديماند)

والسادة وزيَّنوا بها قصورَهم واستعاضوا بها عن سجاجيد الزعف والقش. ثم أخذوا في تقليدها والنسج على منوالها. وإلى اليوم مازال بعض الأقمشة بأسماء عربية[1].

وبسبب هذا الاتصال التجاري انتقلت كذلك نباتات جديدة الى أروبا مثل السمسم والخروب والدخن والارز ، والليمون والبطيخ والمشمش. كذلك عرفت أروبا التوابل والأبازير فاستعملتها في الأكل، وكانت في أشدّ الحاجة اليها نظراً لبرودة الجو في أروبا.

ودخلت الرفاهية والثروة إلى الأوساط الشعبية. وكانت المدن التي تولت النقل التجاري بين الشرق والغرب من أغنى مدن أروبا في ذلك الزمن مثل مدن: جنوة ـ بيزة ـ البندقية ـ مرسيلية.

وتأثر الصليبيون بهندسة البناء العربي خصوصاً في القلاع والكنائس؛ فقد بنى الانكليز قلاعهم بعد الحروب الصليبية على طراز يقابل الطراز العربي في مضاعفة الجدران وإقامة البروج فيما بينها، وتخطيط الحصون المركزية وإقامة الابواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة، التي تحول دون استخدام الباب عند الوصول إليه لتصويب القذائف إلى الأفنية الداخلية.

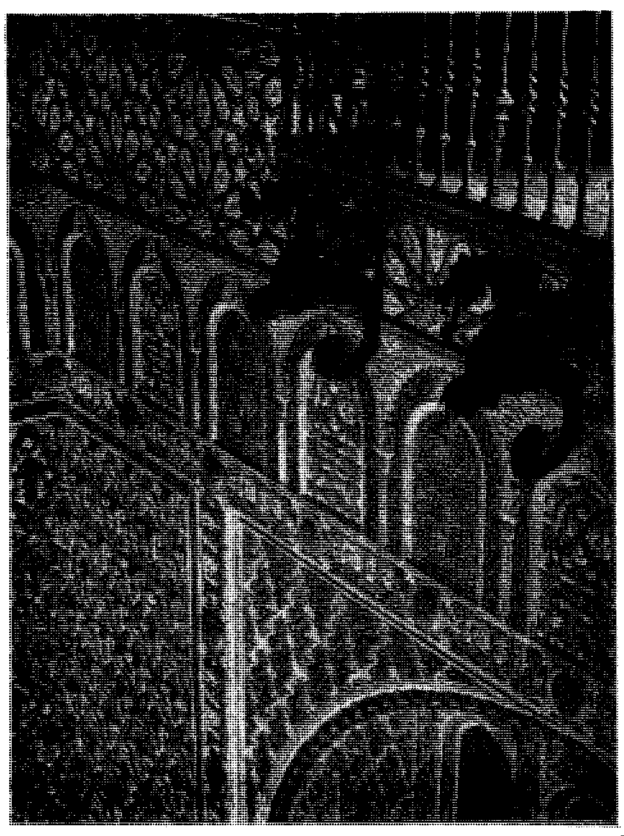
وقد أخذوا من الكنائس الشرقية التي تأثرت بالطراز العربي أنماطاً من الزوايا والبروج المستديرة لم يكن لِبُنَاة الكنائس عهدٌ بها في الغرب قبل الحروب الصليبية[2].

سابعاً ـ الفن الحربي والفروسية

ولم يكن الفن الحربي أقلَّ حظاً من بقية الفنون الأخرى؛ فقد اقتبس الصليبيون من العالم الاسلامي أموراً كثيرة عادت عليهم بالتقدم

(1) من ذلك (Mousseline) نسبة إلى مدينة الموصل بالعراق.

(2) اثر العرب في الحضارة الأوروبية للعقاد ص 75.



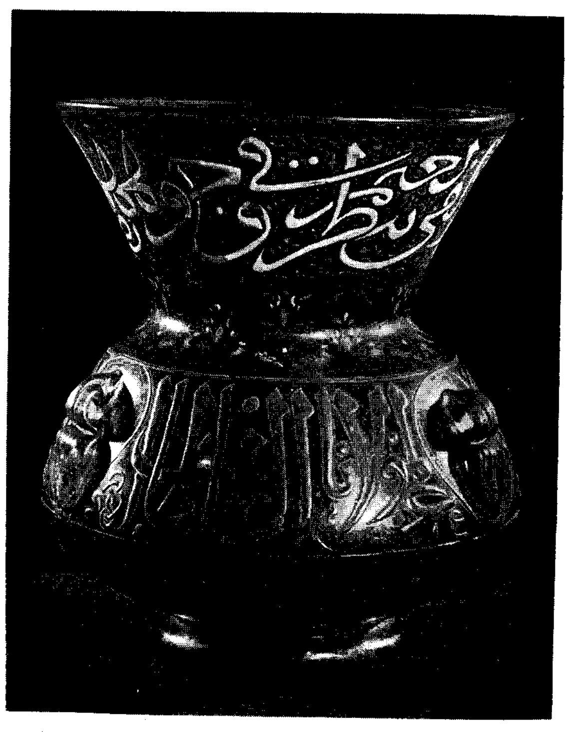
من زخرف الأبنية الاسلامية
(الفنون الاسلامية - م - س - ديماند)

والخروج - شيئاً فشيئاً - عما كانوا عليه في العصور الوسطى. فاستعمال القوس القذاف، والدروع يلبسها الفرسان والخيل، واستخدام الوسائد القطنية تحت الدروع، واستخدام حَمَامَ الزاجل لحمل المعلومات الحربية، وانتشار علامات النسب على الأسلحة، وشارات الفرسان، كل ذلك أخذه الصليبيون عن المسلمين[1]. وعن المسلمين أخذ الصليبيّون طريقة تنعيل الجياد بالحديد[2]. وأدخل الفرنجة في جوقاتهم الموسيقية العسكرية الطنبورَ والطبلَ. ونقلوا عادة الاحتفال بالظفر باشعال الأنوار

---

(1) فيليب حِتيّ - تاريخ العرب موجز ص 203 — 204

(2) زكي علي في كتيب - اروبا والاسلام ص 27



من فن «التطعيم» الاسلامي
(الفنون الاسلامية - م - س - ديماند)

وإجراء سباقات الخيل ولعب الجريد. كما شاعت بينهم الاسلحة المزركشة والاعتناء بتطعيمها[1]. وقد نشّطت هذه الحروب الصليبية علم الحِيل الحربية الحصارية وحسَّنته بما فيه من طرق الهدم واللغم واستخَدام المجانيق والكبوش والاعتماد على أنواع المشتعلات والمفرقعات[2].

كلمة أخيرة

على أنه مهما عدّد الانسان أنواع هذا التأثير ومظاهره، فانه لا يصل الى نهاية الحصر وكامل الاستقصاء. ضرورةَ أن قرنين من الزمن تمثل فيهما احتكاك الصليبيين بالعالم الاسلامي لا بُدَّ أن يتولّد عن ذلك

---

(1) استقت الفرنجة من لفظة دمشق فعل (Damasquiner) دلالة على تطعيم الفولاذ بالذهب او بالفضة.

(2) فيليب حِتّي - تاريخ العرب مطول ص 787

نتائج عديدة بعيدة الأثر عميقة الغور. ومن المتفق عليه ان حملات الصليبيين إنما كانت تمثل هجوم جماعات جاهلة متبدية على عالم متحضّر متمدّن. ولعلّ من أصدق الشواهد على مدى التفاوت بين المسلمين والصليبيين، ذلك الوصف الساذَج الذي ذكره مؤرخ صليبي مجهول كان مرافقاً للحملة الصليبية الأولى. قال: وفي اليوم التالي (7 مارس 1098م) عند مستهلّ النهار غادرت المدينة فئة أخرى من الترك وجمعت ما صادفته على شاطىء النهر من جيف قتلاها، ثم أخذتها وقبرتها في المحمرة الواقعة خلف الجسر أمام باب المدينة[1] ودفنوا مع هذه الجثث جبباً وبزنطيات وقطعاً من الذهب وقسياً وسهاماً وغير ذلك من الأشياء التي لا نعرف لها اسماء[2]».

ومما تجدر ملاحظته ان اثر الحروب الصليبية في اروبا إنما كان يبدو في النواحي المادية اكثر مما يبدو في الثقافة والعلوم. ومرجع هذا ان الصليبيين لم يكن همّهم في حروبهم العلوم والثقافة، ولم تتجه أروبا بعدُ الى الأخذ بأسباب الثقافة والعلوم. وكانت علاقات الصليبيين بالعالم الاسلامي تغلب عليها النزاعات الدينية والعدائية. والواقع أن أثر العلوم الاسلامية في النهضة الأروبية الحديثة إنما أخذ طريقاً آخر غير الحروب الصليبية. وهو الطريق الذي يتمثل في انتقال الحضارة الاسلامية الى اروبا عن طريق صقلية والاندلس.

3) أثر الحروب الصليبية على العالم الاسلامي

لا يمكن ان نتصور فائدة كبيرة استفادها العالم الاسلامي من الحروب الصليبية. وكيف تمكن الاستفادة ممن كان أقلّ ثقافةً وأحط حضارة؟ فلم يكن الصليبيون يفوقون المسلمين ثقافة ورقيّاً، رغم ما اصاب العالم الاسلامي قبيل الحروب الصليبية واثناءها من انحلال

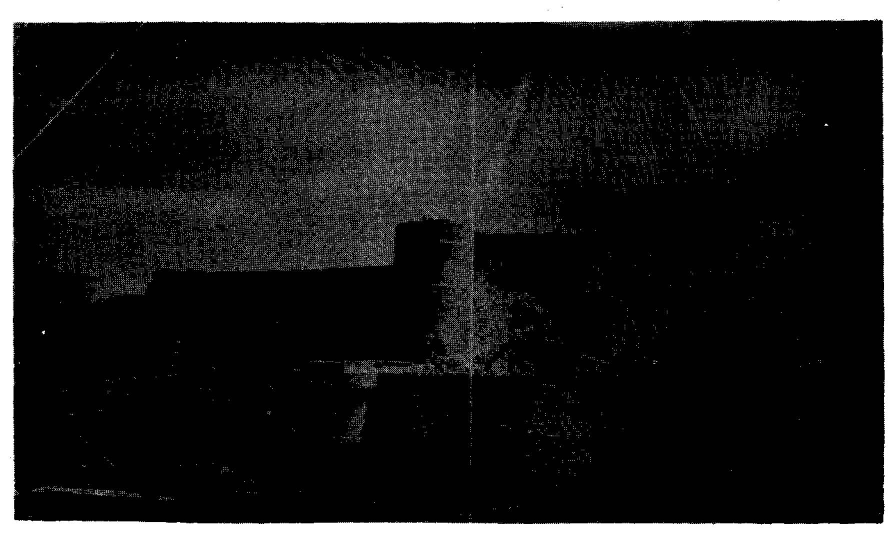
(1) مدينة أنطاكية.

(2) عن الحوليات لمؤرخ صليبي مجهول، ترجمة حسن حبشي في كتاب الحرب الصليبية الاولى ص 135.

وتدهور. لقد كان غنم هذه الحروب للصليبيين. أما غرمها فكان من نصيب المسلمين. ولقد رأينا الفوائد التي تحصل عليها الصليبيون خصوصاً، وأروبا عموماً، أثناء تلك الأحقاب التي تطاحن فيها الشرق والغرب، وامتزج فيها العالمان مدى قرنين من الزمن.

لقد بعثت الحروب الصليبية الرّعبَ والفزعَ والتخريبَ والتدميرَ، وجلبت الجدبَ والقحطَ أينما حلّت، سيما البلاد الشامية. وكانت دماء الآمنين والأبرياء والضعفاء تراقُ دون حساب، ولأدْنى سبب، وحتى بدونه. وكانت قساوة الصليبيين وفظاعة أعمالهم محلَّ سخطٍ مدى الأجيال، أورثت الحقد والبغضاء والتنافر بين الاجناس.

وإذا استفاد العالم الاسلامي شيئاً من تلك الحروب فانما هو شيء قليل تافه لعل من أبرزه ذلك الوعي القومي، وتحفز العالم الاسلامي للدفاع عن الحمى والدِّين ورفع المظلمة، ومحاولة البعض من القادة تكوين وحدة إسلامية قوية تستطيع ردَّ الفعل ومحوَ وصمة العار. وهذا هو الذي سعى إليه عماد الدين زنكي وابنهُ نور الدين محمود، ثم جاءَ بعدهما صلاح الدين الأيوبي، الذي يعتبر أعظم ممثل لانبعاث الوعي الاسلامي وردّ كيد الصليبيين.



حصن الاكراد ـ من أشهر الحصون الصليبية

ولعلّ الحروب الصليبية قوَّت من وسائل الدفاع الحربي، وأساليب الهجوم، وطرق الحصار، وهدم المعاقل والحصون والقلاع والأسوار.

فقد غزا الصليبيون العالم الاسلامي حاملين معهم فكرةَ القلاع والحصون التي سادت أروبا في ذلك الزمن - زمن الاقطاع والعصور الوسطى - وأكثر الصليبيون من بناء القلاع والحصون على غرار ما هو موجود بأروبا. ولهذا نشط المسلمون في استعمال المنجنيقات والكبوش لهدم الأسوار والأبراج، وكانوا أقدرَ من الصليبيين على اقتحام الحصون والأسواروتهديمها. ولم تكن المقاومة الصليبية تذكر امام المقاومة الاسلامية زمن الدفاع والحصار، فانطاكية مثلاً لم تستسلم حاميتها الاسلامية إلا بعد ثمانية اشهر من حصار قوي عنيف، ولم يكن استسلامها إلا نتيجة لخيانة أحد حرّاس أبراجها. وحصارُ عكّا استمرَّ مدة عامين، كان المسلمون المحصورون يبدون اثناء ذلك غرائب من البطولة والشجاعة والثبات. ولم يستسلموا إلاّ بعد أن أُعطُوا أمانا على رقابهم[1]. اما استسلام بيت المقدس للصليبية الاولى بعد أربعين يوماً من محاصرتها فان مرجع سرعة هذا الاستسلام يعود في الاكثر الى ما مرّ ذكره من ضعف معنويات الجيش الفاطمي وتخاذل قواه وقواده.

أثرْ الحروب الصليبية في الادب العربي:[2]

كان للحروب الصليبية أثر بارز في الأدب العربي من شعر ونثر: فقد نشط الشعراء والكتاب لبعث الحمية في النفوس، واستنهاض الهمم

---

(1) كان الذي اعطاهم الامان «رتشارد قلب الأسد» ولكنه بعد ذلك قتلهم جميعاً شر قتلة وكانت عدتهم تبلغ ثلاثة آلاف «النوادر السلطانية لابن شداد ص 164».

(2) لترى صورة اوضح واكثر تفصيلاً لاثر الحروب الصليبية على الادب العربي انظر كتاب ادب الحروب الصليبية للدكتور حمزة طبع مصر 1949 وكتاب الحروب الصليبية واثرها في الادب العربي لسيد كيلاني، طبع مصر.

للجهاد والقتال، أو لتسجيل المعارك والوقعات انتصاراً أو انهزاماً. كما كانوا يمدحون القواد والملوك والسلاطين الذين أظهروا بسالةً وسجلوا أعمالاً باهرة اثناء هذه الحروب. وأنشئت الكتب الكثيرة والرسائل الطويلة في تدوين سير الملوك وتاريخ المعارك، وفي الفروسية والتحريض على الجهاد.

وكان الشعر يمتاز بشبوب العاطفة، وقوة السبك، وصدق اللهجة. وبرع شعراء كثيرون سيما الذين اتصلوا بعماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي. ولم يبخل هؤلاء الملوك بتشجيع الشعراء وإكرامهم واصطحابهم معهم الى ميادين القتال، فتكونت نهضة شعرية ممتازة تستطيع أن تعرف مقدارها إذا تصفحت كتاب الروضتين لشهاب الدين المقدسي، أو كتاب خريدة القصر للعماد الأصفهاني وغيرهما من كتب التاريخ العامة أو الخاصة[1].

وقد نبغ شعراء اعلام مثل: ابن القيسراني - ابن منير الطرابلسي - أسامة ابن منقذ - عمارة بن حمزة اليمني - العماد الاصفهاني.

ومثل ابن سناء الملك، وابن الساعاتي، وكمال الدين بن النبيه، والبهاء زهير، وجمال الدين بن مطروح.

أما كتّاب النثر والرسائل فقد كان من ابرزهم القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني. ولم يكن شأن الخطابة أقلَّ حظاً من الشعر والرسائل إلا أنها لم تصل إلى درجة الشعر في الكثرة والجودة.

أثر الحروب الصليبية في انحطاط العالم الاسلامي

كان النصف الأخير من القرن الخامس الهجري بدايةً لانحطاط المشرق الاسلامي؛ فقد تمكنت منه العلل واستشرى فيه الفساد

(1) مثل النهاية لابن كثير والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي الخ.

والانقسام، وفقدت منه القيادة الصالحة والحكومة الرشيدة. وكان زحف الصليبيين عليه في أواخر القرن الخامس الهجري زيادةً لاستفحال العلل واستشراء الفساد. ولم يجد المشرق الاسلامي من يأخذ بيده وينقذه مِمَّا أشرف على الوقوع فيه. ولم تكن الحركة الاصلاحية التي قام بها آل زنكي وصلاح الدين الأيوبي سوى حركة قصيرة الزمن ضيقة الحدود. ثم جاء الزحف المغولي الوحشي فزاد الحالة ضغثاً على إبَّالة فعمَّ المشرق الاسلامي التخريب والترويع مما قلّ نظيره في تاريخ الانسانية. ولو لم يقدر للمماليك أن يوقفوا الزحف المغولي ويصدّوه عن بقية العالم الاسلامي لتحقق ما كان يؤمله الصليبيون من القضاء النهائي على الاسلام؛ فقد انتهز الصليبيون زحْف هؤلاء المغول الوثنيين فربطوا الصلات معهم وعقدوا معهم المحالفات حتى يجعلوا العالم الاسلامي بين دفتي المعصار وشِقّي الرحا فيقضَى عليه قضاء مبرماً.

ولعلّ أمة أخرى لم يصادفها ما صادف المشرق الاسلامي من الخطر؛ فقد دهمته الزحوف الصليبية من الغرب، والزحوف المغولية من الشرق. ولكنه ثبت في النهاية فقضى على الصليبيين وأخرجهم من دياره، وامتصَّ المغول وصَهَرَهُمْ في بوتقته وأدخلهم في حظيرته؛ فاعتنقوا الاسلام وتكونت منهم دول إسلامية كبيرة[1].

ولكن العالم الاسلامي خرج منهوكَ القُوى، خائرَالعزم من هذا الصراع الخارجي العنيف، ومن تلك العلل الداخلية الفتاكة، مما جعله يستسلم لنومٍ عميق بعد إعياء ومغالبة. ولم يستفق من سباته الطويل إلاّ بضربة جديدةً أخرى ـ أتته من الغرب ـ وألقت به على الارض فهبَّ مذعوراً، وقد ألفَى نفسَه مكبّلاً بالاغلال والأصفاد، فاخذ يحاول جاهداً فكَّ الأَسر، ومسايرةَ العصر.

---

(1) من أشهر هذه الدول دولة المغول بالهند التي اسسها الملك بابر، أحد أحفاد تيمورلنك.

ملحقات الفصل التاسع

1) المسلمون والصليبيون غير المتحاربين

قال ابن جبير[1] «ومن أعجب ما يحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربّما يلتقي الجمعان ويقعُ المصّاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادى الاولى، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عساكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البر، فنازله السلطان وضيق عليه، وطال حصاره، واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك. وتجار النصارى أيضاً لا يمنع احد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الامنة على غاية. وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم. والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم. والناس في عافية والدنيا لمن غلب. هذه سيرة أهل هذه البلاد في حروبهم وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين».

(عن رحلة ابن جبير ص *268* - *269* ـ مطبعة السعادة ـ مصر)

(1) محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي «540 — 614» ولد في بلنسية بالاندلس من اشهر الرحالة المسلمين في العصور الوسطى. قام برحلات ثلاث الى المشرق. ودون رحلته الاولى في كتاب اسماه «تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار» وقد طبعت الرحلة مرتين في اروبا سنة 1852م وسنة 1907م وطبعت بمصر سنة 1326 هـ 1908م بمطبعة السعادة. ثم طبعت طبعات أخرى بعد ذلك.

2) مدينة دمشق ومستشفياتها

«البلد ليس بمفرط الكبر وهو مائل للطول، وسككه ضيقة مظلمة، وبناؤه طين وقصب، طبقات بعضها فوق بعض. ولذلك يسرع الحريق إليه. وهو كله ثلاث طبقات فيحتوي من الخلق على ما تحتوي عليه ثلاث مدن لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً وحسنه كله خارج لا داخل. وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم تعرف بكنيسة مريم، ليس بعد المقدس عندهم أفضل منها. وهي جميلة البناء تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهر الأنظار وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهي بأيدي الروم ولا اعتراضَ عليهم.

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة وبها بيمارستانان قديم وحديث والحديث احفلهما وأكبرُهما، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قَوَمَةٌ بأيديهم الأزمّة المحتوية على أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. والأطبّاء يبكّرون إليه في كل يوم يتفقدون المرضى، ويأمرون باعداد ما يصلح من الأدوية والأغذية حسب ما يليق بكل إنسان منهم. والبيماريستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد اكثر».

(رحلة ابن جبير ص 263 - 264)

3) صور من طب الصليبيين

أ ـ قال أسامة[1] بن منقذ في كتابه الاعتبار «ومن عجيب طبّهم ما حدثنا به «كليام دبور» صاحب طبرية وكان مقدَّماً فيهم. واتفق أنه رافق

(1) اسامة بن منقذ «488 ـ 584 هـ» من امراء قلعة شيزر الشامية. معاصر للحروب الصليبية وله اتصالات كبيرة مع الامراء الصليبيين والمسلمين. وكان فارساً شجاعاً، وشاعراً كاتباً. له عدة مؤلفات من اهمها كتاب «الاعتبار» ألفه في آخر ايامه وهو شيخ كبير، دون فيه رحلاته وسيرته ومشاهداته. واسلوب الكتاب ساذج ضعيف وقد ترجم الى الفرنسية والالمانية والانكليزية وطبع في ليدن 1884م. وفي الولايات المتحدة سنة 1930م.

الأمير معين الدين رحمه الله من عكا إلى طبرية وأنا معه فحدثنا في الطريق قال: كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلان. قال نعم. ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حطَّ عليه يده عوفي. فلما رآه قال «اعطوني شمعاً». فأحضرنا له قليل شمع فلينه وعمله مثل عقد الاصبع وعمل كل واحدة في جانب انفه فمات الفارس فقلنا له قد مات. قال نعم كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح[1].

ب ـ ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة[2] كتب الى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له «ثابت» فما غاب عشرة أيام حتى عاد. فقلنا له «ما أسرع ما داويت المرضى» قال «احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف[3]. فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت. وحميت المرأة وربطت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال: هذا ما يعرف شيئاً يداويهم. وقال للفارس أيّما أحبُّ إليك تعيش برِجْلٍ واحدة أو تموت برجلين قال: أعيش برِجْلٍ واحدة. قال احضروا لِي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً. فحضر الفارس والفأس ـ وانا حاضر ـ فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس «اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها» فضربه ـ وأنا أراه ـ ضربةً واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسأل مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال «هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها فحلقوه. وعادت تأكل من مآكيلهم، الثوم والخردل، فزاد بها النشاف. فقال: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت في وقتها»[4].

---

(1) عن الاعتبار ص 101 طبع بريل بليدن نشر درنبرق.

(2) المنيطرة «بصيغة الصغير» حصن ببلاد الشام قريب من طرابلس «معجم البلدان».

(3) النشاف نوع من الهبوط والتعب العصبي. عن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطي حاشية ص 97. تأليف زكي محمد حسن.

(4) الاعتبار ص 97 — 98.

4) امرأة صليبية تستغيث بصلاح الدين

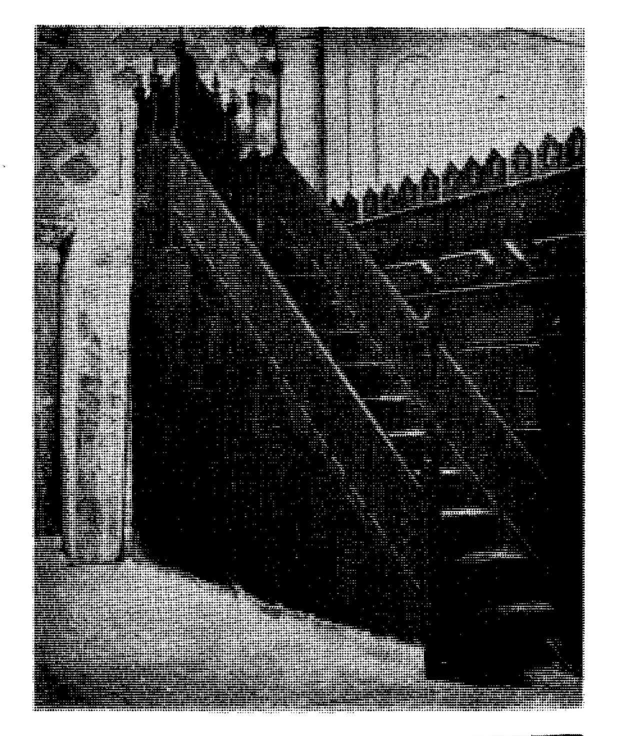
قال ابن شدّاد[1] «كان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم الرجال. وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، وساروا به حتى أتوا الى خيمة السلطان وعرضوه عليه. وكان كلّ ما يأخذونه يعرضونه عليه ويعطيهم ما أخذوه. ولما فقدته أمه باتت مستغيثةً بالويل والثبور طول الليـل حتى وصل خبـرها الى ملوكهم فقالوا: «إنه رحيم القلب. وقد أذنا لك في الخروج فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك» فخرجت تستغيث إلى اليزك[2] فأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فلقيته، وهـو راكب ـ وأنا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم ـ فبكت بكاءً شديداً ومرغت وجهها في التراب، فسأل عن قصتها فأخبروه فرقّ لها ودمعت عينه. وأمر باحضار الرضيع فوجدوه قد بيع في السوق فارتدّه، وأمر بدفع ثمنه الى المشتري وأخذه منه. ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل وسلّم اليها، فأخذته وبكت بكاءً شديداً وضمته إلى صدرها، والناس ينظرون إليها ويبكون ـ وأنـا واقف جملتهم ـ فأرضعته ساعة ثم أمر بها فحملت على فرس ولحقت بعسكرهم مع طفلها..».

(النوادر السلطانية لابن شداد ص **145** — 146 طبع مصر سنة **1317** هـ)

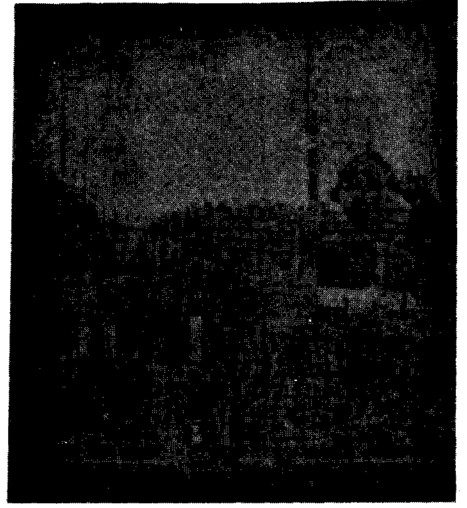
---

(1) بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد «539 — 632» من معاصري الحروب الصليبية، له خدمة وصحبة لصلاح الدين الايوبي. وقد تولى قضاء عسكره وتولى قضاء القدس ثم قضـاء حلب له عـدة تـآليف منهـا النـوادر السلطانيـة والمحـاسن اليـوسفيـة ـ وتـاريـخ حلب ـ وفضل الجهاد الخ...

(2) اليزك: كلمة فارسية معربة، معناها رئيس العسس. او العسس نفسه.



منبر المسجد الجامع بالقيروان
- من روائع الفن الاسلامي -



قلعة صلاح الدين الايوبي
في شكلها الحالي (القاهرة)



الحروب الصليبية
بالمغرب الإسلامي





خير الدين باشا «بربروس»

بطل المغرب الاسلامي في الحروب الصليبية



الفصل العاشر

صلة الصّراع بالحرب الصّليبيّة العامّة

1) الفتوحات الاسلامية بأروبا الغربية
2) صلة الصراع بين النصرانية والاسلام في المغرب بالحروب الصليبية العامة.



1) الفتوحات الاسلامية بأروبا الغربية

عرفت ممَّا مضى أَنّ القوات الاسلامية زحزحت القوات المسيحية عن غرب آسيا وشمال افريقيا. ثم عبرت هذه القوات البحر وجعلت من الاندلس (شبه جزيرة ايبريا) وطنا إسلامياً، لعب فيه العرب والمسلمون دوراً حضارياً خالداً. وتقدمت الفتوحات الاسلامية شمال جبال «البرانس[1] (Pyrénées)» وشرقها، خصوصاً مدة ولاية الفاتح عبد الرحمان الغافقي؛ فقد وصلت طلائع جيشه الى مدينة «صانص Sens» التي لا تبعد عن باريس أكثر من مائة «ك م». وأصبحت ضفاف «الرون Rhône» و «الصاوون Saône» و «لا لوار La Loire» تحت سيادته.

الخطة الكبرى

وقبْل عبد الرحمان الغافقي كان البطل موسى بن نصير قد رسم خطة عظيمة لمَّا اخترقت جيوشه جبال البرانس؛ فقد كان عازماً على الوصول إلى دمشق عن طريق أروبا الجنوبية والقسطنطينية. وبذلك يصبح البحر الابيض المتوسط بحيرةً إسلامية. ويقضي على الامبراطورية البيزنطية، وتفتح عاصمتها التي صمدت للغزوات الاسلامية الاولى.

(1) هي جبال البرنيه الحالية الفاصلة بين فرنسا واسبانيا، وكان يطلق عليها قديماً اسماء مختلفة منها: البرانس ـ البرت ـ البرتات ـ جبال الأبواب.

ولكن الخليفة الأموي «الوليد بن عبد الملك» أجبر موسى بن نصير على الرجوع الى دمشق وترك بلاد الأندلس. والاقلاع عن متابعة خطته الكبرى. فغادر موسى بن نصير الاندلس (سنة 95 هـ 715م) آسفاً حزيناً لمَّا حيل بينه وبين تحقيق هذا الامل الكبير.

تحفز الافرنج[1] لرد الخطر الاسلامي

لما عبر المسلمون جبال البرانس كانت غاليا (فرنسا) تحت سيادة الملوك «الميروفنجيين Mérovingiens» ولم يبق هؤلاء الملوك في قوّتهم وعظمتهم الأولى؛ فقد مضى عليهم زمن طويل انتهوا بعدَه الى الضعف والانقسام. وأصبحت السلطة بيد غيرهم خصوصاً رؤساء البلاط.

وكان الميروفنجيون قد اعتنقوا المسيحية منذ عهد الملك «كلوفيس Clovis» سنة 493م، مؤسس المملكة فعظم شأن الرهبان والأساقفة واصبحت لهم قوة ونفوذ. وكان ذلك سبباً في توثيق عُرَى الصلات بين البابا بروما وبلاط الافرنج بفرنسا.

بلاط الشهداء

عندما رأى الافرنج التوغّلَ الاسلاميَّ في بلادهم بقيادة عبد الرحمان الغافقي استعدُّوا لرد الخطر الداهم. وكانت المقاومة الافرنجية تحت قيادة رئيس البلاط المشهور باسم «شارل مارتيل [2] Charles Martel»

---

(1) الافرنج او الافرنك (Les Francs) قسم من الشعوب الجرمانية الوثنية التي اكتسحت غرب اروبا في اوائل القرن الخامس المسيحي، استقروا بغاليا ومنهم اشتق اسم «فرنسا»

(2) لم تلبث عائلة شارل ان استولت على مقاليد الحكم وقضت على العائلة الميروفنجية=

والتقى الجمعان على ضفاف نهر لالوار بين مدينتي «تور» و«بـواتيه» «Tours — Poitiers» سنة 114 هـ (732م) وكان قـد مضى على الجيش الاسلامي شهور عديدة وهو مواصل للجهـاد والغزو، فكان يومَ اللقاء منهوكَ القوى مثقلاً بالغنائم. واستمرّت المناوشات أسبوعاً ثم احتـدم القتال عنيفاً كامل اليوم بدون تغلب جانب على جانب. وأثناء هذا القتال العنيف أصيب القائد الاسلامي (عبد الرحمان الغـافقي) بسهم فأرداه شهيداً بين الصفوف. وتابع المسلمون قتالَهم الى الليل بدون أن يظهر عليهم فتور بعـد موت قائدهم. ولكن أثناء الليـل دبَّ الخلاف بين صفوف المسلمين، فقرروا الانسحاب والرجوع تحت جنح الظلام. ولم يصدق الافرنج في الغد بحقيقة انسحاب المسلمين، فقد ظنوها مكيدة حربية،لأنهم لم يلحظوا عليهم علائم ضعف وانهـزام عندمـا كانـوا يقاتلونهم.

وعلى هذه الصورة انتهت معركة بلاط الشهداء. وكـانت بدايـةً لتراجع القوات الاسلامية عن أراضي غاليا (فرنسا). ومنذ ذلك العهد أخـذت السيادة العـربية تتـراجع شيئـاً فشيئاً حتى انكمشت في بـلاد الأندلس. وأصبحت سلسلة جبال البرانس فاصلاً بين المسلمين والإفرنج المسيحيين في أوروبا الغربية.

ولكنَّ صراعاً جديداً بين الاسلام والنصرانية سيبدأ في الأندلس نفسهـا بين القوات الاسلامية وفلول القوط، الذين التجأوا الى جبال اشتورية وجليقية الصخرية. وكانت تلك الفلول نواةً للممالك الاسبانية التي تصدَّت لمقاومة المسلمين، ومن ورائها أوروبـا المسيحية تمـدُّها بالمساندة المادية والمعنوية.

كيف نشأت المقاومة الاسبانية بالاندلس؟

بعد أن عمَّ الفتح الاسلامي بلادَ الاندلس التجأ بعض أشراف

= تحت اسم الكارولنجيين (Carolingiens) والعرب القدامى يطلقون (قار لـه) على شارل مارتيل وهو اطلاق يساير النطق اللاتيني (Carolus).

القوط وأعيانهم مع فلول المنهزمين الى الناحية الشمالية[1] الغربية بشبه الجزيرة. وكانت جبلية صخرية منيعة؛ فاستقروا هنالك واعتصموا بالجبال تحت زعامة احد اشراف القوط «بلاي Playus».

واحتقر الغزاة المسلمون امر هذه الشرذمة المعتصمة بالجبال؛ ولم يحاولوا ـ جدياً ـ القضاءَ عليها كما قضوا على قوات البربر المعتصمة بجبال الأطلس[2]؛ فكانت هذه أعظمَ هفوة سياسية وحربية ارتكبها هؤلاء الغزاة، لأنها هي التي جعلت من تلك الشرذمة نواةً للممالك الاسبانية التي كانت الخلافات والثورات الداخلية التي أعقبت الفتح الاسلامي للأندلس خيرَمعين لها على التقوّي والنموّ شيئاً فشيئاً، فتكونت مملكتان صغيرتان في اشتورية وجليقية. وكانت مملكة الجلالقة أعظمَ قوة وأوفرَ حظاً. ثم اتحدت المملكتان، إلا أن الخلافات كثيراً ما كانت تشتت من تلك الوحدة فكانت إسبانيا النصرانية مرة متحدة ومرة منقسمة.

2) صلة الصراع في الاندلس بالحروب الصليبية

يعتبر البابا، الجالس على الكرسي الرسولي برومة، الرئيسَ الدينيَّ الأعلى لنصارى الغرب والمذهب الكاثوليكي. وكان البابا يساند أيّ ملك من الملوك ينهض للدفاع عن المسيحية والنفح عنها. ومن دون ريب أن البابوية كانت تنظر الى التقدم الاسلامي في أروبا الغربية نظرة حقدٍ عليه، وإشفاقٍ على مواطن المسيحيين. حتى إذا كانت معركة بلاط الشهداء وتوقف الزحف الاسلامي بعدَها، انتعشت البابوية واهتزت أروبا النصرانية أيّما اهتزاز، وأضفت على «شارل مارتيل» مختلف نعوت الاجلال والبطولة. واعتبرته الكنيسة الكاثولكية حامياً للنصرانية ومنقذاً لها من الانهيار. وهكذا اكتسبت حروبه مع المسلمين صبغة الحروب المقدسة. ولما خلفه ابنه «بيبان Pépin le Bref» على زعامة الافرنج،

---

(1) جبال اشتورية وجليقية. وكثير ما يطلق المؤرخون المسلمون كلمة «الصخرة» على تلك المناطق لوعورتها وصخريتها.

(2) محمد البشير صفر الدروس الجغرافية ص 11

ونهج مسلك أبيه في محاربة المسلمين، ساعدته الكنيسة الكاثوليكية على إسقاط العائلة الميروفنجية وانتصابه ملكاً على غاليا (132 هـ - 751م)، وجاءه البابا إلى فرنسا وباركه. والملك «بيبان» هو الذي حارب اللمبارديين في شمال إيطاليا لما استنجد به البابا، فحماه من هذا الهجوم. ثم منح الكنيسة البابوية الأراضي التي افتكها من اللمبارديين. وكان ذلك بداية لمملكة الكنيسة البابوية[1].

وفي عهد «شارل لمان Charlemagne» ازداد الاتصال توثقاً بين مملكة الافرنج الكارولنجية والكنيسة البابوية. وسار شارلمان على سنة أبيه في حماية الكنيسة البابوية ومحاربة اللمبارديين والمسلمين، ومحاولة انتزاع إسبانيا منهم. (وفي سنة 183 هـ - 800م) سار شارلمان الى رومة ليتوّجه البابا. وأصبحت مملكته تدعى «الامبراطورية الغربية المقدسة».

فاذا عرفنا أن هؤلاء الثلاثة (مارتيل - بيبان - شارلمان) كانوا هم الذين تتابعوا على محاربة المسلمين خارجَ جبال البرانس حتى انحصر الاسلام في شبه الجزيرة، وعرفنا صلتَهم المتينة بالبابا، امكننا ان ندرك قِدَمَ ظهور فكرة الحروب الصليبية التي ظهرت بالمغرب الاسلامي عن ظهورها بالمشرق.

نصارى الاسبان والكنيسة البابوية

كان الاسبان على المذهب الاريوسي الذي لا يقول بألوهية المسيح، عكس المذهب الكاثوليكي، إلا أن الملك «ريكارد» جحد سنة 557م المذهب الاريوسي واعتنق المذهب الكاثوليكي، فأخذ هذا المذهب منذ ذلك العهد ينتشر شيئاً فشيئاً[2].

---

(1) ستمرت مملكة الكنيسة البابوية من سنة 756م الى سنة 1870م. واللمبارديون (Les Lombards) قسم من القبائل الجرمانية المتبربرة التي اكتسحت اروبا. ومازالت مقاطعة بشمال ايطاليا تحمل اسمهم الى اليوم.

(2) شكيب ارسلان الحلل السندسية ج 1 ص 363.

وفي بادىء[1] الأمر لم يكن نصارى الاسبان معترفين بسيادة البابا عليهم، ولكن في النصف الثاني من القرن الحادي عشر المسيحي (قبيل اندلاع الحروب الصليبية بالمشرق) أصبحت ديارات مملكة أرغونة تحت السيادة البابوية. وفي مقابل هذا الاعتراف نال الملك «صانشورامريز» إذناً من البابا في محاربة المسلمين من رَيْعِ أحباس الكنائس الواقعة في مملكته.

وفي عهد البابا قريقوار السابع (سنة 468 هـ ـ 1075م) اعترفت جميع إسبانيا النصرانية بسلطة البابوية وإشرافها. وتأسست هيئة إكليروس في البلاد. وبعد سقوط طليطلة (سنة 478 هـ 1086م) وفد إلى إسبانيا كثير «من المحاربين الفرنسيين نتيجة لمساعي المطران[2] «برنارد» الذي ارتفعت منزلته، فمنحه البابا «أوربان الثاني» الثوب الكهنوتي، وانتصب رئيساً أعلى للكنيسة الاسبانية. كما أصبح للبابا «أوربان» نفوذ كبير في إسبانيا. وأصبح مسموع الكلمة في تعيين وعزل الأساقفة الأسبان. وفي سنة 482 هـ 1089م دعا الى مساندة الاسبان في حروبهم ضد المسلمين، فاستجاب لندائه كثير من فرسان جنوب فرنسا، إذ لم تكن تلك الحروب إلا أعمالاً صليبية جليلة[3].

ولم يتخذ هذا البابا جنوبَ فرنسا مركزاً لاعلان الحروب الصليبية إلا لِمَا يعلمه من اتصال هذه المناطق باسبانيا، ومشاركتها السابقة في محاربة المسلمين بالبلاد الاسبانية.

في مجمع كليرمون

وفي مجمع كليرمون، الذي أعلنت فيه الحرب الصليبية بالمشرق،

(1) ما يأتي مقتبس من كتاب تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين تأليف يوسف اشباخ الالماني وتعريب عبد الله عنان طبع مصر سنة 1940م.

(2) المطران «برنارد» هو الذي سعى لتحويل مسجد طليطلة إلى كنيسة رغم التعهد الذي أعطاه الفونس السادس للمسلمين لما استسلمت له المدينة.

(3) ص 2 (R. Grousset — L'épopée des croisades).

أراد المطران «برنارد» وعدَدٌ من القساوسة الاسبان المشاركة في الحروب الصليبية بالمشرق إلا أنّ البابا «أوربان» منعهم من ذلك، لأنه توجد في بلادهم (اسبانيا) حرب صليبية. كما أصدر هذا البابا مرسوماً حرّم فيه على رجال الدين والفرسان الاسبان المشاركة في صليبيات المشرق، لأن محاربة المسلمين باسبانيا لا تقلّ أهمية واعتباراً عن الحرب الصليبية المشرقية. وقد ترتب على ذلك أن هرع الكثير من الفرسان من مختلف أروبا الى الاندلس ليساهموا في حرب صليبية، هي أقرب سبيلاً وأيسر مشقة وعناء.

ولما أسفرت الحرب الصليبية الاولى عن نجاحها اعلن البابا «باسكال الثاني Pascal II» الحرب الصليبية ضد مسلمي الأندلس[1].

وقد أصبح من المألوف أن يأذن البابا لملوك الاسبان في استعمال أموال الكنائس لمحاربة المسلمين[2]. وكانت البعثات الصليبية الواردة من أروبا الشمالية (إنكليز ـ ألمان ـ هولنديون) لا ترى مانعاً إذا تعطلت في سيرها أن تعين ملوك الاسبان في حروبهم ضد المسلمين، وان يكتفي البعض منهم بتلك المساهمة.

وفي سنة 632 هـ 1244م أصدر البابا قريقوار التاسع قراراً وعد فيه النصارى الذين يحاربون مع ملك البرتغال«صانشو الثاني» بغفران ذنوبهم كما لو كانوا في الحروب الصليبية بالأراضي المقدسة، وكان البابا يثير حماسة البرتغاليين ضد المسلمين.

الملك خَايم الاول

يعتبر الملك خايم الأول (Jayème I) ملك أرغونة من اشد ملوك الاسبان محاربةً للمسلمين وتنكيلاً بهم. ولما اعتزم احتلال جزيرة

(1) اشباخ ج 1 ص 146.
(2) انظر مثلاً ـ أشباخ ـ ج 2 صفحات 131 — 195 مع ما تقدم لك نقله.

ميورقة[1] جعل الصليب شعارَه وانضمَّ إليه الكثيرُ من الجنويز والبروفانسيين. وعندما عزم هذا الملك على احتلال بلنسية أيده البابا قريقوار التاسع ودعا النصارى الى مساندته، فاستجاب لذلك فرسان فرنسا وانكلترا[2].

واهتمَّ الملك خايم لما يقع في الشرق وما يكيله الظاهر بيبرس من ضربات للصليبيين فتهيأ للقيام بحرب صليبية في بلاد المقدس باعتباره من كبار ملوك النصرانية إذ ذاك، فأقلع في مستهلّ سبتمبر 1269م (668 هـ) من برشلونة في حملة صليبية قاصداً البلاد الشامية، إلا ان عاصفةً أجبرته على الرجوع الى أرغونة. ولكن ابناه غير الشرعيين (فيراندو ـ و ـ فيرانديز) تابعاً سيرهما بقسم من الاسطول، ونزلا بساحل عكا في شهر اكتوبر[3].

الفروسية الصليبية في إسبانيا

لم تشابه الحروبُ في الاندلس الحروبَ الصليبية المشرقية في الروح الديني فحسب، بل تابعتها حتى في روح الفروسية. فقد مرَّ عليك. فيما مضى ـ ما كان لفرسان المعبد والاسبتارية من القيمة والاعتبار في الحروب الصليبية بالمشرق. وقد ذاع صيتُ هؤلاء الفرسان عند النصارى الاسبان وعند ملوكهم، حتى أوصى «الفونصو المحارب» ملك أرغونة أن تقسم مملكته أثلاثاً: الاول لسلام روح أبويه وللقبر المقدس وسدنته وكهنته، والثاني لفقراء الاسبتارية وفرسانها، والثالث لفرسان المعبد. كما انتظم «ريموند الثالث» في سلك فرسان المعبد. أما ابنه «ريموند الرابع» فقد بعث الى كبير فرسان المعبد بالمقدس ان يرسل

(1) إحدى جزر الباليار الشرقية وهي ميورقة ومنورقة ويابسة وقد احتل خايم ميورقة سنة 1232م ومينورقة سنة 1242م.

(2) أشباخ ـ ج 2 ص 172 — 175.

(3) ص 649 ج 3 (R. Grousset — Hist. de croisades).

عدداً من فرسانه إلى قطلونية. وقد أسس أوّل دَيْر لهذه الطائفة ووهبها الكثير من الأملاك والحقوق والمزايا[1]. ثم تأسست في سائر إسبانيا النصرانية فرق من الفرسان على شاكلة فرسان المعبد. وكان لهذه الفرق عظيم الأثر في الانتصارات التي سجلها الاسبان ضد المسلمين في الاندلس.

وهكذا تبدو الصلة وثيقةً متينةً بين الحروب الصليبية العامة، التي كانت تهدف الى استخلاص بيت المقدس، وبين الحروب الصليبية بالمغرب التي كانت تهدف الى استرجاع اسبانيا الى حظيرة النصرانية من جهة، والى محاربة الاسلام، ومحاولة القضاء عليه من جهة اخرى.

(1) اشباخ ـ ج 1 صفحات 175 — 184

ملحقات الفصل العاشر

1) حول معركة بَلاط الشهداء

يـرى كثيرٌ من الباحثين أن وقعة بلاط الشهداء كانت إحدى المعارك الحاسمة في تاريخ الاسلام خصوصاً، وتاريخ العالم عموماً: إذ هي تعتبر بدايةً لتوقف الوثبة الأولى من الفتوحات الاسلامية التي ابتدأت من الشام ومصر ووصلت الى جنوب فرنسا ووسطها. ولكن هل كان هذا التوقف لخير أوروبا وسعادتها أم لشقائها وخسارتها؟... إن الإنصاف يقرّ بالثاني؛ فان الاسلام ما حلّ بأرض إلا زرع فيها بذور الحضارة والتقدم والعدالة. وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقةً في الجهالة والأمية والتوحش كانت البلاد التي يسودها الاسلام ترفل في حلل الـرفاهيـة والحضارة، والثقافة والعُمران. وإليك بعض الآراء في قيمة هذه المعركة وأثرها:

أ ـ لنفترض أن النصارى عجـزوا عن دحر العـرب، وأن العرب وجدوا جوّ شمال فرنسا كجوّ إسبانيا غير بارد ولا ماطر فاستوطنوه فماذا يصيب أوروبا؟.

كان يصيب أوروبا النصرانية المتبربرة ما أصاب إسبانيا من التقدم والارتقاء والحضارة الزاهرة الرفيعة تحت راية النبي العربي. وكان لا يحدث في أوروبا، التي تكون قد هذبها الاسلام، ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية وملحمة «سان بارتلمي»[1] ومحاكم التفتيش وكلّ

(1) أفزع المذابح الدينية. وقعت في فرنسا ليلة 23 اوت سنة 1572م اجهز فيها الكاثوليك على البروتستان في عهد شارل التاسع. وقدر بعضهم عدد القتلى بستين ألفاً. اما محاكم =

ما لم يعرفه العرب من الوقائع التي ضرجت أروبا بالدماء عدة قرون».

(حضارة العرب غوستاف لبون ص *342*)

ب ـ «إنّ شارل مارتيل وجنده كانوا لصوصاً خرّاباً متوحشين باربارين. وأن عرب الأندلس لو تجمعوا في فتح أروبا وبقوا فيها قرنين، وأقاموا فيها مدنيتهم كما فعلوا في اسبانيا لكُنّا الآن متقدمين خمسة قرون أكثر مما نحن عليه اليوم. ولا يستطيع عادٌّ أن يعدَّ مقدار الدماء والدموع والفاقة والعدوان التي سببها ذلك الظفر المبين الذي ناله «شارل مارتيل» في السهول التي بين «تور ـ بواتيه». (مدنية العرب في الأندلس تأليف جوزيف ماك كيب تعريب تَقي الدين الهلالي ص 11).

ج ـ « . . . وقد أسبغت الأساطير الغربية المتأخرة على يوم بواتييه ثوباً من الزخرف والخيال. وأسرفت في الايهام بخطورته. أما المسلمون فلم يشيروا اليه كثيراً. وقد سمّوه «بلاط الشهداء» ويعتبره النصارى الفرنجة بدءَ عهدٍ سعيد صدّوا فيه عدوهم الأبدي. فالمؤرخ الانكليزي غبن «Gibbon» وبعض المؤرخين الذين أتوا بعده، ذهبوا الى أنه لو ربح العرب تلك المعركة لكانت باريس ولندن موطنين تقام فيهما المساجد لا البيع التي تقوم اليوم. ولسمع فيهما القرآن يفسر في الجامعات كاكسفورد وغيرها من مراكز العلم لا الكتاب المقدس كما يجري اليوم. . . ».

(ص 597 ـ تاريخ العرب (مطول) تأليف فليب حتّي وصحبه)

د ـ « . . . ونحن مع الفريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أيّما إكبار. ونرى أنها كانت أعظم لقاء بين الاسلام والنصرانية وبين الشرق والغرب، ففي سهول «تور ـ بواتيه» فقد العرب سيادةَ العالم بأسره، وتغيّرت مصاير العالم كلّه، وارتدّ تيار الفتح الاسلامي أمام الأمم الشمالية كما ارتدّ قبل ذلك بأعوام أمام أسوار القسطنطينية، وأخفقت

= التفتيش فهي المحاكم الخطيرة التي انتصبت في اسبانيا لمحاكمة المسلمين أو الملاحدة من النصارى. ومثلت في هذه المحاكم أقسى ما عرفته الانسانية من أنواع التعذيب والظلم والارهاق.

بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب وإخضاع النصرانية للاسلام.

ولم تتح للاسلام المتحد فرصة أخرى لينفذ إلى قلب أوروبا في مثل كثرته وعزمه واعتزازه يومَ مسيره الى بلاط الشهداء.

ولكنّه أصيب غيرَ بعيد بتفرق الكلمة. وبينما شُغِلَتْ إسبانيا المسلمة بمنازعتها الداخلية إذ قامت فيما وراء البرنيه امبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة تهدد الاسلام في الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ..».

(ص 109 من كتاب دولة الاسلام في الاندلس ـ العصر الاول ـ لعبد الله عنان)

2) أوروبا الغربية من سقوط رومة الى عظمة الاسلام

استطاعت الدولة الرومانية ـ إبَّان عظمتها ـ أن تستولي على جميع حوض البحر الأبيض المتوسط، وأن تكون الأراضي الواقعة غرب نهر الرين وجنوب نهر الدانوب من قارة أروبا تحت سيادتها وحكمها.

ولكن منذ أواخر القرن الرابع الميلادي أخذت الشعوب الجرمانية المتبربرة تغزو الامبراطورية الرومانية الغربية، وتستقرّ في أراضيها حتى قضت عليها. وسقطت رومة سنة 476م. وزالت بسقوطها الامبراطورية الرومانية الغربية. وقد قامت على أنقاض هذه الامبراطورية ممالك جرمانيا كثيرة أهمّها القوط الشرقيون بحوض الادرياتيك. والقوط الغربيون باسبانيا وجنوب فرنسا. والوندال بشمال افريقية. والافرنك (الفرنجة) بشمال فرنسا.

وشيئاً فشيئاً أخذت معالم الحضارة الرومانية في الزوال، وسادت الأمية والجهالة. ودخلت أروبا في العصور الوسطى، التي تبدأ من سقوط رومة وتستمرّ نحو ألف سنة إلى استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينيّة سنة 1453م. وبذلك تدرك أن العصور الوسطى (عصور

الظلام والجهالة والتأخر) لم تكن تصدق إلا على أوروبا. إذ العصور الوسطى هي التي ازدهر فيها الاسلام، وحمل مشعل الثقافة والرقي، وأضاء به أرجاء العالم، وأدّى رسالة هي حلْقة الوصل بين الحضارات القديمة والحضارة الحديثة.



الفصل الحادي عشر

أدوار السيادة الإسلامية بالأندلس

1 — الفتح وعصر الولاية.
2 — الدولة الاموية.
3 — ملوك الطوائف.



1- الفتح العربي وعصر الولاية

تولىّ موسى بن نصير ولاية إفريقية سنة 89 هـ بعد أن وطّد دعائم الاسلام فيها وُلاَةٌ مختلفون، كان آخرهم حسّان بن النعمان الغساني. وقاوم موسى بن نصير ثورات البربر وقمعها. واجتمع بقية الثوار في طنجة فتغلب عليهم موسى بن نصير وولىّ على طنجة مولاه طارق بن زياد. ولم يبق خارجاً عن النفوذ الاسلامي إلا مدينة سبتة التي كانت تحت حكم ملك اسبانيا القوطي. وكان واليها من قبله «الكونت جوليان» (أليان - أو - يوليان).

اسبَانيا[1] قبل الفتح الاسلامي

خضعت اسبانيا منذ القرن الخامس المسيحي الى حكم القوط الغربيين، فأسسوا هنالك مملكة قوية. ثم دخلها الوهن والاضطراب فيما بعد. وقبيل الفتح الإسلامي كانت إسبانيا خاضعة لحكام القوط الذين ركنوا الى الراحة والترف، وأوغلوا في التنكيل واضطهاد الشعب الفقير

(1) إسبانيا (جزيرة ايبريا). وقد التحق بها اسم الاندلس بسبب أن استولى عليها الوندال. وقد استمرت هذه التسمية مدة الحكم الاسلامي فيها. اما اليوم فلا يطلق اسم الاندلس إلا على القسم الجنوبي من اسبانيا، الواقع بين الوادي الكبير والبحر ومن أهم مدنه: قرطبة - اشبيلية - مالقة - جيان - المرية - غرناطة.

البائس. وكان بإسبانيا كثير من اليهود معرّضين للاضطهاد والمصادرة والاكراه على التنصير؛ مما جعلهم يحاولون الثورة ضدّ هذا الاستبداد.

وكانت هذه الحال السيئة، الواقع تحت نيرها عامة الشعب واليهود، تجعل هؤلاء وأولائك متطلعين إلى من ينقذهم من هذا العذاب. وهكذا لم تكن الحياة السياسية مستقرة في إسبانيا القوطية، فكانت إسبانيا ـ قبيل الفتح ـ مسرحاً للثورات والحروب الداخلية.

وقبل الفتح الاسلامي كان الجالس على عرش القوط بطليطلة هو الملك «غيطشه» (وتيزا) وكانت سيرته القاسية المستهترة باعثةً على اندلاع نار الثورة ضده بزعامة «لذريق»[1] (روذريق) قائد الجيش القوطي. وانتهت ثورته بالانتصار وانتصابه ملكاً على إسبانيا. وقد أعانه في ثورته النبلاء ورجال الدين، ولكن سرعان ما عسف لذريق وانغمس في الشهوات، فنفرته القلوب وكرهه الناس.

واندلعت نيران الثورة ضده والتجأ أبناء خصمه (غيطشه) الى حاكم سبتة، الذي كان من ألد أعدائه[2]. ثم استنجد هذا الحاكم بالمسلمين فاهتبلوا الفرصة وتقدموا الى فتح الاندلس.

فتح الاندلس

وفي رجب 92 هـ (افريل 711م) عبر طارق بن زياد البحر في سبعة آلاف مقاتل ونزل إسبانيا[3]. واندفع قاصداً مدينة طليطلة عاصمة القوط. ثم أنجده موسى بن نصير بخمسة آلاف أخرى، بينما كان «لذريق» بشمال إسبانيا مشغولاً بقمع ثورة هناك. وما إن سمع بنزول العرب في

(1) كان والد لذريق «تيودور» قد قتله غيطشه وسمل عينيه.

(2) يرجع كثير من المؤرخين سبب هذه العداوة الى ان لذريق أراد اغتصاب إحدى بنات جوليان حاكم سبتة.

(3) كان نزول طارق وجيشه بالساحل الواقع امام الجزيرة الخضراء وكان الساحل جبلياً صخرياً ومنذ ذلك الزمن اطلق على ذلك الجبل «جبل طارق».

بلاده حتى عاد مسرعاً، والتفَّ حوله رجال الدين والنبلاء واجتمع له من الجيش نحو مائة الف مقاتل.

وفي رمضان التقى الجمعان بسهول شريش (Xérès)[1] فجرت بين الطرفين مناوشات أعقبها التحام شديد انتصر فيه المسلمون رغم قلتهم (12 الفاً) وانهزم القوط شرّ هزيمة. ثم تابع طارق بن زياد فلولَ الجيش القوطي المنهزم، فقضى عليها قرب «استجة» واطّرد النصرُ لفائدة المسلمين، ففتحت مدائن (قرطبة ـ ألبيرة ـ غرناطة ـ) وغيرها. وسار طارق ابن زياد صوب طليطلة فاستولى عليها. ثم تابع فتوحه الى شمال اسبانيا (جليقية). وعاد بعد ذلك الى طليطلة اين تلقى أمراً من موسى بن نصير يأمره بالتوقف عن الزحف. وفي رمضان 93 هـ عبر موسى بن نصير المضيق في جيش مؤلف من العرب والبربر، وافتتح عدة مدن أخرى (شذونة ـ قرمونة ـ اشبيلية ـ ماردة) ثم قصد طليطلة. والتقى ـ قريباً



عبور أول جيش اسلامي الى الاندلس
«عن الحلل السندسية»

(1) انظر اماكن المعارك الكبرى في الخريطة عدد (9).

منها ـ بمولاه طارق بن زياد. (وتذكر المصادر التاريخية أنّ ابنَ نصير عنف طارقاً وأهانه؛ لانه لم يتبع أوامره).

ثم تضافرت جهود القائِدَيْن على فتح بقية الأندلس، فلم يبق فيها خارجاً عن الحكم الاسلامي إلا مناطق ضيقة جبلية التجأ إليها بعض القوط واعتصموا بها.

ولاة الاندلس

وبينما كان موسى بن نصير منهمكاً في إتمام فتوحاته إذ وردت عليه من الخليفة الأموي بدمشق (الوليد بن عبد الملك) رسائل تدعوه بإلحاح الى دمشق (مركز الخلافة) فغادر موسى بن نصير الاندلس في ذي الحجة 95 هـ (815م) بعدان ترك ولده عبد العزيز والياً عليها. وبهذه الولاية تدخل الأندلس في عصر الولاة، وتعاقب عليها ولاة كثيرون منهم المستقلّ بولايتها، ومنهم التابع لولاية القيروان أو مصر. وامتد عصر الولاة من 95 هـ (715م) الى 138 هـ (755م) وكان من ابرز هؤلاء الولاة:

أ) عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي يعتبر متمماً للأعمال التي قام بها والده وطارق بن زياد. وكان شهماً عادلاً شجاعاً، إلا أنّ الأمد لم يطل به إذ اغتيل من طرف الجند بعد سنة ونيف من ولايته.

ب) وفي سنة 100 هـ جعل عمر بن عبد العزيز الأندلسَ ولاية مستقلّةً تابعة لمركز الخلافة مباشرة بولاية السمح بن مالك الخولاني. وكان حازماً عادلاً، ساد الامن في عهده وغزا وراء البرانس وأثخن في لانكدوك وأكوتين وتولوز[1]. وفي هذا العهد بدأ النزاع بين الافرنج والمسلمين في أرض غاليا، ومات السمح شهيداً في وقعة تولوشة (تولوز) سنة 102 هـ 721م.

ج) عنبسة الكلبي، تولّى أمر الأندلس باختيار بشر بن صفوان

---

(1) هي (Toulouse — Languedoc Aquitaine) في فرنسا الحالية.

(والي إفريقية) فتابع هو أيضاً قتال الافرنج ومات شهيداً في غاليا سنة 107 هـ 725م. ثم جاء بعده ولاة الى الاندلس لم يكن لهم شأن عظيم حتى كانت سنة 113 هـ.

د) ففيها تولّى الاندلس عبد الرحمان الغافقي، الذي استطاع أن يلمَّ الشمل الآخذ في التصدع، وأن يوحد كلمة المسلمين. ثم عبر البرانس وأثخن في أرض الافرنج واستطاع أن يستولي على غالب فرنسا الجنوبية والوسطى، مما أزعج الافرنج ودعاهم الى تكتيل جهودهم ضده بزعامة «شارل مارتيل» حتى كانت واقعة بلاط الشهداء سنة 114 هـ ـ 735م التي استشهد فيها عبد الرحمان الغافقي.

هـ) وفي عهد ولاية عقبة بن الحجاج السلولي (من سنة 116 هـ ـ 735م الى 123 هـ 741م) أخذت القوات الاسلامية تتراجع عن غاليا، فلم يبقَ بأيدي المسلمين إلّا شريط ساحلي صغير يمتد من البرانس الشرقية الى مدينة نربونة. واضطربت الأحوال بالأندلس واندلعت فيها نيران الثورة، وتكاثرت الفتن بين الأحزاب والقبائل (عرب ـ بربر ـ يَمَنية ـ قَيْسِية). وكان هذا في الوقت الذي دخلت فيه الخلافة الأموية دور الهرم والاحتضار؛ فقام ضدها العباسيون وقضوا عليها وطاردوا اتباعها ووَرثَةَ ملكها، ونكلوا بهم تنكيلاً فظيعاً (سنة 132 هـ). واستمرت الاضطرابات في بلاد الاندلس الى سنة 138 هـ 755م وقد تولّاها يوسف ابن عبد الرحمان الفهري منذ سنة 129. لكنه لم يكن ينتهي من إخماد ثورة حتى تقوم ثورة اخرى.

2 — الدولة الاموية بالاندلس

تجديد مجد بني أمية

استطاع عبد الرحمان الداخل[1] أن يفلت من مطاردة العباسيين إلى

(1) عبد الرحمان بن معاويةبن هشام بن عبد الملك بن مروان، أمه أم ولد اسمها «راح» ولد سنة 113 هـ وقد استمر أميراً على الاندلس من 138 الى 172 هـ.

أن وصل الأندلس متخفيًّا سنة 138هـ بعد أن مهَّدَ له الأمرَ مولاه بدر. واستجاب لدعوته كثير من الناس، خصوصاً القبائل اليمنية وجنود الشام. وسرعان ما تغلب على يوسف الفهري فهزمه. وبويع له بالامارة ودخل قرطبة ظافراً في العاشر من ذي الحجة.

كان عبد الرحمان الداخل داهية حكيماً[1] فكان يدعو للمنصور العباسي. ثم قطع الخطبة عنه لما تـمَّ له ملك الأندلس ومهد أمرها وخلّد لبني أمية السلطان بها، وجدّد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها. ولما استوثق له الأمر أمر بلعن المسوّدة[2] وقطع الذعاء لابي جعفر المنصور[3]. وكان هذا الفتى الأموي جلْداً صبوراً حازماً، فانه ـ رغم الثورات والانتفاضات التي وقعت طول مدته ـ قد تغلّب عليها ونجح في إخضاع الأندلس، وأسس دعائم دولة أموية جديدة لا في بلاد الشام وإنما في الطرف الأقصى من المغرب الاسلامي. وجعل من مدينة قرطبة عاصمة لمملكته الجديدة. وأخذت هذه العاصمة تعظم وتزدهر حتى غدت من أعظم الأمصار حضارة وعمراناً وثقافة وازدهاراً. وكانت تنافس بغداد في هذه الميادين وتبزّها أحياناً. وقد عاصر عبد الرحمان الداخل أبا جعفر المنصور الذي اعترف لهذا الفتى الأموي بالنبـوغ، وأطلق عليـه لقب «صقر قـريش» كمـا عـاصـر أعـظم ملك إفـرنجي «شارلمان» حفيد «شارل مارتيل». وقد انتهز «شارلمان» فرصة دعوته من طرف الثوار على عبد الرحمان الداخل فعبر البرانس وزحف على شمال الاندلس، لكنه رجع خائباً منهزماً.

خلفاء عبد الرحمان الداخل

امتدَّ ملك بني أمية في الأندلس إلى سنة 422 هـ. وتتابع على

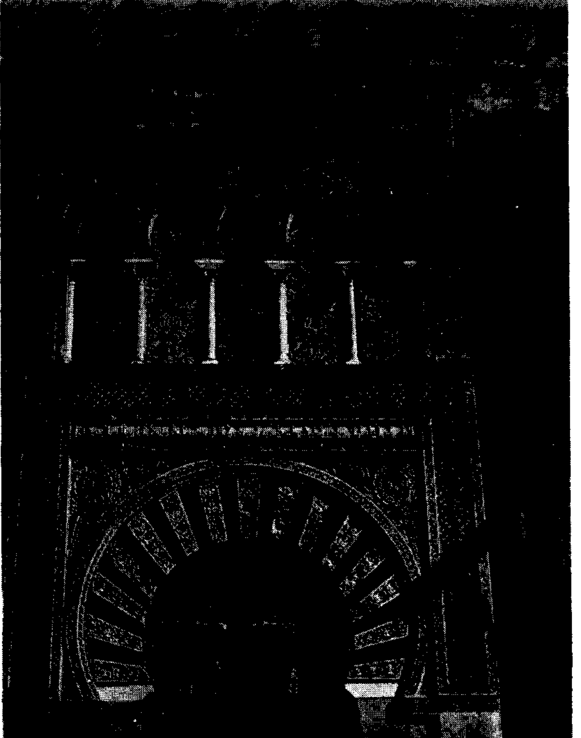
(1) ابن خلدون ج 4 ص 122.
(2) المسودة: العباسيون. إذ كان السواد شعارهم.
(3) البيان المغرب للمراكشي ص 207.

عرش قرطبة ملوك كثيرون. ورغم أن الأندلس أصبحت قوية متحدة إلا أنّ هذا لم يمنع أعداءها من إفرنج وإسبان أن يستغلّوا أيَّ اضطراب أو شغب يقع في البلاد؛ ففي عهد هشام الاول (172 ـ 180 هـ) خرج عن سيادة الاسلام أهمّ الأراضي الواقعة وراء البرانس. وفي عهد الحكم الاول (180 ـ 206 هـ) سقطت مدينة برشلونة[1] أمنع ثغر بشمال إسبانيا كان يعتمد عليه المسلمون سنة 175 هـ ـ 801م، وكانوا يطلقون عليها اسم «الثغر الاعلى». وفي عهد عبد الله بن محمد الاول (275 ـ 300 هـ) تفاقم أمر الثورة ودخل البلاد الاضطراب والانقسام وأشرفت الدولة الاموية على الانقراض والزوال، لو لم يتدارك أمرها عبد الرحمان الناصر.

عبد الرحمان الناصر

يعتبر عبد الرحمان الناصر أعظم ملوك بني أمية في الاندلس وواسطةَ عقدهم. وقد بلغت البلاد في عهده (300 هـ ـ 350 هـ) غاية المجد والعظمة والازدهار. واشتهر عبد الرحمان الناصرِ بالحزم والصرامة والشجاعة؛ فعندما تولىّ الامارة كانت الأندلس تكاد تفقَد فيها سيادة بني أمية لما نالها من الفوضى والتمزيق والتشتت وانحلال السلطة؛ فأخذ الناصر يجمع الشمل ويقمع الثائرين الى أن خلصت له البلاد، ودانت له بالطاعة. وطمع الفاطميون ـ بافريقية ـ في الاستيلاء على الانـدلس لما رأوا ما أصبحت عليه من الفوضى، إلا ان عبد الرحمان الناصر ردَّ كيْدَهم، ومنع تسرب دعوتهم الى بلاده وحارب ملوك النصارى بشمال اسبانيا وقهرهم. وكان له أسطول بحري بلغ عدده مائتي سفينة.

(1) كان ذلك بداية لامارة قطلونية النصرانية.





جامع قرطبة، يمثل روعة الفن العربي بالاندلس

إعلان الخلافة بالاندلس

عندما استقلّ عبد الرحمان الداخل بالأندلس اكتفى بلقب «أمير» وسار على ذلك خلفاؤه. ولكن ضعف الخلفاء العباسيين بالمشـرق، واستبداد المماليك الأتراك باولائك الخلفاء ترتب عنه أن انشقت أقطار كثيرة عن سيادة بني العباس وانبعثت الخلافـة الفاطميـة في المغرب العربي. ولما رأى عبد الرحمان الناصر هذا الضعف وعلم أن الخليفة العباسي «المقتدر» قتله مملوكه مؤنس المظفر سنة 317 هـ اعلن عبد الرحمان الناصر الخلافة وتلقب بلقب «اميـر المؤمنين». والتصق هذا اللقب بمن أتى بعده من ملوك بني امية.

التراجع الاموي، حجابة بني عامر

تولى بعد عبد الرحمان الناصر ابنه الحكم الثاني «المستنصر» فعاشت البلاد 16 سنة في هدوء واطمئنان. ولما توفي سنة 366 هـ ولي ابنه هشام الثاني «المؤيد»، وكان ابن عشر سنين فتغلبت عليه أمه «صبح» ثم حاجبه المنصور بن أبي عامر. وكان المنصور بن أبي عامر من ألمع الشخصيات التي لعبت دوراً عظيماً في تاريخ الأندلس، فقد استبدّ بالأمر، وأصبح الخليفة الأموي لا رأي له ولا نفوذ. وضُرِب اسم المنصور على السكة بعد اسم الخليفة، ودعي له على المنابر. واشتهر المنصور الحاجب بغزواته الكثيرة وإثخانه في بلاد النصارى (الاسبان) فقد تغلّب عليهم واستولى على الكثير من مدنهم، وخضع له ملوكهم وأدَّوْا إليه الاتاوة، وقدموا إليه مراسم الطاعة والولاء. ثم مات المنصور (سنة 393 هـ) شهيداً في إحدى غزواته بشمال الأندلس. وتولى الحجابة بعده ابنه المظفر، فسار على منهج أبيه في الاستبداد بالأمر، لكن لم تطل حياته. وبعد موت الحاجب المظفر اختلّ توازن الدولة وقامت الثورات والفتن وانقسم البيت المالك. وأصبح الاندلسيون يستعينون بملوك النصارى ضد بعضهم بعضاً. واستبدَّ أصحاب الأطراف بما تحتهم. ودخلت الأندلس المسلمة في دور جديد بقتل المستعين واستيلاء بني حمود على قرطبة سنة 450 هـ. واستغل «الاذفونش الخامس» ملك قشتالة هذا الاضطراب فاستردَّ ما استولى عليه المنصور ابن أبي عامر من مدن النصارى. واستمرت الاضطرابات الى سنة 422 هـ (1030م) بخلع هشام «المعتدِّ بالله». ولم يعد لبني أمية ذكر. وكان عصر ملوك الطوائف.

3 — ملوك الطوائف

عصر ملوك الطوائف بالأندلس من أخطر عصور هذه البلاد؛ فقد

انقسمت الأندلس الى ممالك عديدة. وتربع على عروشها ملوك كانوا فريسةً للتحاسد والحقد والخلاف والغرور. وقد كان عدّوهم الاصلي (الاسبان) يُذْكي نيران الفتن: يعين الضعيفَ على القوي حتى يضعفوا جميعاً، فيسهل عليه بذلك افتراس هذا القطيع الذي تفرق شمله وضل رعاته. وهكذا (تغلب في كل جهة منها متغلب، وضبط كلّ متغلب منهم ما تغلب عليه، وتقسموا ألقاب الخلافة: فمنهم من تسمّى بالمعتضد وبعضهم تسمّى بالمأمون، وأخر تسمّى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل، الى غير ذلك من الالقاب الخلافية. وفي ذلك يقول أبو علي الحسن بن رشيق:

مما يزهِّدُني في أرض أندلس ... سماع مقتدر فيها ومعتضدَ
ألقابُ مملكة في غير موضعها ... كالهرّيحكي انتفاخاً صولة الأسد[1]

تكاثرت ممالك الطوائف حتى بلغت نحواً من عشرين مملكة. ومن أَشهر هذه الممالك ـ 1) بنو حمود بقرطبة ثم مالقة والجزيرة الخضراء ـ 2) بنو ذي النون بطليطلة ونواحيها ـ 3) بنو عباد بإشبيلية ـ 4) بنو الأفطس ببطليوس ـ 5) بنو هود بسرقسطة ـ 6) بنو زيري بغرناطة ـ 7) بنو جهور بقرطبة.

الضغط الاسباني على ملوك الطوائف

عرفت ـ مما سبق ـ كيف التجأت فلول القوط ـ أول الفتح الاسلامي ـ الى المناطق الجبلية بشمال الاندلس. واستمرّت هذه الفلول تستغل أية فرصة لتوسيع نفوذها وتمتين قواها. ومدةَ عظمة الدولة الاموية بالأندلس اكتفت الممالك الاسبانية بما عندها. وكانت تقف غالب

(1) عن المعجب ص 70. اما ابن رشيق قائل البيتين فهو الشاعر التونسي المشهور صاحب كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده. وله عدة تآليف اخرى. ولد في مسيلة ونشأ في القيروان أين علا نجمه زمن المعز بن باديس الصنهاجي. وبعد زحف بني هلال ارتحل عن القيروان واستقر بصقلية. وقد وافاه الاجل هنالك بمدينة مازرة.

الأحيان موقف الدفاع عن حوزتها. وفي اوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر مسيحي) آل أمرالأندلس الى مهزلة ملوك الطوائف. وهنا تحلّبت لها ملوك الاسبان، وشمّروا عن سوقهم للاجهاز على المسلمين. والى هذا الوقت كانت الاراضي التي بيد الاسبان تبلغ ثلث الجزيرة فقط.

ورغم أن الدويلات[1] النصرانية كانت متعددة إلا أنها كانت أقربَ الى الوحدة. كما كانت توجد من ضمنها مملكة قوية تتزعم قيادتها وتوجيهها. وفي النصف الأول من هذا القرن استطاع صانشو الكبير «شانجة» أن يضم إليه جميع الممالك النصرانية ضماً حقيقياً أو بالتبعية إليه. ولما توفي صانشو الكبير (428 هـ 1035م) تقلد زعامة نصارى الاسبان ابنه «فرديناند الاول» الذي وجه همَّه الى محاربة ملوك الطوائف، لا سيما بنو الأفطس. ولم يمت فرديناند (458 هـ 1065م) إلا بعد أن خضع له ملوك إشبيلية وطليطلة وبطليوس، ودفعوا له الأتاوة. ورغم اقتسام المملكة بعد موته فان ابنه الآذفونش «الفونس السادس» استطاع بعد حروب طويلة أن يضمّ إليه مملكة أبيه (قشتالة ـ ليون ـ جليقية ـ البرتغال) وأن يقتسم مع شانجة (ملك أرغونة) مملكة نفاره، فتقوت المملكتان وعظم شأنهما وتحالفتا على محاربة المسلمين والنيل منهم.

بداية التقهقر الاسلامي

كان موقف ملوك الطوائف موقفَ العداء والحروب والدسائس ضد بعضهم بعضاً، على نقيض موقفهم مع ملوك النصارى، خصوصاً الاذفونش السادس (ملك ليون وقشتالة)؛ فالمأمون بن ذي النون (صاحب طليطلة) كان يثق تمام الثقة بالأذفونش، حتى أنه جعله من جملة الأوصياء على ولي عهده (يحيى) عندما أحس بقرب أجله. وأما المعتمد ابن عباد (صاحب إشبيلية وأعظم ملوك الطوائف إذ ذاك) فقد تحالف مع

(1) ليون ـ قشتالة ـ أرغونة ـ نافارة ـ امارة قطلونية.

الأذفونش وعاهده على ألّا يتعرض للأذفونش إذا غزا طليطلة في مقابل إعانته بالجيوش المرتزقة ضد أعدائه من ملوك الطوائف[1].

سقوط طليطلة (478 هـ 1085م)

وهكذا وجد الأذفونش الفرصة سانحة فاندفع صوب طليطلة للقضاء على بني ذي النون واحتلالها. ولم يجد صاحبها (يحيى القادر) معيناً يدفع به الخطر سوى بني الافطس، اصحاب بطليوس. أما ابن عباد فقد كان يوسّع دائرة مملكته على حساب إخوانه المسلمين! وأخيراً ـ وبعد نحو ست سنوات ـ استطاع الأذفونش أن يتغلب على طليطلة، فاستسلمت إليه ودخلها ظافراً منتصراً (المحرم ـ اكتوبر 478 هـ ـ 1085م) وبذلك استرجع النصارى عاصمة القوط الأولى بعد خضوعها للسيادة الاسلامية نحواً من أربعة قرون.

ولم يكتف الأذفونش بهذا بل اندفع متقدماً صوب قرطبة وماردة وبطليوس، مما جعل ابن عباد يندم على محالفة الأذفونش، الذي أعلن عزمه على محاربة جميع المسلمين، وضمنهم المعتمد بن عباد. وأحس ملوك الطوائف بالخطر الداهم وسوء مغبّة خلافهم. وكان هذا الضغط دافعاً بهم الى التقارب وإزالة الخلاف ـ ولو ظاهرياً ـ فعقدوا الاجتماعات وتداولوا الأمر وأيقنوا أنهم لا يستطيعون إيقاف هذا الخطر، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وهكذا لم يرَ الأندلسيون بدًّا من الاستنجاد بدولة المرابطين الناشئة في المغرب الاقصى.

(1) اعترف ابن عباد بهذه الهفوة العظيمة في الرسالة التي أجاب بها تهديد (الاذفونش) له بعد ذلك. انظر رسالته في الحلل الموشية لابن الخطيب ص 25 طبع تونس سنة 1329 هـ.

ملحقات الفصل الحادي عشر

1) عصر ملوك الطوائف

عصر ملوك الطوائف بالأندلس، وان كان من الناحية السياسة يمثل عصر الفوضى والاضطرابات، إلا أنه من الناحية الأدبية والعلمية كان عصر الازدهار والنبوغ فالنهضة التي ابتدأت زمن عظمة الأمويين لم تؤت ثمارَها الناضجة إلا في عهد ملوك الطوائف وما بعده. وهذا العصر يشبه القرن الرابع الهجري بالنسبة الى بغداد؛ فقد كانت الحركة الانفصالية عن بغداد، ومزاحمة العواصم الجديدة لها من أعظم أسباب ازدهار الحركة العلمية والأدبية في المشرق الاسلامي. وهكذا كان الامر بالنسبة لقرطبة عاصمة الأمويين؛ فلم تبق في الأندلس مركزية سياسية واحدة، بل أصبحت إشبيلية وطليطلة وبلنسية وبطليوس وغيرها يتنافس ملوكها في تشجيع العلماء والأدباء وتقريبهم منهم وتقليدهم المناصب العالية، فراجت سوق العلم والأدب وكثر النبغاء والنابهون في سائر المعارف والفنون. وتستطيع أن تدرك مبلغ ذلك النشاط الادبي إذا رجعت ـ مثلاً ـ الى كتاب الذخيرة لابن بسام أو قلائد العقيان للفتح بن خاقان أو نفح الطيب للمقري. ومن أبرز شخصيات هذا العصر: ابن زيدون وابن خفاجة وابن حزم، الذي كان أول عالم عني بدرس الاديان والمقارنة بينها[1]. ومن رجال هذا العصر ابو بكر بن قزمان، مخترع فن الموشح في الشعر، وأبو القاسم صاعد، صاحب كتاب طبقات الامم، وأبو عبيد البكري، صاحب المسالك والممالك ومعجم ما استعجم.

(1) فيليب حتي ص 662 ـ بروكلمان 2 ج 177 — .

وكان هذا العصر خير ممهد لبلوغ الفلسفة الاسلامية أوج مجدها وعظمتها بنبوغ الفلاسفة الاعلام : ابن طفيل - ابن باجه - ابن رشد - ابن ميمون .

2) طليطلة

لم تفقد مدينة طليطلة (عاصمة القوط) أهميتها بعد الفتح الاسلامي ؛ فقد بقيت من أعظم المراكز الاسلامية ومن أهم مدن الأندلس. وكانت زمن ملوك الطوائف من أهم العواصم وخير منافس لقرطبة (جوهرة الأندلس). وكانت من الناحية الحربية يطلق عليها اسم «الثغر الأدنى». أما من ناحية الصناعة فكانت من أشهر المدن الصناعية.

وكان لبقائها زهاء الأربعة قرون تحت النفوذ الاسلامي أثر كبير في أهلها. ورغم أن الاسبان جعلوها عاصمةً لهم عقب احتلالها، ورغم المضايقة الشديدة على اللغة العربية، فان أهالي طليطلة بقيت عندهم اللغة العربية خمسة قرون بعد احتلالها من طرف الاسبان[1]. ومثلت مدينة طليطلة - بعد رجوعها للاسبان - دوراً حضارياً عظيماً، إذ كانت أنشط مركز وأحسنه لتسرّب الحضارة الاسلامية إلى اروبا؛ فقامت فيها مدارس منظّمة لترجمة كنوز الثقافة الإسلامية إلى اللغات الأروبية، سيما اللاتينية. وكانت مقصداً للعلماء والطلاب المتعطشين إلى المعرفة من مختلف الأقطار الأروبية. وفي طليطلة تأسست أول مدرسة للاستشراق[2] (سنة 648هـ 1250م). وعن طريق طليطلة ترجمت مختلف الكتب العربية في الطب والفلسفة والفلك والحساب والكيمياء. وقد بلغ ما ترجمه «جرارد القرموني» وحده (71) كتاباً[3]. وهكذا كانت طليطلة أعظم جسر عبرت عليه الثقافة الاسلامية إلى أروبا الغربية وكان لذلك العبور أعظم

---

(1) الحلل السندسية لشكيب ارسلان ج 1 ص 365 —.

(2) فيليب حتي - مطول ص 698. اما الاستشراق فيراد منه دراسة أحوال الأمم الشرقية من طرف علماء الغرب مهما كانت هذه النواحي «لغة - ديانة - اقتصاد - اجتماع» الخ.. وقلما كان الاستشراق - في السابق - يقصد منه خالص الثقافة. بل كان غالبا ما يتجه الى مقصد التبشير بالمسيحية او بقصد الاستعمار والاستيلاء.

(3) فيليب حتي - مطول ص 699.

الأثر في النهضة الأروبية الحديثة.

وعندما سقطت طليطلة بيد الاسبان ساد الفزعُ جميعَ المسلمين هنالك. وقدر العقلاء ما سيكون وراء هذه الهزيمة، فقد كانت بداية تقلّص ظلّ الاسلام عن الأندلس. بل كانت بداية النهاية. وقد عبر أحد الشعراء عن هذا المعنى أحسن تعبير عندما قال بعد سقوط طليطلة:

يا أَهل أندلس شُدُّوا رِحالكم	فما المُقام بها إلا من الغَلَطِ
السِلك يُنْثَر من أطرافه وأرَى	سلك الجزيرة منثوراً من الوَسط
من جاور الشرَّ لا يأمن بوائقه	كيف الحياة مع الحيات في سَفَطِ[1]

3) دولة المرابطين

نشأت دولة المرابطين في جنوب المغرب الاقصى في قبيلة لمتونة من صنهاجة البربرية، وذلك في النصف الأول من القرن الخامس الهجري. وابتدأ أمر هذه الدولة على يد يحيى بن إبراهيم القدالي والداعية عبد الله بن يس الجزولي. وسرعان ما علا شأن هذه الدولة وعظم خطَرها. ولما آل أمرها الى السلطان يوسف بن تاشفين ازدادت عظمة واتساعاً وهو الذي أسس مدينة مراكش (454 هـ ـ 1062م) واتخذها عاصمةً له. ثم تقدم إلى شمال المغرب فاستولى عليه كما استولى على المغرب الأوسط (الجزائر). وأصبحت مملكته تمتدُّ من المحيط الاطلسي الى الجزائر غرباً وشرقاً، ومن البحر الأبيض المتوسط الى الصحراء الكبرى شمالاً وجنوباً.

وكان المرابطون يتقدون حمية وحماسةً دينية؛ فقد قامت دعوتهم على محاربة الظلم والفساد والطغيان. وكانت الدعوة التي بُثَّتْ فيهم ما تزال حارة ملتهبة. وإذ كانت حال المسلمين بالأندلس تدعو إلى الاشفاق أمام الخطر الاسباني، وجاء المسلمون مستنجدين بيوسف بن تاشفين

(1) عن ازهار الرياض للمقري ج 1 ص 46. وقائل الابيات هو عبد الله اليحصبي المعروف بابن العسال.

(سلطان المرابطين) فلم يتردد المرابطون طويلاً في النجدة. وفي ربيع الأول (479 هـ ـ 1086م) ـ عبر يوسف ابن تاشفين الى الأندلس لانقاذها من الخطر المحدق بها وإعادة مجد الاسلام وعظمته هنالك.

الفصل الثاني عشر

من نجدة المرابطين إلى ضعف الموحدين

1) نجدة المرابطين.
2) ضعف المرابطين واشتداد الضغط الاسباني بالاندلس.
3) نزول النرمان بالسواحل الافريقية.
4) الموحدون يوحدون المغرب الاسلامي وينقذونه من الخطر.

1 — نجدة المرابطين، معركة الزلاّقة

في الوقت الذي كان فيه ملوك الاسبان منهمكين في احتلال المدن والقرى الاسلامية، واتحدوا على ذلك وتحالفوا: فكان «الاذفونش السادس» يضيق الخناق على سرقسطة، وملك أرغونة يحاصر طرطوشة؛ وأمير برشلونة يتأهب لغزو بلنسية، في ذلك الوقت العصيب عبر يوسف ابن تاشفين الى الأندلس فاقتبله المعتمد بن عباد قرب الجزيرة الخضراء واحتفى به. وتقاطرت الجموع الاسلامية وملوك الطوائف إلى معسكر ابن تاشفين حتى أجتمع عنده جيش عظيم من الأندلسيين، زيادة على جيوشه التي أتى بها من المغرب. وطار الخبر الى ملوك النصارى، فأقلعوا عما كانوا بصدده، والتفوا جميعاً تحت راية «الأذفونش السادس» الذي سار الى الجنوب قاصداً ملاقاة المرابطين.

وعلى مقربة من بطليوس (في فحص الزلاّقة» التقى الفريقان (رجب - أكتوبر سنة 479 هـ 1086م). وكان يوم اللقاء الحاسم يوم جمعة[1] فصدق المسلمون اللقاء وأظهر ابن عباد شجاعة نادرة. فانهزم النصارى هزيمة لم يعرفوها منذ قرون، وجُندِلت منهم عشرات الآلاف.

---

(1) كان الاذفونش قد استعمل حيلة لم تنطل على المسلمين، فقد بعث الى ابن تاشفين يقترح عليه أن يكون اللقاء يوم الاثنين حتى لا يتعكر صفو المسلمين واليهود والنصارى في أيام: الجمعة - والسبت - والاحد - ولكن ابن عباد تنبه للخدعة فحذر المرابطين من ذلك وصدقت فراسة ابن عباد فقد قرر الاذفونش أن يكون الهجوم وقت صلاة الجمعة. إلا ان المسلمين كانوا محتاطين لذلك تبعاً لتحذير ابن عباد.

ولم ينجُ «الأذفونش» إلا بأعجوبة في نفر قليل من أصحابه، بعد أن جرح في المعركة بطعنة كادت تقضي عليه.

وسار خبرُ الانتصار الى المغرب وكافة المدن الأندلسية، فانتعشت النفوس وعمَّ الابتهاج. إلا أن ابن تاشفين لم يتابع مقاتلة الاسبان والقضاء عليهم بعد هذه الهزيمة الكبرى. ووافاه نعي ولده (نائبه) بمراكش فعجَّل بالعودة الى المغرب وناب عنه بالأندلس قائده «سير بن أبي بكر».

إلحاق الاندلس بدولة المرابطين

لم تكن وقعة الزلَّاقة قاضية على الأذفونش السادس؛ فقد كان جباراً صبوراً. ولم تزده هزيمته يوم الزلَّاقة إلا تحفزاً، فأخذ يجمع أشتاته ويُلمُّ شعثه. واشتعلت الحماسة الدينية في صدور المسيحيين، فتقاطر عليه سيلٌ من الفرسان (فرنجة ونرمان). وبعد عام واحد من الهزيمة أصبح الأذفونش قوياً كما كان. وأخذ يهاجم المدن الاسلامية ويعيد الخطر المسيحي من جديد[1]. وعاد ملوك الطوائف إلى ما كانوا عليه من تشتت ومخاصمة فاضطر ابنُ تاشفين إلى النزول بالأندلس مرّةً ثانية (481 هـ - 1088م). ولم يتجه سلطان المرابطين - هذه المرة - إلى محاربة الاسبان، وإنما اتجه الى إلحاق الأندلس بسلطنته، والقضاء على ملوك الطوائف، الذين لم تزجرهم الوقائع والمواعظ عما تَمَلَّكهم من تحاسد وتباغض؛ فاستولى على غرناطة ومالقة، وعلى قرطبة وقرمونة، وعلى إشبيلية سنة 484. ومن غرائب المعتمد بن عباد[2] (صاحب إشبيلية) أنه استنجد بالأذفونش ضد ابن تاشفين. ولكن لم ينفعه ذلك إذ تغلب عليه

(1) أشباخ - ج 1 ص 94.

(2) نعم كان ذلك من الغرائب لأن ابن عباد حذره ابنه لما أراد الاستنجاد بالمرابطين من أنهم ربما يستولون على ملكه فقال ابن عباد كلمته المشهورة «رعي الجمال ولا رعي الخنازير» فما باله الآن يفضل رعي الخنازير على رعي الجمال!؟.

ابن تاشفين وأسره وأرسله مع عائلته منفياً الى أغمات بالمغرب الأقصى، حيث مات هناك كَمَداً وحسرة. وتابع ابن تاشفين عمله فاستولى على المرية ونواحيها. كما ضمَّ إليه بلنسية وبطليوس والجزائر الشرقية. وهكذا قضى سلطان المرابطين على ملوك الطوائف وأصبحت الأندلس المسلمة ضمن سلطنته، عدا بني هود بسرقسطة الواقعة مملكتهم بين مملكة أرغونة ومملكة قشتالة.

2) ضعف المرابطين ـ اندلاع الحروب الصليبية بالمشرق

لم يسجل المرابطون بعد إخضاع الأندلس إليهم شيئاً ذا أهمية، اللهمّ إلا معركة إقليش (501 هـ 1108م) التي انتصر فيها المرابطون انتصاراً عظيماً على جيوش الأذفونش السادس ولكن لم يصحب هذا الانتصار تقدّمٌ للمرابطين أو ضعفٌ للاسبان[1].

وفي الوقت الذي أخضع فيه المرابطون بلاد الأندلس إليهم اندلعت نيران الحروب الصليبية بالمشرق الاسلامي؛ فكانت هذه الحروب خيرَ مشجع ومساند للملوك الاسبان على محاربة المسلمين بالمغرب الأسلامي، خصوصاً بعد أن أصبح الاذفونش المحارب (ملك أرغونة) صاحبَ السيادة المطلقة على إسبانيا النصرانية، إذ دخلت في تصرفه مملكة (ليون ـ قشتالة) بتزوجه من «أوراكا» وارثة الأذفونش السادس على عرش (ليون ـ قشتالة). وأخذ ملك أرغونة يهاجم دولة بني هود بسرقسطة وأحوازها، فاستولى على تطيلة سنة 503 هـ (1110م).

ورغم الخلاف الذي دب بين الأذفونش المحارب وزوجته (أوراكا) فان المرابطين لم يستطيعوا استغلال هذا الخلاف. وفي سنة 512 هـ (1118م) استولى الأذفونش المحارب على سرقسطة فانهار ثاني معقل إسلامي بعد طليطلة. وأخذ يهدد المرابطين بالأندلس وتعيث جنوده في البلاد. وحاصر مدينة غرناطة ووصل الى أقصى جنوب الأندلس

(1) كان سلطان المرابطين اذ ذاك هو علي بن يوسف فقد مات يوسف بن تاشفين سنة 500 هـ وتولى السلطنة بعده ابنه علي من سنة 500 هـ.

(نواحي مالقة) بدون أن يستطيع المرابطون صده وإرجاعه، بعد أن سرى فيهم الضعف واختلّ أمرهم بالمغرب، وبدأ الموحدون يناوئونهم ويثيرون المعارك ضدهم.

ثورة الأندلس على المرابطين واشتداد الضغط الإسباني

ما إن أحس الأندلسيون بضعف المرابطين حتى شقّوا عصا الطاعة في وجههم واندلعت نيران الثورة في كل مكان. وكان من متزعمي الثورة: أحمد ابن قسي - ابن الرميمى - ابن عياض - مروان بن عبد العزيز. وأغرى ملوك الاسبان هؤلاء الثوار، خصوصاً سيف الدولة بن هود الذي قام ضدّ المرابطين متحالفاً مع مملكة قشتالة.

ولم يستطع ابن غانية (والي المرابطين بالأندلس) التغلب على الثوار لانقطاع المدد عنه من المغرب الأقصى نظراً لاشتغال المرابطين بثورة الموحدين. وحتى ابن غانية لما رأى خطر الموحدين وتفوّقهم على المرابطين، خشي على نفسه وتحالفَ مع قشتالة ضدَّ الموحدين. وازداد خطر الاسبان ودخلت جيوش قشتالة إلى قرطبة وأقيم في المسجد الجامع قدّاس ديني حضره أسقف طليطلة[1].

وخاف مسلمو الأندلس من سوء المصير، فقد أصبحت حالتهم أشبه بآخر عهد ملوك الطوائف: تفرق وتدابر، ضعف وتخاذل، عدوّ متكالب على أخذ البلاد واذلال المسلمين. وهنا اتجهت أنظارهم الى المغرب الأقصى حيث اشتد ساعد سلطان الموحدين (عبد المؤمن بن علي) وقضى على المرابطين، فوفد عليه أعيان الاندلس لتدارك الحالة والأخذ بيد الاسلام.

---

(1) اشباخ. ج 1 ص 120.

3) نزول النرمان بالسواحل الافريقية

عرفت في الفصل الاول أنّ سنة 484 هـ كانت مسجلة لاستسلام صقلية نهائياً لسيادة النرمان[1]. وما كان سقوطها إلا نتيجة حتمية لما ساد أهلهَا من ضعف وافتراق كلمة، ولِما كانت عليه إفريقية (تونس) زمن الدولة الصنهاجية من اختلاف وانحلال، سيّما بعد زحف الهلاليين وبعثهم الرعبَ والخرابَ في البلاد.

لم يكن النرمان بُعَدَاء عن الفكرة الصليبية، فقد كانت لهم مشاركة عظيمة في الحرب الصليبية الاولى، إذ كانت الحملة التي خرجت من جنوب إيطاليا بقيادة «بوهيموند ـ و ـ تنكريد» من هؤلاء النرمان، الذين استولوا على صقلية، وكان انتصارهم على المسلمين فيها يغريهم بمتابعة الغزو والاستيلاء.

وقد حاول «روجار الثاني» تنظيم حملة صليبية لغزو إفريقية بالاتفاق مع إمارة برشلونة لو لم تصدُّهُ ظروف داخلية عن ذلك[2].

وقد سادت العلاقات الطيبة مدة من الزمن بين «روجار الثاني» (ملك صقلية) والصنهاجيين بالمهدية. إلا انه في مدة علي بن يحيى بن تميم (509 ـ 515 هـ) ساءت العلاقات بينهما، وبعث «روجار الثاني» بتهديداته إلى علي بن يحيى. واستعدّ كل منهما لمجابهة الآخر.

وعندما اعتلى الحسن بن علي الصنهاجي عرش المهدية كاتب علي بن يوسف ابن تاشفين في شأن تهديدات صاحب صقلية. وصادف أن هاجم أسطول المرابطين مملكة روجار بقيادة علي بن ميمون فجزم روجار الثاني أن ذلك كان نتيجة لتحريض الحسن الصنهاجي، فعزم على مهاجمته واحتلال بلاده.

---

(1) النرمان (Les Normands) من شبه جزيرة اسكندناوة زحف قسم منهم الى جنوب أروبا في القرن الحادي عشر المسيحي، واستقروا بصقلية وجنوب ايطاليا وكونوا مملكة عرفت باسم (مملكة الصقليتين).

(2) ص 107 من (Hist. A. du Nord — Ch. A. Julien)

سقوط المهدية بيد النرمان

لم تكن الدولة الصنهاجية لما هاجمها النرمان سوى بناء متداعٍ للسقوط؛ فقد استقلّت أطراف البلاد، وساد الأعراب في الداخل، وتكاثرت الثورات والحروب الداخلية: ولم يكن تحت تصرف الملك الصنهاجي إلا المهدية وأحوازها. أما بقية البلاد فَنَهبٌ مقسم، وأشلاء مبعثرة. وهكذا كان الهجوم النرماني على إفريقية في ظروف ملائمة لفوزه ونجاحه.

وزيادة على ذلك فان روجار الثاني انضمّ إليه (جرجير الانطاكي)[1] وهو رجل عاش بالمهدية وخدم الصنهاجيين وتصرف في أموال دولتهم، وعرف ما فيهم من ضعف، فوضع روجار الثاني قيادة حملاته على إفريقية بيد جرجير الأنطاكي، في الوقت الذي اعترف به البابا، ومنحه لقب ملك. ومنذ سنة 517 هـ ابتدأت حملات النرمان على السواحل الافريقية، ففي نفس السنة جاء النرمان في أسطول كبير بقيادة جرجير الانطاكي ونزلوا برأس الديماس (أمام قرية البقالطة قريباً من المهدية) إلا أنه وقع التغلّب عليهم والفتك بهم فرجعوا منهزمين. ثم تتابعت حملات النرمان فاستولوا على جزيرة جربة سنة 529 هـ. وفي سنة 537 هـ خضعت لهم قرقنة وطرابلس الغرب وجيجل بالجزائر. وفي سنة 541 هـ. دخلت قابس تحت طاعة النرمان، وكذلك القرى الساحلية الصغيرة الواقعة بين شرشال وتَنَس من القطر الجزائري. ثم جاء دور صفاقس وسوسة فاستسلمتا بدورهما.

(1) (George d'Antioche) أصله من انطاكية ببلاد الشام هاجر الى افريقية والتحق بتميم ابن المعز الصنهاجي وأصبح صاحب دخله وخرجه وصارت أموال المسلمين تحت يده ويد اقاربه. فلما مات تميم خشي جرجير من ابنه يحيى فكاتب روجار الثاني على اللحاق به فجاءته سفينة الى المهدية على أنها حاملة لرسالة. وبينما الناس في صلاه الجمعة خرج جرجير في زي البحارة والتحق بالسفينة هارباً الى صقلية - عن رحلة التجاني - مخطوط ورقة - 98.

وفي صفر سنة 543 هـ (1148م) أرسى الأسطول النرماني أمام المهدية في ثلاثمائة سفينة. وكانت المهدية خاليةً من الجيش المدافع، إذ كان مشغولاً بحرب قرب تونس، فاضطر الحسن بن علي الى الانسحاب والخروج من المهدية. وبذلك تمت السيادة للنرمان على السواحل الافريقية، وإن بقي آل خراسان في تونس، إلا أنهم كانوا يظهرون الخضوع والطاعة للنرمان[1].

ولم يجد الحسن الصنهاجي وسيلةً ترجعه إلى مملكته وعرشه سوى الالتجاء إلى سلطان الموحدين (عبد المؤمن بن علي)، واستصراخه لانقاذ البلاد من الخطر النصراني.

وهكذا أصبح الموحدون محلّ الرجاء للمغرب الاسلامي، الذي اشتد عليه خطر النصارى في الأندلس والسواحل الافريقية.

4) الموحدون يردون الخطر ويوحدون المغرب الاسلامي

الدولة الموحدية

«اختلّ أمرُ المرابطين بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً، فظهرت المناكر والاستبداد واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور. وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور. وقنع سلطان المرابطين باسم «إمرة المسلمين» وبما يرفع إليه من الخراج. . .»[2].

وكانت هذه الحالة خير مساعدٍ لانبعاث دعوة الموحدين ونجاحها؛ ففي مستهل القرن الخامس الهجري خرج محمد بن تومرت من

(1) المعجب للمراكشي ص 228

(2) المعجب للمراكشي ص 177

السوس ـ بجنوب المغرب الأقصى ـ قاصداً المشرق طلباً للعلم والثقافة، فوصل الى بغداد والتقى بأبي حامد الغزالي. ثم رجع فمرّ على الاسكندرية وتابع سيره الى المغرب واجتمع في مراكش بسلطان المرابطين. وكان ابن تومرت يقوم بالوعظ والارشاد أينما حلّ. وكثيراً ما أخرجه الحكام والولاة من مدنهم خوفاً من تأثير دعوته. ثم ألقت به عصا التسيار في تينمل[1] في جنوب المغرب، أين تقطن قبيلة المصامدة البربرية الشهيرة. وأخذ ابن تومرت يدعو ويعظ حتى كثر أتباعه ومريدوه. ثم ادّعى أنه المهدي المنتظر لخلاص الأمة مما هي فيه من فساد وانحلال أخلاقي. وسمّى أتباعه بالموحدين والمؤمنين. وكان من أعظم أنصاره ومريديه عبد المؤمن بن علي الكومي. ولما اشتد ساعد الموحدين وتكاثرت جموعهم وأنصارهم أعلن محمد بن تومرت «المهدي» الحربَ على المرابطين بقيادة عبد المؤمن بن علي.

في سنة 524 هـ مات ابن تومرت فخلفه عبد المؤمن بن علي، الذي أظهر براعةً عظيمةً في الحرب والتنظيم والدعاية. وشيئاً فشيئاً أخذ ظل المرابطين يتقلص، فاستولى عبد المؤمن بن علي على المغرب الأقصى بقضائه على المرابطين، وعلى المغرب الاوسط بقضائه على بني حماد الصنهاجيين في بجاية. وعظم شأن عبد المؤمن فجاءته البيعة من جهات مختلفة بالأندلس. خصوصاً إشبيلية.

طرد النرمان من السواحل الافريقية

لما انسحب الحسن بن علي الصنهاجي من المهدية واستولى عليها النرمان ذهب مستنجداً بعبد المؤمن بن علي، فالتقى به في المغرب الأوسط. ومازال يغريه على إنقاذ إفريقية من النرمان حتى استجاب لذلك؛ فتوجه آخر سنة 553 هـ إلى تونس في جيش عظيم

(1) بكسر التاء وفتح النون والميم وتشديد اللام. ضبط ابن خلكان.

حسن الترتيب قوي العدة. وفي سنة 554 هـ حاصر مدينة المهدية حصاراً شديداً. ولم يستسلم مَنْ بها من النرمان إلا بعد أكثر من ستة أشهر في عاشر المحرم 555 هـ (1160م)[1] وبذلك خلصت له إفريقية من طرابلس الغرب الى المحيط الاطلسي.

عبور الموحدين الى الاندلس

منذ سنة 540 هـ بعث عبد المؤمن بن علي بقائده أبي، عمر ابن سعيد إلى بلاد الأندلس، بعد أن اعترف أحمد بن قسي بمبادىء الموحدين ودعاهم الى الأندلس، فأخذ الموحدون يتقدمون في الجزيرة. واتحد الاسبان الشماليون بقيادة الأذفونش «قيصر» فاستولوا على المرية سنة 542 هـ (1147م) بينما كان ملك البرتغال[2] الاذفونش هنريكيز «ابن الريق» يحارب المسلمين بالجنوب والغرب، فاستولى على مدينة اشبونة.

واستطاع الموحدون أن يتغلبوا على الاسبان بعد كفاح طويل، وأن يضمُّوا إليهم جميع الأراضي التي استولى عليها النصارى إبان اضطراب الأندلس بعد ضعف المرابطين، إلا مدينة أشبونة فقد استمرّت عند البرتغاليين. وفي 567 هـ (1172م) استولى سلطان الموحدين (يوسف بن عبد المؤمن) على بلنسية عاصمة ابن مردنيش، حليف النصارى. وأصبحت الأندلس الاسلامية كلها تحت سيادة الموحدين. ومات السلطان يوسف بن عبد المؤمن في معركة «شنترين» 580 هـ (1184م) متأثراً بجراحه[3].

---

(1) انظر تاريخ الدولتين للزركشي كيف خضعت لعبد المؤمن أهم مدن إفريقية.

(2) انظر عن البرتغال ملحقات هذا الفصل.

(3) مات عبد المؤمن بن علي سنة 558 هـ فاستولى بعده ابنه يوسف.

السلطان المنصور بفضل الله
(580 — 595)

كان السلطان المنصور شديداً على الاسبان. وقد جرت بينه وبينهم معركة «الأَرَكْ Alarcos» (591 هـ 1195م) التي انتصر فيها الموحدون انتصاراً عظيماً وخسر فيها الاسبان عشرات الآلاف، بين قتيل وأسير. واستطاع المنصور أن يصل إلى طليطلة ويحاصرها. واضطر ملك قشتالة «الأذفونش النبيل» الى عقد هدنة وصلح مع الموحدين. وفي عهد السلطان المنصور بلغ الموحدون غاية مجدهم وعظمتهم في بلاد الأندلس.

بين صلاح الدين الأيوبي
والسلطان أبي يوسف المنصور!

عرفت سابقاً عظمة صلاح الدين الايوبي وما فعله مع الصليبيين في المشرق الاسلامي. وقد رأى صلاح الدين أن يعزز جانبه بقوة الموحدين في المغرب الاسلامي. وبذلك تتضافر الجهود لردّ الخطر الصليبي المشترك. وعلى هذا بعث صلاح الدين إلى السلطان المنصور سنة 580 هـ رسالةً يستنجد به فيها على الافرنج الخارجين عليه بساحل البلاد الشامية. وكان حامل الرسالة شمس الدين بن منقذ، فلم يجبه سلطان الموحدين لذلك: لا لشيء سوى أنه لم يخاطبه بأمير المؤمنين. واكتفى بقوله (الى امير المسلمين)[1] فضاعت فرصة غالية لاتحاد المسلمين ضد الصليبيِّين بالمشرق والمغرب. وكان التشبث بالنعوت والألقاب الجوفاء سبباً في ضياع الصالح العام. بل إن سلطان الموحدين (المنصور) كان يفكّر في غزو مصر واحتلالها[2].

(1) نفح الطيب للمقري ج 1 ص 419 طبع مصر سنة 1367 — 1949

(2) انظر المعجب للمراكشي ص 284

واقعة العقاب وتضعضع الموحدين

لم يستفد الموحدون من معركة «الأَرَك» كثيراً. فقد مات المنصور بعدها بقليل. واشتغل خلفه (أبو عبد الله محمد الناصر) بإخماد الثورات التي اندلعت عقب توليته؛ فلم يتغلب عليها إلا سنة 604 هـ (1208م).

أما الأذفونش فان هزيمته في الأَرَك جعلتـه يتحفز من جديد، ويعقد المحالفات مع ملوك الاسبان، فلما استتبَّ لـه الأمر وعـظمت شوكته اندفع يغزو المناطق الاسلامية في الأندلس، حتى اضطر محمد الناصر سنـة (607 هـ ـ 1211م) الى النزول بـالأندلس قصـد الحدِّ من هجمات الأذفونش النبيل وأحلافه. وارتاع الأذفونش لهذا النزول، وخاف أن تتجدد الزلاّقة أو الأَرَك فسعى ـ جهده ـ ليضمَّ كلمة ملوك الاسبان. وأرسل الى البابا «إينوسان الثالث» مستنجداً به. كما ذهب مطران طليطلة إلى فرنسا داعياً ومثيراً لحماسة المسيحيين. وماجت أوروبـا الغربيـة، فتدفقت سيول الصليبيين من كل ناحية (سيما فرنسا).

وأعلن البابا في روما الصوم ثلاثة أيـام، وصلّى ودعا لانتصـار الصليبيين في الاندلس[1]. وكانت دعـوة صليبية عنيفـة استجاب لهـا نصارى أروبا حتى غصت بهم مدينة طليطلة وضاقت نواحيها؛ فقد كان عدد الوافدين من خارج إسبانيا فقط يقارب المائة ألف. واستولى هذا الجيش العرمرم على قلعـة «رباح» التي سلمها اليهم المسلمون بعد إعطائهم الأمان من الأذفونش. واغتاظ الصليبيُّـون عندما منعهم الأذفونش من قتل المسلمين الذين استسلموا في القلعة وقالوا له: «إنما جئتَ بنا لتفتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين. ما لنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجـه. .»[2] ورجع الكثيـر من هؤلاء الصليبيين الى بلادهـم.

---

(1) أشباخ ج 2 ص 109 والمعجب ص 319.

(2) المعجب ص 321.

وعمل محمد الناصر (سلطان الموحدين) على اجتناب لقاء الجيوش الصليبية، فلما علم برجوع أغلبهم تصدّى لملاقاة الأذفونش. وفي صفر 609 هـ (جويلية 1212م) التقى بالأذفونش في مكان يعرف بالعقاب (Las Navas di Toloza) قرب حصن سالم. ولم يكن جيش الموحدين موحَّدَ القلوب ـ هذه المرة ـ ولا متقدَ الحماسة، فلم تغنه كثرته. ولأول جولة في ميدان القتال انسحب الكثير من الجنود، ودخل الفزع والاضطراب صفوفَ الموحدين، وأعمل فيهم الاسبان السيفَ فجندلوا منهم عشرات الآلاف. أما محمد الناصر فقد فرّ منهزماً ناجياً من الموت.

واهتزت إسبانيا لهذا النصر واعتبرته أخذاً بثأر الزلّاقة والأَرَك. وأُرسلت الهدايا والتحف الى البابا. وجعل من يوم 16 جويلية عيد ظفر الصليب[1]. واستقبل الموحدون ـ بعد العقاب ـ عهد الضعف والتراجع والانحلال؛ فقد مات السلطان محمد الناصر عقب الهزيمة. (شعبان سنة 610 هـ) وبموته بدأ ضعف سلاطين الموحدين ونَجَمت بينهم الفتن.

نعم ساد الاضطراب أيضاً مملكة قشتالة بعد معركة العقاب، إلا أنّ البابا تدخل في النزاع حتى تسود نصارى اسبانيا الوحدةُ، ويمكن القضاء على المسلمين. وما كانت سنة 628 هـ (1230م) حتى تم التلاؤم والوفاق بين ممالك أرغونة والبرتغال وقشتالة، للاجهاز على الاندلس المسلمة واقتسامها.

---

(1) اشباخ ج 2 ـ ص 123.

ملحقاتُ الفصْل الثاني عشر

1) سفارة مسكوت عنها

فيما يلي فقرة من الرسالة التي بعث بها صلاح الدين الأيوبي الى المنصور الموحّدي يطلب منه فيها المساندة بالاسطول الموحدي ضد الصليبيين الواردين من البحر:

«. . . ولما مخض النظر زبده، وأعطى الرأي حقيقة ما عنده ولم نرَ لمكاثرة البحر إلا بحراً من أساطيله المنصورة فان عددها وافٍ، وشطرها كافٍ. ويمكنه ـ ادام الله تمكينه ـ أن يمدّ الشام منه بعدّ كثيف، وحدّ رهيف، ويعهد الى واليه أن يقيم إلى أن يرتبع ويصيف. ويمكنه ان يكفّ شطراً لأسطول طاغية صقلية ليحصر جناح قلوعه أن تطير، ويعقل عباب بحره أن يغير، ويعتقله في جزيرته ويجري إليه قبل جريرته، فيذهب سيّدنا وعقبه بشرف ذكر لا تردّ به المحامد على عقبها، ويقيم على الكفر قيامة يطلع بها شمس النصر من مغربها فاذا نفذ طريقه وعلم الناس بموفده أوردوا وأصدروا في مورده، وشخص المسلم والكافر، هذا ينتظر بشرى البدار، وهذا يستطلع لمن تكون عقبى الدار، وخاف وطأة من يصل من رجال الماء من وصل من رجال النار. ولو بزقت عليهم بازقة غربية لأغرقهم طوفانها، ولو طلعت عليهم جارية بحرية لنعقت فيهم بالشتات غربانها.

وما رأينا لهذه العزمة الا حضرة سيّدنا ـ أدام الله صدق محبة الخير فيه ـ اذ كان منحه عادة في الرضى به وقدرة على الاجابة، ورغبة في

الانابة ولاية لأمر المسلمين، وقياماً لسلطان التوجيه القائم بالموحّدين. . ».

صبح الاعشى للقلقشندي ج: 6 - ص: *529, 530*

2) اختلاف الهمم

كان يوسف بن تاشفين مهتماً بالأندلس قبل أن يدخل إليها. وكان يقول في كل مجلس « . . . إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لمَّا رأينا استيلاءَهم على أكثرها وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتخاذلهم وإيثارهم للراحة.

وإنما همة أحدهم كأس يشربها، وقينة تسمعه، ولهو يقطع به أيامه. ولئن عشت لأعيدَنَّ جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة الى المسلمين. ولأمْلأنَّها عليهم - يعني الروم - خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش. وإنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبّي دعوته . . . ».

(المعجب للمراكشي ص *163*)

3) لمحة عن الحضارة الأندلسية

الزراعة

« . . . كانت إسبانيا الاسلامية في أوجها مشهداً يدعو الى الفخر، فقد أغنى العرب الحياةَ في شبه الجزيرة في نواحٍ كثيرة؛ ففي الزراعة أدخلوا الريّ القائم على أسس علمية، وعدداً من النباتات والأشجار

المثمرة الجديدة مثل الحمضيات والقطن وقصب السكر والأرز. ويعود أكثر الفضل في ازدهار الزراعة في ظل الحكم العربي إلى التغييرات التي أحدثوها في نظام ملكية الأرض.

الصناعة

وتطورت على أيديهم صناعات كثيرة كصناعة النسيج والخزف والورق والحرير والفضة، وغيرها من المعادن. وكان الصوف والحرير ينسجان في قرطبة ومالقة والمرية، والخزف في مالقة وبلنسية، والسلاح في قرطبة وطليطلة، والجلد في قرطبة، والطنافس في بسطة وفلسانة، والورق - والعرب هم الذين جلبوه من الشرق الاقصى - في شاطبة وبلنسية. وكان النسيج - شأنه في أي مكان آخر من بلاد المسلمين - يؤلف الصناعة الرئيسية. ونقرأ عن وجود ثلاثة عشر ألف حائك في قرطبة وحدها.

التجارة

وأنشأت إسبانيا الاسلامية تجارة خارجية واسعة النطاق مع الشرق، فكانت الأساطيل التجارية تخرج من قواعدها في الفرض الأندلسية حاملةً حواصل الأندلس إلى جميع بلدان البحر الأبيض المتوسط. وكانت أسواقها الرئيسية هي بلدان شمال افريقية، وفي مقدمتها مصر والقسطنطينية حيث كان التجار البيزنطيون يشترون الحواصل الاسبانية ويبيعونها في الهند وأواسط آسيا.

الآداب والثقافة

وأسهمت الحضارة الاسبانية العربية بقسط عظيم لا سبيل الى إنكاره في الآداب العربية جملة، كما لها مآثر في كل نوع من فروع التقليد العربي الكلاسيكي الذي هي جزء منه. بل كان ما وصل من التراث اليوناني إلى عرب إسبانيا، وخاصة في زمن عبد الرحمان الثاني، يفوق ما وصل إليهم من مصادر محلية. ووضح التأثير المحلّي في ميدان الشعر الغنائي، فأوجد فيه عرب إسبانيا أشكالاً جديدة[1] لم تكن معروفة لدى المسلمين في الشرق، وكان لها تأثير كبير في أشعار اسبانيا النصرانية الأولى، وربما أيضاً في آداب بلدان أروبا الغربية.

البناء

ولعلّ أبرز ما ابتدعته اسبانيا الاسلامية هو في الفن وهندسة البناء اللذين احتذيا في الأساس النماذج العربية والبيزنطية الشائعة في الشرق الأدنى، ثم تطورا تحت تأثير المؤثرات المحلية إلى شيء جديد ذاتي أصيل. ويعين لنا جامع قرطبة المشهور[2]، الذي وضع أساسه عبد الرحمان الأول، نقطة البداية في طراز إسباني عربي جديد قدر له فيما بعد أن ينتج روائع مثل برج «لاخيرالدا» والقصر في إشبيلية، والحمراء في غرناطة...».

(ـ العرب في التاريخ ـ برنارد لويس 180 — 81 — 82
تعريب: نبيه أمين فارس، محمود يوسف زايد)

---

(1) المراد بذلك الموشحات.

(2) انظر صفحة 208

4) مملكة البرتغال

يشمل شبه جزيرة ايبريا اليوم دولتين معروفتين هما إسبانيا والبرتغال. ولم تكن مملكة البرتغال قائمة الذات منذ قديم الزمان. وإنما كانت تمثل إقليماً خاصاً من أقاليم شبه الجزيرة عُرف في التاريخ القديم باسم لوزيتانيا (Lusitanie). وزمن الحكم الاسلامي كان هذا الاقليم إحدى الولايات البارزة، ومن أهم مراكزه مدينة ماردة. وقامت مملكة بني الأفطس في نواحي هذا القسم من شبه الجزيرة. وعند التراجع الاسلامي أخذ الاسبان يستولون على هذا الاقليم فيما يستولون عليه من غرب شبه الجزيرة. وأصبح إحدى ولايات مملكة قشتالة. وأول من جعل هذه النواحي ولاية مستقلة هو فرديناند الاول تحت اسم «البرتغال» اشتقاقاً من مدينة ساحلية تسمى بورتو (Porto).

وتعاقبت الظروف واختلف الولاة الاسبان على هذه الولاية. وكان أهلها ينزعون الى الاستقلال عن مملكة قشتالة إلى النصف الأول من القرن الثاني عشر المسيحي؛ ففي زمن الأذفونش السادس اقطعت ولاية البرتغال الى «هنري الشاب» ولأبنائه من بعده، وكان صهراً لفرديناند المتزوج من أم هنري المذكور. وجعل عاصمته «قلمرية» فلما تولّى ابنه الأذفونش الاول (ابن الريق في المصادر العربية) أعلن استقلاله سنة 1139م وأزال تبعيته لقشتالة. وأطلق عليه لقب ملك وأصبحت البرتغال منذ السنة المذكورة مملكة مستقلة إلى أن استقرت حدودها على الصورة التي هي عليها الآن.

وقد لعبت مملكة البرتغال في فجر العصور الحديثة دوراً رئيسياً في الاكتشافات البحرية والاستعمارية.

الفصل الثالث عشر

من ضعف الموحّدين إلى سقوط غرناطة

1) ضعف الموحدين وانقراض سلطنتهم
2) تقهقر المسلمين بالاندلس وانحصارهم في مملكة غرناطة
3) سقوط غرناطة ومحنة التنصير والجلاء.



1) ضعف الموحدين

تولّى سلطنة الموحدين بعد محمد الناصر ابنه يوسف «المستنصر بالله»، الذي كان ابن عشر سنوات. واستُغِلَّ صغر سنه من طرف رجال الدولة والقواد وأصحاب المطامع، فكثر الارتشاء والاستبداد، واندلعت نيران الفتن في السلطنة الموحدية سيما في الأندلس. ومات[1] المستنصر في العشرين من عمره، بدون عقب. وبموته انشق بيت عبد المؤمن بن علي وتفرق شمله؛ فقد بايع المغاربة عبدَ العزيز ابن يوسف أبي يعقوب الاول، وثار ضده بالأندلس أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور وتسمّى بالعادل، فدخل بذلك بنو عبد المؤمن في حروب أهلية كانت القاضية عليهم.

اقتسام مملكة الموحدين

أ) في تونس والجزائر.

كانت إفريقية (تونس) تابعة للموحدين تحت ولاية بني حفص؛ فلما تولّى أبو زكرياء الحفصي هذه الولاية سنة 626 هـ، ورأى ما أصبح

(1) مات سنة 620 هـ بطعنة من ثور كان يلاعبه. وكان المستنصر لا شغل له إلاّ اللهو واللعب.

عليه الموحدون من ضعف وتقهقر، أعلن استقلاله عن الموحدين وقطع عنهم الخطبة. وبذلك انفصلت تونس عن الموحدين، وتأسست بها الدولة الحفصية.

وفي الجزائر (المغرب الاوسط) استطاع بنو عبد الوادي (بنو زيان) أن يكوّنوا إمارة خاضعة للموحدين على يد زعيمهم جابر بن يوسف. وفي سنة 633 هـ تولّى هذه الامارة «يغموراسن» بن زيان فأعلن هو أيضاً استقلاله. وجعل عاصمته مدينة تلمسان.

ب) في المغرب الاقصى

كان بنو مرين من بـدَاة البربر يقيمون في جهات بسكرة من البلاد الجزائرية. فلما هجم بنو هلال على إفريقية هاجر بنو مرين من هنالك، وألقت بهم عصا التّسيار بجنوب المغرب الأقصى. وكان دخولهم إليه (سنة 610هـ) بزعامة كبيرهم «عبد الحق بن محيو» في الوقت الذي كان بداية لضعف الموحدين وتقهقرهم. ومنذ سنة 613 هـ شرع بنو مرين في مهاجمة الموحدين، فلما كانت سنة 642 هـ تولى أمر بني مرين «أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق» فاستولى على مدينة فاس وبـايع أبـا زكريـاء الحفصي صاحب تونس. وعظم شأن بني مرين لما تولّى أمرهم يعقوب ابن عبد الحق، فاستولى على مراكش سنة 668 هـ وتغلب على آخر سلطان للموحدين، وقضى عليهم نهائياً.

ج) في الاندلس

كان من المتحتم أن تثور الأندلس ضدَّ الموحدين عندما انتابهم الضعف ونالهم الانقسام. وكانت الممالك النصرانية تترقب بفارغ صبر ظهورَ الاضطراب في الأندلس، خصوصاً قشتالة وأرغونة؛ فكانتا تحرضان على الثـورة وتغريـان على الانتقاض. ونجمت قـرونُ الفتنة وعـادت الأنـدلس من جديـد الى الانقسـام والتشتت. وكـان من أبـرز هؤلاء الثوار ـ أبو عبد الله محمد بن يوسف (من سلالـة بني هود أصحـاب سرقسطة) فاستولى على مرسية وجيّان وقرطبة وماردة وبطليوس. وعظم

شأن ابن هود حتى أن المأمون[1] سلطان الموحدين تحالف مع الأسبان ضده.

وثار بشرق الاندلس زيان بن أبي الحملات بن مردنيش. واتخذ مدينة بلنسية عاصمةً له. ومن هؤلاء الثوار ايضاً محمد[2] بن الأحمر الذي اصبح له فيما بعد شأن بتأسيسه مملكة غرناطة.

2) التقهقر الاسلامي في الاندلس.

حركة الاسترجاع

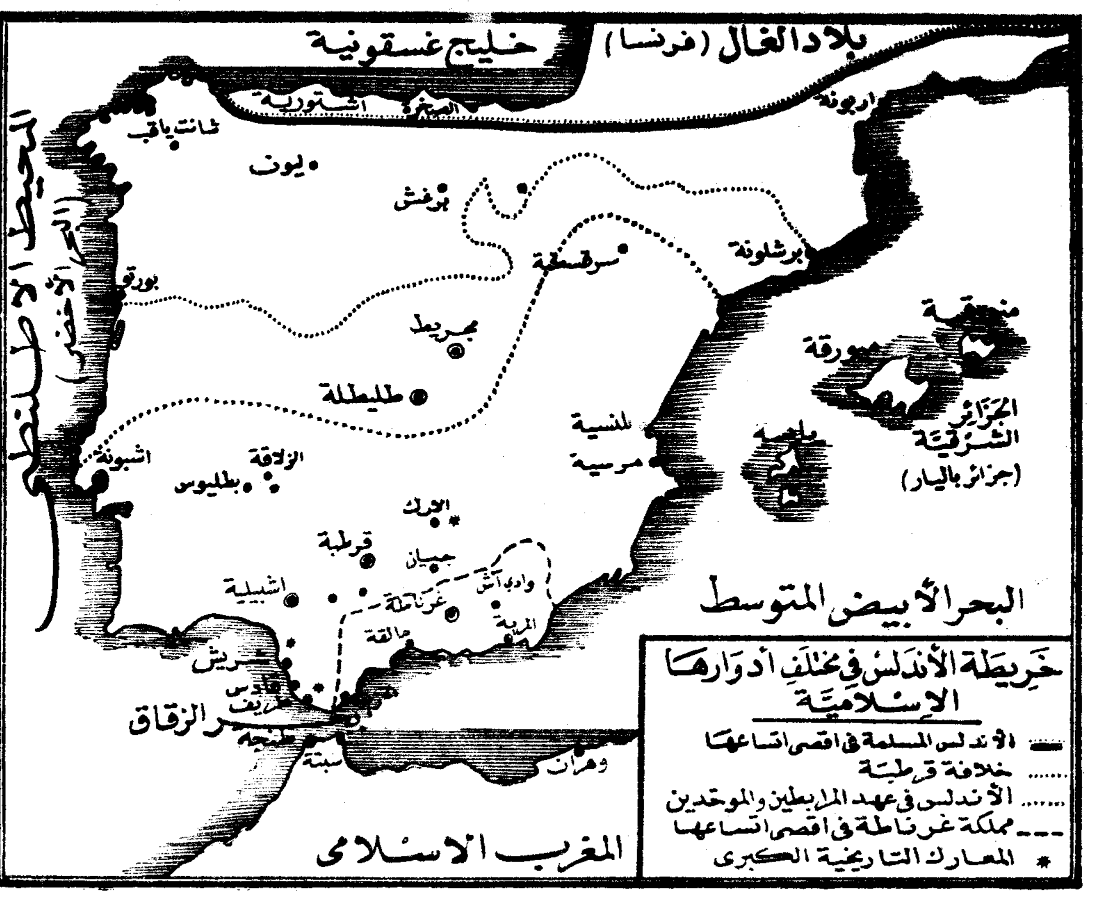
أصبحت كلمة «الاسترجاع Reconquista» ذات مدلول تاريخي خاص في تاريخ الاندلس الاسلامية؛ فقد عمل الاسبان منذ الفتح الاسلامي على استرجاع الاراضي الاسبانية التي فتحها المسلمون. إلا أن هذه الحركة لم تأت بنتائجها الحاسمة إلا منذ عصر ملوك الطوائف. وازدادت هذه الحركة استفحالاً بعد اضمحلال الموحدين، وعدم وجود دولة قوية في المغرب الاسلامي تستطيع إنقاذ الأندلس من الخطر، كما فعل المرابطون والموحدون من قبل.

سقوط بلنسية - قرطبة - إشبيلية

في هذا الوقت العصيب على المسلمين بالأندلس اتحدت نوايا

(1) المأمون هو أخو العادل الذي قتل في ثورة مراكش سنة 624 هـ فأعلن المأمون الخلافة وهو بإشبيلية، إلا أن المغاربة بايعوا المعتصم بن الناصر فعبر المأمون الى مراكش وتغلب على المعتصم ومات المأمون سنة 629 هـ.

(2) هو محمد بن يوسف بن نصر، يرجع نسبه الى قبيلة الخزرج التي كانت تساكن الأوس بالمدينة المنورة.



الحروب الصليبية - خريطة عدد (9)

ممالك إسبانيا النصرانية على مهاجمة الإمارات الاسلامية؛ فقد جعل «خايم الاول» ملك أرغونة هدفه إمارة بلنسية، فأخذ يكيل لها الضربات ويشن عليها الغارات حتى استسلمت مدينة بلنسية سنة 636 هـ (1238م) رغم محاولة إنجادها من أبي زكرياء الحفصي[1]. وتتابع سقوط مدن هذه الامارة الواحدة بعد الأخرى. وانتهى أمرها بطرد جميع المسلمين الموجودين هنالك. فالتجأوا الى غرناطة بجنوب الأندلس.

اما «فرديناند الثالث» ملك قشتالة فكان هدفه الوسط والجنوب حيث يوجد محمد بن هود في غرناطة وقرطبة، ومحمد بن الأحمر في جيّان ووادي آش. أما إشبيلية فكانت تحت سيادة بعض أمراء الموحدين. وابتدأ فرديناند بقرطبة. وبعد حصار طويل بدون مدد من الخارج استسلمت عاصمة بني أمية الى ملك قشتالة سنة 633 هـ (1236م) وخرج أهلها فارين إلى الجنوب. ولما مات محمد ابن هود ضمَّ محمد بن الأحمر إليه مدينة غرناطة وما حولها في جنوب الجزيرة، وعظم نفوذه في تلك النواحي، وأصبح ملجأ للمسلمين الفارّين من مطاردة الاسبان. وخشي فرديناند من نفوذ ابن الأحمر وتجمُّع الهاربين عنده؛ فبادر بالتوجه إليه وتسديد ضرباته نحوه. وكان حرص ابن الأحمر على سلامته وتكوين مملكته دافعاً به الى الاتفاق مع فرديناند ومصالحته. وتمّ ذلك سنة 643 هـ (1246م) على أن يسلِّم الى فرديناند مدينة جيّان، وأن يعترف بسيادته العليا مقابل الابقاء على مملكته. بل الأنكي من ذلك دخول ابن الأحمر مع فرديناند في حلف ضد بقية الأمراء المسلمين بالاندلس.

وعلى أساس هذا التحالف المخجل اتجه فرديناند بهجماته الى إشبيلية وقد تمثلت في هجومه وحدةُ ملوك إسبانيا ضد المسلمين، إذ كان في جيشه وليًا عهد البرتغال وأرغونة. وحاصرت الجيوش الاسبانية مدينة إشبيلية. واستمر الحصار ثمانية عشر شهراً أبدى فيها المسلمون ضروباً من الصبر والشجاعة دون مدد وارد، ولا إعانة مساعد، مما جعل صبرهم ينتهي بعد هذا الثبات الطويل، فاستسلمت المدينة سنة 646 هـ (1248م) وخرج من فيها من المسلمين ملء العين دمعاً والقلب

(1) ارجع الى ص 134 -144

حسرة. وتابع فرديناند زحفه حتى وصل الى قادس.

أما مملكة البرتغال فكان نصيبها الاراضي الاسلامية التي بقيت بغرب الأندلس. وبذلك ضاع غالب الأندلس من المسلمين. ولم تبق إلا غرناطة وما حولها تحت سيادة محمد بن الأحمر.

مملكة غرناطة[1]

لا تمثل مملكة غرناطة سوى رقعة ساحلية ضيقة بالجنوب الشرقي لشبه جزيرة ايبيريا، تمتد من ألبيرة شرقاً إلى رُندة غرباً، وهي محصورة بين الوادي الكبير والبحر الأبيض المتوسط في مسافة يبلغ عرضها مرحلة واحدة. وتتمثل أهمية هذه المملكة الصغيرة في اعتبارها امتداداً لوجود الاسلام بالأندلس من ناحية، ولكونها أصبحت ملجأ للمسلمين الفارّين من مختلف النواحي التي استولى عليها نصارى الإسبان. كما أنها ـ من ناحية أخرى ـ تعتبر مظهراً ممتازاً من مظاهر الحضارة الاسلامية في الأندلس، إذ التجأ اليها غالب مهرة المسلمين وحذّاقهم في مختلف الفنون والصناعات.

علاقاتها الخارجية

استمرّت هذه المملكة قائمةَ الذات أكثر من قرنين ونصف 635 ـ 897 هـ واختلفت علاقاتها مع الممالك النصرانية. إلا أنها كانت تدين ـ غالباً ـ بالطاعة لمملكة قشتالة. وكانت سياسة سلاطين هذه المملكة الاستنجاد بملوك المغرب ـ سيما سلطنة بني مرين بالمغرب الأقصى ـ كلما داهمهم الخطر الاسباني، رغم ان بني الأحمر كانوا

(1) انظر الخريطة عدد 9

شديدي الحذر والخوف من استيلاء بني مرين عليهم. وكان من أعظم سلاطين بني مرين اتصالاً بالاندلس السلطان المنصور الذي عبر الى الأندلس أربع مرات ووصلت جيوشه الى مدينة طليطلة، وأجبر ملك قشتالة على الرضوخ إلى الصلح، والتعهد بعدم التعرض للمسلمين. وكان ذلك سنة 684 هـ.

وفي عهد سلطان غرناطة «ابي الحجاج يوسف» اتحدت ممالك اسبانيا[1] الثلاثة على مهاجمة مملكة غرناطة، فاستنجد أبو الحجاج بسلطان بني مرين «ابي الحسن» فعبر هذا الأخير الى الاندلس بجيوش عظيمة، ولكن انهزم المسلمون هزيمة كبيرة استولى فيها النصارى على حريم السلطان المريني الذي فرّ هارباً الى المغرب. واعتصم أبو الحجاج يوسف في حصونه. واستولى الاسبان على الجزيرة الخضراء وطريف. وكانت هذه المعركة من أشد ما نال المسلمين بعد وقعة العقاب. جرت هذه المعركة سنة 771هـ (1340م) واشتهرت باسم معركة طريف.

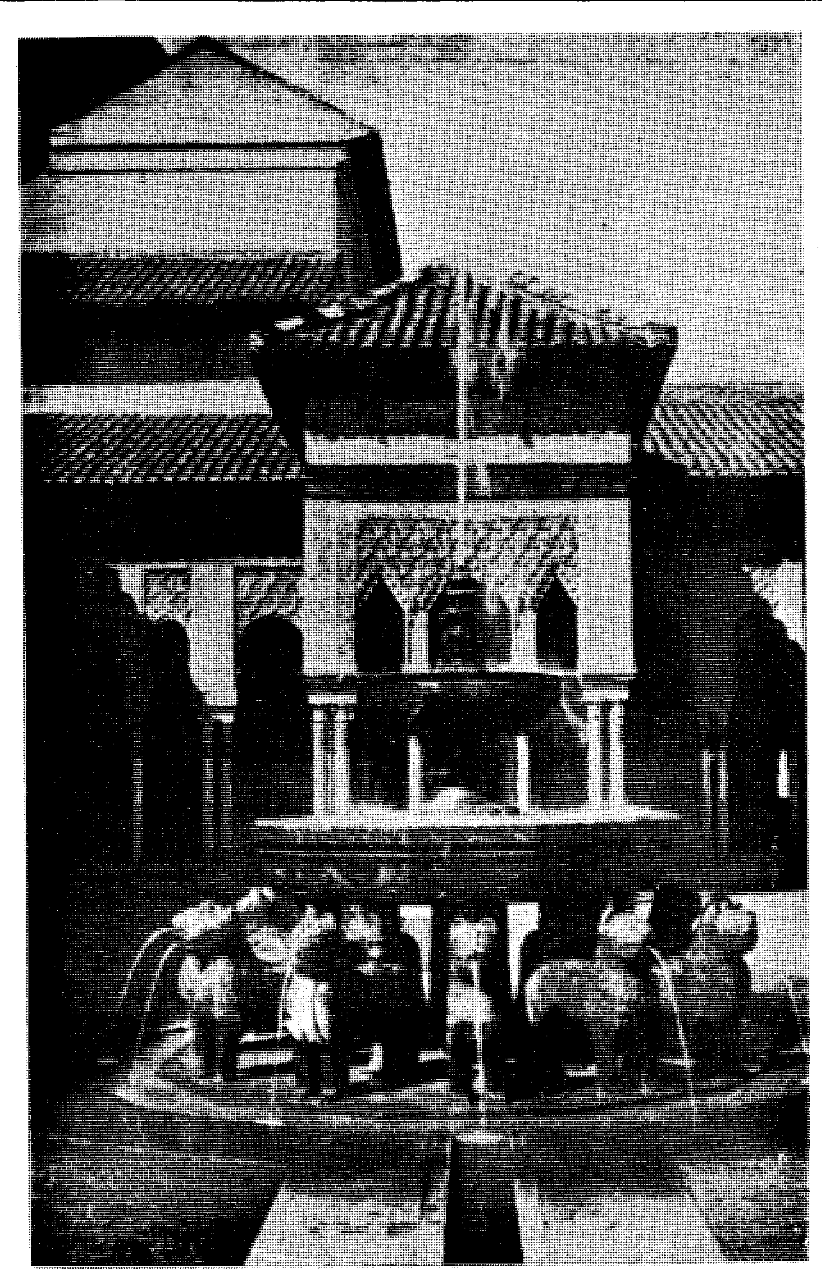
وفي النصف الثاني من القرن الثامن الهجري دخلت سلطنة بني مرين في الفوضى والاضطراب، فقل المدد الذي كانوا يرسلونه نجدة الى مسلمي الأندلس، وهو وإن لم يكن مدداً فعالاً إلا أنه على كل حال كان يحدّ من خطر الاسبان نوعاً ما. وبانقطاع ذلك المدد جابهت مملكة غرناطة الخطر الاسباني بمفردها، واستمرت في كفاحها إلى أن تسرب اليها الضعف والاضطراب.

3) سقوط غرناطة، التنصير والجلاء

ضعف بني الأحمر

بدأ ضعف سلطنة غرناطة بموت السلطان يوسف بن الأحمر

(1) وقد بارك البابا هذا الاتحاد ضد المسلمين.



قصر «الحمراء» بغرناطة

يمثل قمة مجد الفن الاسلامي بالاندلس

(827 هـ 1424م) وكانت مملكة قشتالة تذكي نيران الفتن والدسائس والمنافسات بين بني الأحمر؛ فكانوا يتبعون هواهم، وينخدعون للباطل، ويدوسون المصلحة العامة سعياً وراء مطامعهم وأغراضهم الزائلة. وازداد الضيق على مملكة غرناطة باستيلاء قشتالة على جبل طارق 868 هـ (1462م) وهو معبر النجدات الواردة من المغرب الأقصى.

وسنة 871 هـ (1466م) تولّى سلطنة غرناطة علي أبو الحسن «الغالب بالله» فثار ضده أخوه أبو عبد الله محمد «الزغل»، حليف هنري الرابع ملك قشتالة. واستمرت الحروب والمنازعات بين الأخوين حتى استقرّ بهما الأمر على اقتسام هذه المملكة الصغيرة: غرناطة ونواحيها للغالب بالله، ومالقة ونواحيها لأبي عبد الله الزغل. وهكذا تعاون الاخوان على زيادة الضعف والاختلال؛ ولم يعلما بأن ذلك كان تمهيداً للحدث الأعظم على الاسلام بالأندلس.

اتحاد قشتالة وارغونة

كان لحالة الاسبان النصرانية أثر كبير على مجرى الحوادث في الأندلس المسلمة؛ ففي زمن اضطراب هذه الممالك أو ضعفها تقل هجمات الاسبان ويخف الضغط على المسلمين. أما إذا سادها الاتحاد فان ضغطها يشتد وخطرها يعظم.

ولما مات هنري الرابع، ملك قشتالة، ورثت اخته «ايزابيلا» عرش المملكة. وكانت، قد تزوجت قبل ذلك بفرديناند (ابن عمها) ولي عهد مملكة ارغونة. واشترطت عليه في عقد هذا الزواج أن يتعهد بمحاربة المسلمين؛ حتى إذا كانت سنة 884 هـ (1479م) مات «يوحنا الثاني» ملك أرغونة فأصبح فرديناند ملكاً على أرغونة وقشتالة معاً. وكان هذا من أعظم الأحداث التي أصيب بها المسلمون في الاندلس، إذ أصبحوا هدفاً لمملكة قوية متحدة بُنِي اتحادها على محاربة المسلمين،

وإخراجهم من الأندلس، خصوصاً بعد أن أصبحوا في شقاق واضطراب، وانقطع المدد عنهم بزوال دولة بني مرين من المغرب الاقصى واستيلاء بني وطاس[1] الذين لم يكونوا من القوة التي تمكنهم من ان ينجدوا المسلمين بالاندلس وينقذوهم من الخطر.

تخاذل بني الأحمر

استهدفت غرناطة للخطر الماحق بعد اتحاد قشتالة وأرغونة. وقد اصبحت في أُتُون من الفوضى من جرّاء سلوك السلطان أبي الحسن «الغالب الله» الذي حِيكَتْ في قصره الدسائس والمؤامرات، خصوصاً بين زوجتيه عائشة الحرة وثريا الاسبانية؛ فقد كانت ولاية العهد لأبي عبد الله محمد (ابن عائشة) فعملت ثريا على إقصاء عائشة وولديها وزجت بهم في ظلمات السجن حتى تخلُصَ ولاية العهد لابنها. واستطاعت عائشة الحرة أن تفلت من السجن مع ولديها، وأن يتزعم ولدها الأكبر (ابو عبد الله محمد) مقاومة والده المشغول بمحاربة قشتالة. وأمكن لهذا الولد العاقُ أن يتغلب على أبيه، ويستولي على غرناطة سنة 887 هـ. أما أبوه فقد التجأ الى مالقة عند أخيه أبي عبد الله الزغل.

ويجزم «فرديناند» أن أخطر أعدائه هو أبو عبد الله الزغل. ولهذا اتجه بقواته صوب مالقة. إلّا أن الزغل استطاع أن يثبت أمام هجمات فرديناند الخامس رغم الخسائر الفادحة. وحاول أبو عبد الله محمد محاربة القشتاليين إلا أنهم أسروه سنة (888 هـ 1483م) واحتفظ به فرديناند رغم الفداء الكبير الذي بذل له. وذلك ليضرب به الضربة القاضية؛ فقد جهزه لمحاربة عمه الزغل بقوات عديدة واستطاع أن يستولي على غرناطة سنة 892 هـ (1487م) في السنة التي استولى فيها

(1) بنو وطاس فرع من بني مرين، لكنهم ليسوا من أبناء عبد الحق بن محيو. ابتدأت دولتهم سنة 876 هـ على يد أبي عبد الله محمد الشيخ واستمرت الى سنة 961 هـ.

فرديناند على مالقة[1] بعد أن ثبت أهلها للحصار حتى أكلوا الجلود وورق الشجر.

وأخذت مدن الزغل تسقط الواحدة بعد الأخرى. وأبدى الزغل وصحبه تفانياً عجيباً في المقاومة والثبات، وأوقعوا بالاسبان عديدَ الوقعات وابدوا في مقاومة الحصار ما يفوق الوصف خصوصاً، في بسطة ومالقة. ولكن طول الأمد وقلة المدد أنهيا هذه المقاومة باستسلام الزغل[2] إلى فرديناند سنة (895 هـ 1490م) بينما كان أبـو عبد الله محمـد صاحب غـرناطـة في هدنة ـ ويا لها من هدنة! ـ مع ملك قشتالة!.

سقوط غرناطة

بقي أبو عبد الله محمد، صاحب غرناطة، الامير المسلم الوحيد بالأندلس. وقد سعى بتصرفاته الشاذة الى أن يكون بطل المأساة المبكية (مأساة نهاية الاسلام بالاندلس). ولم يكن فرديناند الخامس يهادنه أو يساعده إلا ليستعين به على إخضاع عدوه الألد ابي عبد الله الزغل. ولهذا فما إن استراح ملك إسبانيا منه حتى طلب من أبي عبد الله تسليم مدينة غرناطة. وارتاع آخر بني نصر، وأيقن بأنه سعى إلى حتفه بظلفه؛ فصمّم على الامتناع، ومن ورائه الغرناطيون فاستعدوا للدفاع. وأقبل فرديناند بجيوشه قاصداً غرناطة ولكنه وجد مقاومة جبارة من هؤلاء الذين أصبحوا في دائرة ضيقة لا مخرج لهم منها إلا إلى الفناء أو المذلة الدائمة. وأعاد الاسبان الكرة في جيش لجب وأحكموا الحصار على الغرناطيين وأشاعوا الخراب والعيث في جنانها الغناء فأصبحت خراباً. وصمد المسلمون وصبـروا. ولكن طول الحصـار، ونفاد الـذخيرة، وتفشي الجوع والمرض، أجبرهم كل ذلك على الاستسلام والخضوع

(1) لما بلغ الى علم فرديناند أن سلطان العثمانيين وسلطان المماليك بمصر عزما على نجدة الاندلس بادر فرديناند باحتلال المواني الاندلسية، وأهمها مالقة، للحيلولة دون أي مدد يرد إلى الاندلس.

(2) كانت نهايته أن أقطعه فرديناند أراضي بجبال البشرات. إلا أنه بعد مدة استأذن في العبور الى المغرب فخرج في جمع كبير الى تلمسان حيث مات هنالك.

لارادة الطاغية فرديناند الكاثوليكي [1]. واتَّفِق أن يكون تسليم غرناطة في 2 ربيع الأول 897 هـ (2 جانفي 1492م).

وجاء فرديناند وايزابيلا الكاثولكيان الى غرناطة. ودخلتها الجيوش الاسبانية في مظهر صليبي رهيب. وغادر أبو عبد اللهمحمد عاصمته غرناطة الى الأبد[2]. وانقرض بذلك آخر مظهر للسيادة الاسلامية بالأندلس، بعد ثمانية قرون منذ فتَحها طارق بن زياد وموسى بن نصير.

كانت وثيقة تسليم غرناطة تشتمل على ـ 67 ـ[3] شرطاً تضمن احترام المسلمين في دينهم وأملاكهم وحريتهم وأمنهم وسلامتهم، والسماح بالهجرة لمن أراد الخروج الى الديار الاسلامية. وكان من جملة شروط هذه الوثيقة أن يصادق البابا على جميع هذه الشروط، ومن جملتها أن يترقب المسلمون سبعين يوماً عسى أن تأتيهم نجدة أو مدد من الخارج. ولكن ـ كما تقدم ـ لم تكن هنالك دولة إسلامية قوية أو ذات غيرة وحمية تستطيع إنقاذ الغرناطيين من سوء المصير. هذا زيادة على إحكام الاسبان للحصار البحري حتى لا يتسرّب أي مدد أو أية معونة لمسلمي غرناطة.

التنصير [4]

لم يتظاهر الاسبان في أول الامر بالشدة بعد استسلام غرناطة.

1) كان من ابرز فرسان هذا العهد البطل المغوار موسى بن ابي الغسان، فقد كان يمثل المقاومة في أروع مظاهرها. وأبى الخضوع والاستسلام، فمات شهيداً بعد ان صرع مئات من القشتاليين.

2) سكن اولاً في جبال البشرات ثم سمح له بالعبور الى المغرب الاقصى، فاستقر بمدينة فاس الى ان توفي سنة 940 هـ ويذكر المقري انه في سنة 1037 كان اولاده يأخذون من اوقاف الفقراء ويعدون من جملة الشحاذين ـ نفح الطيب ج 6 ـ ص 281.

3) انظر ملخص هذه الشروط في آخر بني سراج نشكيب ارسلان من ص 333 ونفح الطيب للمقري ـ ج ـ 6 ـ ص 277.

4) انظر نهاية الاسلام في الاندلس لعبد الله عنان، وآخر بني سراج لشكيب ارسلان، وحاضر العالم الاسلامي ج 2 ـ وفيه مصير الاندلسيين للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

وكان لشرط اختيار الهجرة أن رحل الكثير من المسلمين إلى الشواطىء الافريقية فراراً بدينهم وعزتهم. وكانت إسبانيا في أشد الحاجة إلى بقاء المسلمين: ورثة الحضارة وعصارة الفنون المختلفة التي عاشتها الأندلس طوال القرون الاسلامية العديدة.

ولكن - تبعاً للتعصب الديني والحقد الجنسي، واستجابة لتحريض الكنيسة، خصوصاً مساعي الكردينال «كِيمناس»[1] لدى الملكة ايزابيلا - نُقِضت شروط الأمان التي مُنِحت للمسلمين مقابل تسليم غرناطة، فبدأت الدعوة إلى تنصير المسلمين بطريق الوعظ والاختيار. ثم كانت الطامة الكبرى 905 هـ (1499م) عندما صدر قانون بتنصير المسلمين جبراً وتحريم إقامة شعائرهم الدينية، وإغلاق المساجد. وعمد الكردينال «كيمناس» الى الكتب الاسلامية الموجودة بغرناطة، وأحرق منها مئات الآلاف، ولم يبق منها إلا ثلاثمائة كتاب في الطب.

وفي 907 هـ (1501م) منع وجود الاسلام والمسلمين باسبانيا، إذ أصبح وجودهم يعتبر خطراً على الدولة الكاثوليكية، ومنعوا من حمل السلاح بأي وجه كان. وكان نتيجة لهذا الضغط الجديد أن ثار المسلمون بجبال البشرات فاستعمل الاسبان ضدهم كل وسيلة لقمع الثورة. واستغاث الثوار بالسلطان العثماني[2] «بايزيد الثاني» ولكنه كان مشغولاً بالاستعداد لغزو سلطنة المماليك بمصر والشام!!.

وفي عهد الامبراطور «شارلكان»[3] صدر قانون باكراه «الموريسكو»[4] على ترك ألبستهم الخاصة واتخاذ الزي الاسباني، ومُنِعوا

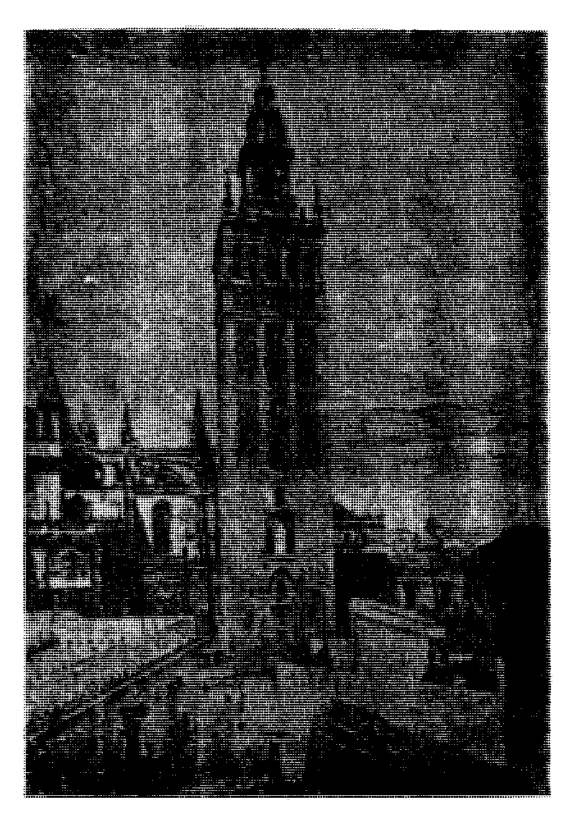
---

(1) «Ximénès de Cinseros»

(2) انظر قصيدة الاستغاثة ومقدمتها بازهار الرياض للمقري ج 1 ص 108 - طبع مصر 1939م.

(3) مات فرديناند الخامس 1516م فخلفه شارلكان الى 1555م ثم اعتزل الحياة في دير. وتولى بعده فيليب الثاني الى سنة 1598م -

(4) يطلق لفظ الموريسكو على العرب المتنصرين وكذلك لفظ «المدجنون» على المسلمين الذين أكرهوا على التنصير وبقوا على عقيدتهم في خفاء..



«لاخيرالدا» مسجد إشبيلية، وقد حول الى كنيسة كسائر المساجد بالأندلس

من الاغتسال ودخول الحمامات، وحظر عليهم التكلم بالعربية، كما أوجبوا عليهم تبديل أسمائهم العربية باسماء إسبانية. ثم حولت جميع المساجد الى كنائس مسيحية في عهد فيليب الثاني، وتنصير من بقي على دينه من المسلمين أو أن يخرج من إسبانيا في مدة معينة، وإلا كان مصيره العبودية طول الحياة.

وكان هذا الضغط الجديد موجباً لاندلاع ثورة أخرى في جبال البشرات من جانب الموريسكو 976 هـ (1568م) بقيادة محمد بن أمية «اسمه الاسباني هرناندو دوفلور» وأمكنه أن يضم اليه جهات البشرات. واستفحل أمره وعظم خطره. ولكن أعان الاسبان على تدبير مؤامرة ضده فاغتيل من بعض اتباعه؛ فتولى بعده «عبد الله بن أبوه» إلا أن اتجاه إسبانيا الكلّي إلى هذه الثورات، وعدم وصول أي مدد الى الموريسكو

جعل الاسبان يتغلبون عليهم، مستعملين معهم كل وسيلة للتعذيب والتنكيل والارهاق؛ فقضوا على الثورة بعد طول كفاح. وكانت تلك آخر محاولات الموريسكو للتخلص من النير الاسباني. ولم يكن الموريسكو بجهات بلنسية اقل انتقاضاً وثورة من إخوانهم في جبال البشرات.

النفي والجلاء

وعندما اعتلى عرش إسبانيا «فيليب الثالث» جرت في عهده المأساة الأخيرة لبقايا المسلمين (الموريسكو) في الاندلس؛ فقد كانت الاضطهادات المتواصلة تجبر المتنصرين على الثورات وتتابُعِها. وكانت الكنيسة دائمةَ التحريض على الفتك بهم وعدم الاغترار بادعائهم النصرانية. ومازال أسقفا بلنسية وطليطلة يثيران غضب فيليب الثالث ضدهم حتى استجاب لذلك. وعُقِد مجلس ديني كبير باشارة البابا. ثم تعددت المجالس حتى صدر أمر النفي والجلاء في 22 سبتمبر 1609م (1017 هـ) وحشدت لهم السفن من مختلف الجهات فذهب البعض الى فرنسا وايطاليا (شرط الاستمرار على الكاثوليكية) وذهب البعض الآخر الى مصر والآستانة. ولكن الأغلبية الساحقة منهم نقلوا الى المغرب العربي، خصوصاً[1] البلاد التونسية. وكان عدداً عظيماً جداً هؤلاء الذين أصابهم النفي والجلاء، أوصله بعضهم الى عدة ملايين[2] هلك منهم أثناء عملية النفي ما يفوق المائة ألف بين أسير وقتيل. وعلى هذه الصورة المرعبة انتهى أمر المسلمين بالأندلس. وما جنت اسبانيا ـ بعملها هذا ـ على الموريسكو فقط بل جنت على نفسها أيضاً أعظم جناية. يقول غوستاف لبون «. . . ومما يرثى له أن حرمت إسبانيا

(1) انظر ملحقات الفصل

(2) رجح عدد من المؤرخين أن عدد الذين وقع نفيهم يدور بين الخمسمائة والستمائة الف. اما مجموع الذين خرجوا منذ سقوط بلنسية وقرطبة فيبلغ عدده الثلاثة ملايين. وكان يهود الاندلس عرضة لهذا التنكيل والجلاء فهاجر كثير منهم إلى أقطار الشمال الافريقي.

عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية. ثم رأت محاكم التفتيش أن تبيد كلّ نصراني ترى فيه شيئاً من النباهة والفضل. وقد كان من نتائج تلك المظالم المزدوجة أن هبطت اسبانيا الى أسفل دركات الانحطاط، بعد أن بلغت في أيام العرب قمة المجد، وأن انهار كل ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب. . . . ».

(ص 292 ـ حضارة العرب ـ غوستاف لبون)

ملحقاتُ الفصْل الثالث عشر

1) مراثي الاندلس

أثارت النكبات المتتالية في الأندلس قرائح الكتاب والشعراء على مدى توالي هذه النكبات؛ فكتبت الرسائل الطويلة والقصائد العديدة: استنهاضاً لهمم القوم، أو استنجاداً بالغير، أو بكاءً على ما ضاع وأفلت من أيدي المسلمين. ومن أروع وأسير ما قيل في هذا الشأن قصيدة أبي الطيب صالح بن شريف الرُندي، قالها إثر النكبة التي لم تُبْقِ إلاّ مملكة غرناطة الضيقة الحدود. والقصيدة في نيف وأربعين بيتاً. استفتحها ابن الرندي بأبيات في الزهد والتأسي وتغلّب الزمان على الدول والملوك والجبابرة. ثم تخلص الى الحديث عن الجزيرة وما دهاها، وتعداد أهم مدنها. وتنتهي القصيدةبهذه الأبيات المثيرة:

أعندكم نبأ من أَهـل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم رُكبان

كم يستغيث بنو المستضعفين وهم ... أسرى وقتلى فما يهتزّ إنسان

ماذا التقاطعُ في الاسلام بينكم ... وأنتمُ يـا عباد الله (إخـوان)

أَلاَ نفوس أبيّاتٌ لهـا هِمَم؟ ... أَمَا على الخير أنصار وأعوان؟

يا مَنْ لذلة قوم بعـد عزهم ... أَحـال حـالهم كفـر وطغيـان

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهمُ من ثياب الذل أَلوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتْك أحزان

يا رب أمّ وطفل حيل بينهما ... كمـا تفـرق أرواح وأَبـدان

وطفلة ما رأتها الشمس إذ برزت	كـأنما هي يـاقوت ومـرجان
يقودها العِلجُ للمكروه مكرهة	والعين باكية والقلب حيـران
لِمثِل هذا يذوب القلب من كمد	إن كان في القلب إسلام وإيمان

ولما قدم المقري هذه القصيدة في كتابه «ازهار الرياض» قال «لله در أبي الطيب... الرندي اذ قال يندب بلاد الاندلس ويبعث العزائم ويحركها من أهل الاسلام لنصرة الدين وإنقاذ البلاد من يد الكافرين ولسان الحال ينشده (لقد أسمعت لو ناديت حياً).

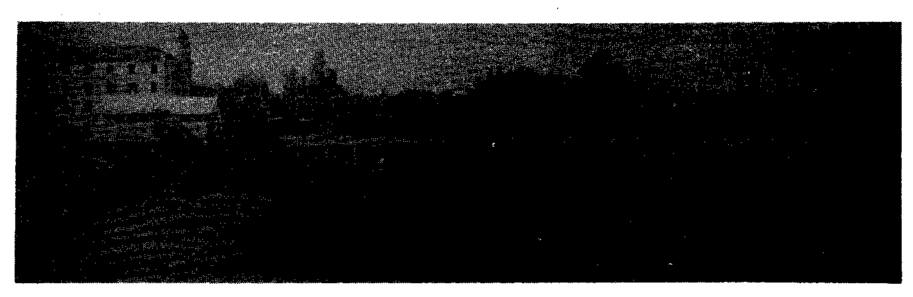
(ازهار الرياض ج 1 ص47)

2) الهجرة الأندلسية الى تونس[1]

تدفقت سيول مهاجري الأندلس الى المغرب العربي منذ اشتداد حركة الاسترجاع، وبلغت أقصاها بعد قرار النفي والجلاء. وكان حظ البلاد التونسية من هؤلاء المهاجـرين أوفر من بقيـة الاقطار. ونـزول الاندلسيين بتونس بدأ منذ تأسيس الدولة الحفصية، فقد استنجد أهالي بلنسيـة بأبي زكـرياء الحفصي، وجـاءتـه البيعـة من جهـات مختلفـة بالأندلس. ومن أشهر المهاجرين في ذلك العهد: ابن الابار القضاعي، حـازم القرطـاجني، ابن عصفور الاشبيلي، وعـائلة ابن خلدون وابن سعيد. وقد استفادت الدولة الحفصية من هؤلاء المهاجرين في الحركة العلمية والأدبية، التي ازدهرت زمن الحفصيين بعد كساد العلم والادب في البلاد نتيجةً للزحف الهلالي على افريقية.

اما في الجلاء الأخير فان الاستفـادة كانت أعـظم في النواحي الاقتصادية والصناعية، فقد جلب هؤلاء المهاجرون مختلف الصناعات

(1) انظر عن هذه الهجرة ـ مصير الاندلسيين للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، والمجلد الاول من مجلة الثريا التونسية، والمؤنس لابن ابي دينار، وخلاصة تاريخ تونس للمؤرخ الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب.



ـ معمل «الباطان» (لتبطين) اي تلبيد الشاشية التي جلبها الى تونس مهاجرو الاندلس (القسم الاسلامي من إدارة الآثار بتونس)

التي كانوا يتقنونها بالأندلس، ومن اشهرها صناعة الشاشية ونقش الرخام والجبس، والجليز ونسج الحرير وتجليد الكتب وزخرفتها والخزف المطلي وطُرُق الري والزراعة والفلاحة وهندسة البناء وتعبيد الطرقات.

وكانت بداية هجرة المنفيين زمن الوالي التركي «عثمان داي»[1] ففسح لهم الطريق. وأكرم الناس وفادتهم؛ فاستوطنوا البلاد وعمروا كثيراً من مناطق البادية وأسسوا القرى وجددوا بعض المدن القديمة، فقد سكنوا بتونس وبنزرت ونابل وأسسوا مدناً أخرى:

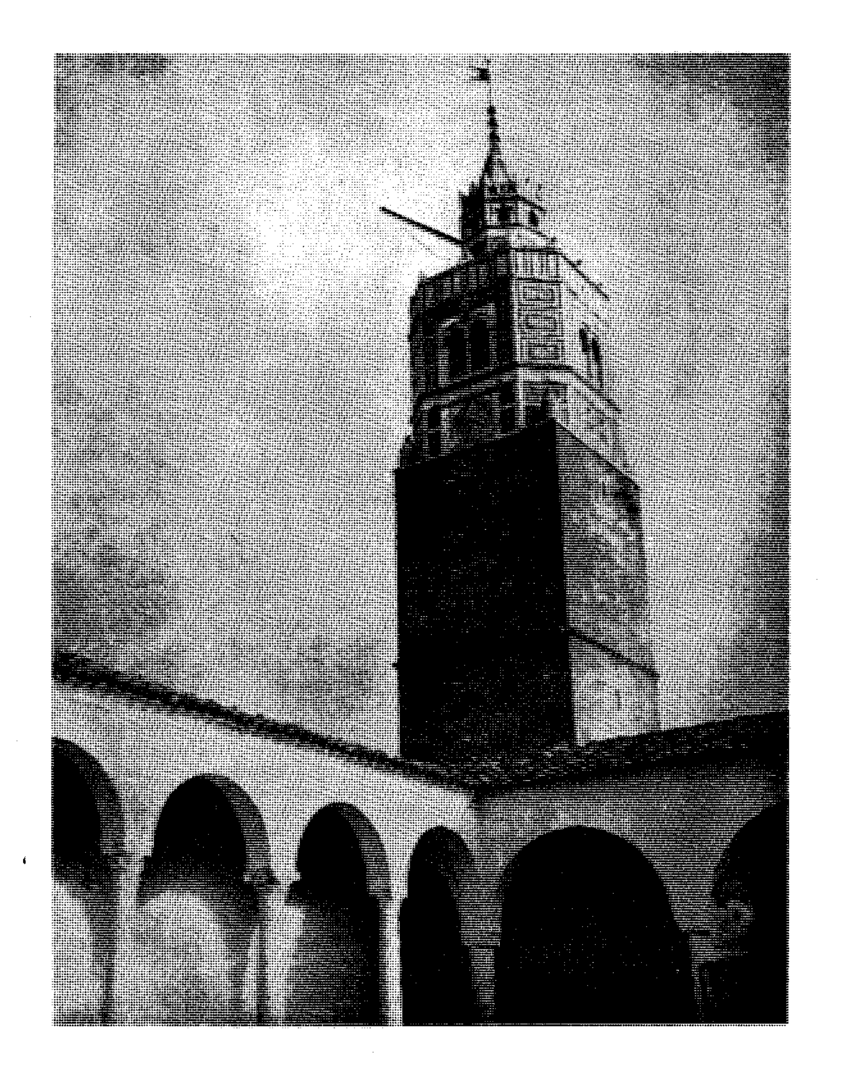
أ) قرب بنزرت: العالية ـ منزل جميل ـ منزل عبد الرحمان.

ب) بالوطن القبلي: سليمان ـ نيانو ـ منزل أبي زلفى ـ منزل تميم ـ قرنبالية ـ تركي ـ بلّي ـ دار شعبان ـ الفهري ـ زغوان.

ج) على ضفاف مجردة: تستور ـ مجاز الباب ـ السلوقية ـ قريش الواد ـ طبربة ـ الجديدة ـ قلعة الاندلس ـ غار الملح.

ومازالت الى اليوم كثير من العائلات تحتفظ بألقابها الاسبانية منذ ذلك العهد مثل: نيقرو ـ كريستو ـ الكوندي ـ مريشكو ـ باتيس ـ مركيكو ـ بتريكو إلى غير ذلك.

(1) استقل بمنصب «داي» على تونس من 1007 الى 1019 هـ.



منارة ومسجد قَرية «تستور(1)» التونسية، من بناء مهاجري الاندلس إلى تونس بعد محنة التنصير والجلاء.

(القسم الاسلامي من إدارة الاثار بتونس)

---

(1) انظر عن تستور وجامعها الكبير دراسة الاستاذ جورج مارسي؛ تعريب الاستاذ مصطفى زبيس بمجلة الثريا مجلد سنة 1945

الفصل الرابع عشر

الصّراع على المغرب بين الاسبان والعثمانيّين

1) نزول البرتقيز والاسبان بسواحل المغرب العربي
2) نجدة الأتراك العثمانيين والتغلب على الاسبان



1) نزول البرتقيز والاسبان بالسواحل المغربية

دواعي النزول بالمغرب

لم يكن نزول الاسبان والبرتقيز (البرتغال) بالسواحل الافريقية إلا صفحة أخرى من الحروب الصليبية التي شنها العالم المسيحي على العالم الاسلامي. وقد سبقهم إلى النزول بهذه السواحل: الجنويز والبيزان والفرنسيون والنرمان. زمن الحروب الصليبية بالمشرق، ولم يكن في مستطاع الاسبان والبرتقيز ـ إذ ذاك ـ أن يقوموا بالحملات الصليبية خارج بلادهم إذ كانوا مشغولين بحروبهم الصليبية في شبه الجزيرة.

وكان فشل الصليبيين في المشرق، واحتلال الأتراك العثمانيين للقسطنطينية وتهديدهم لأروبا الغربية والوسطى بخطر الاستيلاء والاكتساح، وظهور سيادة الأتراك البحرية في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط؛ كان كل ذلك ـ مع النجاح الذي أحرزته النصرانية على المسلمين بالاندلس ـ دافعاً بالاسبان والبرتقيز على متابعة الغزو والاكتساح للاسلام والمسلمين في القارة الافريقية، باذلين أقصى الجهد لارضاء البابوية وتحريضات رجال الكنيسة الكاثوليكية، الذين لم ينوا عن تحريضهم وتأييدهم. وكان «هنري الملاح» (ملك البرتغال) قد اقتنع بوجوب الاتصال بملك الحبشة المسيحي[1]، الذي تكاثرت الأخبار عن

(1) اسم القس يوحنا (Prêtre Jean) وبالانكليزية (Prester John) لعب دوراً خرافياً كبيراً في =

تقواه وورعه؛ فاذا ساير السواحل الافريقية واتصل بهذا الملك المسيحي، فانه يسهل التعاقد والتحالف معه ضد المسلمين. وبذلك يمكن استرجاع بيت المقدس عن طريق الشرق والجنوب بعد أن فشلت المحاولات عن طريق الغرب والشمال، وبعد أن فقد الصليبيون الآمال التي كانوا يعقدونها على المغول الوثنيين، الذين صهرهم الاسلام في بوتقته وأصبحوا مسلمين.

وسببٌ آخر دعا الى هذا النزول يتمثل في فكرة الانتقام من مراسي المغرب العربي، التي كانت مراكز الغارات البحرية ضد السواحل والسفن الاسبانية؛ فان الكثير من المهاجرين الأندلسيين كانوا عندما يستقر بهم الأمر في المدن الافريقية يعملون على الانتقام من الاسبان الذين أخرجوهم من ديارهم. وقد اكتسبت هذه الغارات صبغة الجهاد، فكان يشاركهم في ذلك كثير من سكان السواحل الافريقية، فيركبون السفن وينزلون بالسواحل الاسبانية[1] لانقاذ إخوانهم «الموريسكو» من خطر الفناء والتنصير، كما كانوا يغيرون على السفن النصرانية ويعودون بما فيها وَمن فيها غنائم وأسرى. وتكونت بذلك قرصنة إسلامية ما كان يعرفها البحارة المسلمون في السابق. وإنما دعت إليها فكرة الجهاد والانتقام من الاسبان؛ سيما بعد أن ضعفت أساطيل دول المغرب العربي وتلاشت؛ فقامت مقامها هذه الأساطيل الفردية.

وإذا اضفت الى ذلك ما كان يحز في نفوس الاسبان والبرتقيز من تلك النجدات التي كانت ترسلها السواحل الافريقية إلى مسلمي الأندلس منذ عهد المرابطين الى ضعف بني مرين، وأن سلامَتهم وتفوقَهم إنما يتمثلان في ضعف هذه السواحل بَلْه الاستيلاءَ عليها، إذا اضفت هذا الى ما تقدم رأيتَ وفرة الدواعي التي دفعت البرتقيز والاسبان إلى محاولة

= العصور الوسطى والحروب الصليبية، فاطلق اولاً على رؤساء قبيلة القرايت (Kéraït) المسيحية بآسيا الوسطى، الذين كانوا يتعاونون مع نصارى الغرب للقضاء على الاسلام. فلما ساد الاسلام في الاوساط المغولية أطلق المسيحيون هذا الاسم على بعض ملوك الحبشة ـ انظر معلمة لاروس والدعوة الى الاسلام ص 192.

(1) يذكر مثلاً صاحب غزوات عروج وخير الدين ان جملة من أنقذهم خير الدين في سبع حملات فقط بلغ (70) الفا ص 82.

الاستقرار بسواحل المغرب العربي واحتلالها. وقد كان الاضطراب السياسي في هذه الاقطار يساعد كثيراً على غزوها واكتساحها.

ضعف دول المغرب الاسلامي

أطلّ القرن العاشر الهجري، والمغرب الاسلامي في ضعف وتدهور وانقسام، من طرابلس الغرب الى رباط الفتح، فقد تداعى الحفصيون بتونس والزيانيون بتلمسان الى التدهور والسقوط، فاستبدّ الأعراب بالداخل واستقلّت مدن السواحل. وأصبح السلطان الحفصي - في بعض الحالات - لا يشمل نفوذه إلا مدينة تونس وضواحيها. ولم يكن حظ الملك الزياني في تلمسان بأحسن من حظ الملك الحفصي. أما المغرب الاقصى فقد كان في نزاع داخلي عنيف فيما بين بني وطاس أنفسهم أو فيما بينهم وبين الأشراف السعديين.

البرتقيز بسواحل المغرب الأقصى

بدأ نزول البرتقيز بالسواحل المغربية منذ أن تسرّب الضعفُ الى دولة بني مرين، واشتدَّ نزاعُها مع بني وطاس ففي سنة 818 هـ (1415م) نزل البرتقيز في مدينة سبتة بقيادة «هنري الملاح» ووضعوا حمايتهم عليها. ولم يكن هذا النزول المبكِّر بعيداً عن المبدأ الصليبي وحركة الاسترجاع الاسبانية.

وازدادت حركة النزول البرتقيزي عنفاً بعد استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية سنة 857 هـ (1453م)، فقد جهز ملك البرتغال «الأذفونش الخامس» أسطولاً كبيراً ونزل بالقصر الصغير بين سبتة وطنجة 862 هـ (1458م). ولم يكن بنو وطاس بقادرين على دفع هؤلاء

الغزاة، مما جعل البرتقيز يستولون سنة 869 هـ على طنجة، وبعد ذلك على آصيلا وآنفي 876 هـ (1471م).

وفي القرن العاشر الهجري (السادس عشر المسيحي) استولى البرتقيز على الجديدة - والعرائش - وأغادير - ورباط آسفي - وآزمور - والمعمورة (مهدية المغرب). ولم تأت سنة 926 هـ (1520م) حتى كان الساحل الغربي للمغرب الأقصى خاضعاً لحكم البرتقيز وتحت سيطرة حصونهم[1].

الاشراف السعديون يطردون البرتقيز

في الوقت الذي كان البرتقيز يستغلون فيه ضعف بني وطاس ليستقروا بالمغرب الأقصى، انبعثت حركة إصلاحية جديدة، أعانها على النجاح هذا الاحتلال النصراني للبلاد، وضعف بني وطاس عن الدفاع، وسوء سلوكهم مع الرعية.

ابتدأت هذه الحركة الجديدة منذ سنة 915 هـ (1509م) بزعامة عبد الله القائم السعدي[2] حين دعا الى الجهاد ضد البرتقيز. ولم يبق هؤلاء البرتقيز متجهين تمام الاتجاه إلى المغرب؛ فقد أصبحوا مشغولين بحركة الاكتشافات البحرية والجغرافية بالشرق الأقصى والدنيا الجديدة «أمريكا». وهذا ما أعان السعديين - إلى حدّ ما - على النجاح. ولما تولّى أبو العباس الاعرج (ابن القاسم) سنة 923 هـ (1517م) ازداد السعديون انتصاراً على البرتقيز وعلى بني وطاس: إذاستولى أبو العباس على

(1) انظر إجمال هذا النزول بكتاب الاستقصاء لأحمد الناصري - ج 2 ص 156 وانظره مفصلاً في مواضع مختلفة من الكتاب.

(2) السعديون: يتفق المؤرخون على أن السعديين من العرب، ولكنهم يختلفون في صحة نسبهم الى آل ابي طالب. ومهما كان الأمر فان لقبهم الذي سار في مجرى التاريخ انما هو الاشراف السعديون تمييزاً لهم عن الاشراف العلويين الذين حلوا محلهم في المغرب الاقصى الى هذا الوقت.

مراكش بعد سبع سنوات من ولايته. إلاّ أنّ أخاه محمد الشيخ (المهدي) أمكنه أن يسجل انتصارات أكبر على البرتقيز، فقد استرجع منهم: فونتي - آسفي - آزمور - آصيلا - فيما بين سنتي (947 - 948 هـ) وفي سنة 956 هـ (1549م) استولى على مدينة فاس وقضى على الوطاسيين؛ ولم يسلم منهم إلا أبو حسون، الذي فر الى بلاد الجزائر والتجأ الى الأتراك. وبذلك خلص المغرب الأقصى للسعديين بعد أن قضوا على البرتقيز وبني وطاس معاً.

جولة البرتقيز الاخيرة في المغرب الاقصى

في سنة 983 هـ (1575م) آل أمر السعديين الى المتوكل على الله (ابن الغالب بالله) وكان المتوكل يضمر الشرَّ لعَمَّيْهِ (عبد الملك ابي مروان - وأحمد المنصور) فخرجا من المغرب واتجها الى السلطان العثماني بالقسطنطينية ليستنجدا به ضد ابن أخيهما (المتوكل) وانتهز السلطان العثماني الفرصة فبعث بجيش (من الجزائر) مع عبد الملك أبي مروان، فانتصر على المتوكل سنة 984 هـ (1576م) وانتصب ملكاً على البلاد المغربية. ولم يرَ عبد الملك المهزوم بدّا من الالتجاء الى ملك البرتغال «دون سبستيان Don Sébastien» والاستنجاد به ضد عمه عبد الملك. وقد اشترط «سبستيان» المذكور أن يسلم اليه المتوكل جميع سواحل بلاد المغرب الاقصى، ويكتفي هو بالداخل. وعلى هذا الشرط أقبل ملك البرتغال في جيش عدده مائة وخمسة وعشرون ألف مقاتل[1] مع (300) من أتباع المتوكل. وفي ربيع الثاني 986 هـ (أوت 1578م) خرجت جيوش البرتقيز من مدينة طنجة، فالتقوا بعبد الملك بوادي المخازن قرب قصر كتامة. ورغم قلة الجيش المغربي (40 الفاً) فقد انجلت المعركة عن

1) ص 73 نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي تأليف محمد الصغير الوفراني طبع باريس 1887م. وكان يضم الجيش زيادة على البرتغاليين جنوداً من الالمان والطليان ص 210 ج (Ch. 2) (A. Julien.

هزيمة كبرى للبرتقيز. وحملت المعركة في طياتها مصادفة عجيبة بموت الملوك الثلاثة: عبد الملك - المتوكل - سبستيان. أما عبد الملك فقد وأفاه الأجل في محفته منذ نشوب المعركة، واما المتوكل وسبستيان فقد قتلا في ساحة المعركة. وبذلك خلا الجو لأحمد المنصور (الذهبي) فانتصب ملكاً على المغرب الأقصى، الذي أُنقِذ من غزوة برتغالية جامحة. ويعتبر أحمد المنصور من أشهر الملوك السعديين، امتدت سلطنته وفتوحاته الى بلاد السودان.

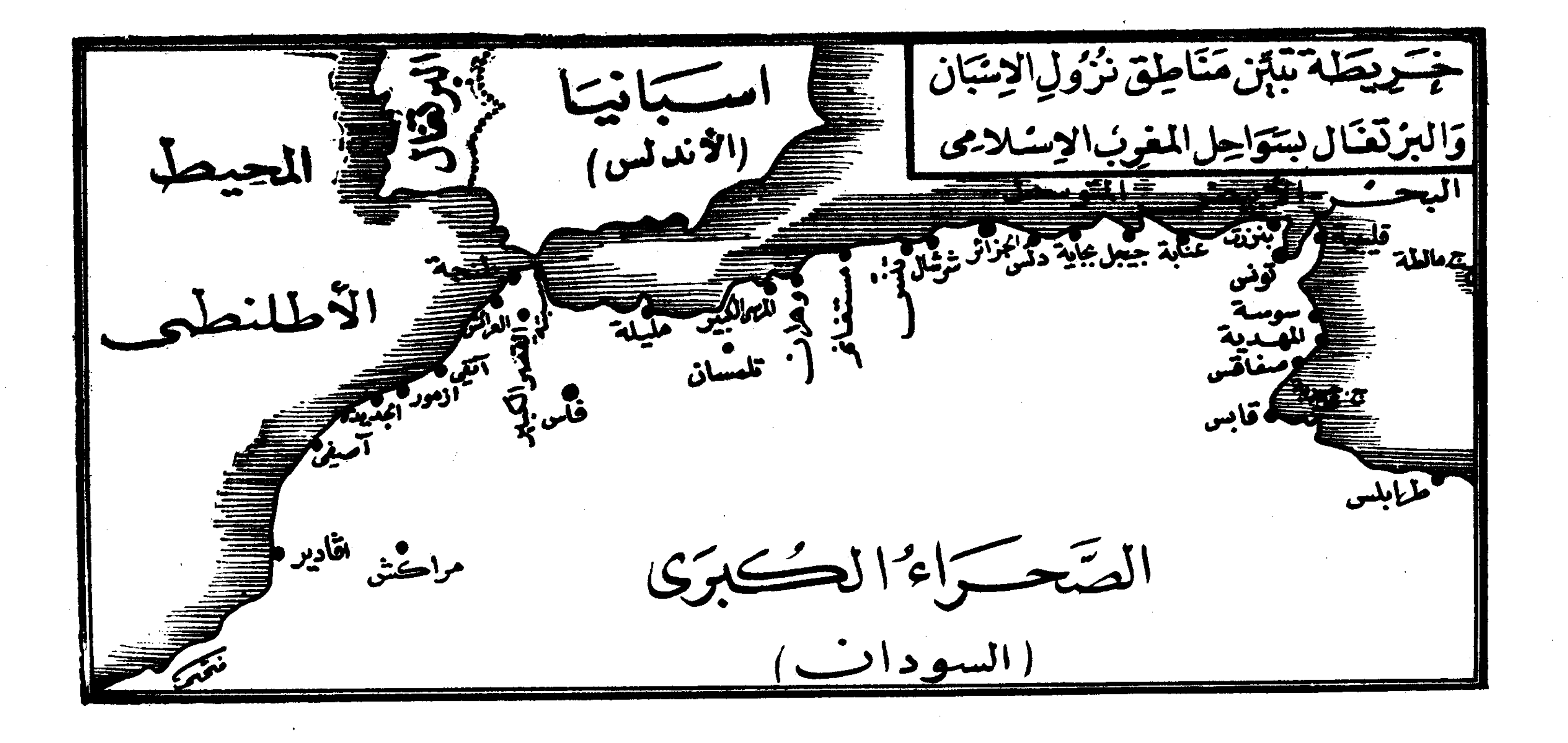
2) صراع الاسبان والعثمانيين من أجل المغرب الاوسط والادنى

تفاقم نزول الاسبان بالسواحل الافريقية منذ سنة 911 هـ (1505م) بقيادة «بيدرو نفارو» «Pédro Navarro» فقد احتلّوا المرسى الكبير. ثم وهران سنة 914 هـ (1509م) مرتكبين أشنع الجرائم؛ فقد قتلوا أربعة آلاف مسلم، وحولوا مسجدين فيها الى كنائس. ثم تابعوا سيرهم حتى خضعت لهم مدن: عنابة - تَنَس - شَرشال دلَس - مستغانم - الجزائر - طرابلس. كما أن صاحب تلمسان خضع لهم وأصبح تحت حمايتهم. وكان الاسبان حريصين على إخضاع هذه السواحل إليهم لتتم لهم السيادة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. ولكي يقارعوا الأساطيل العثمانية، التي أصبحت لها السيادة في حوضه الشرقي.

الأخوان عروج وخير الدين

أصل هذين الرجلين[1] من جزيرة مدللي اليونانية، التي استولى

(1) انظر عنهما كتاب غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول. تحقيق نور الدين عبد القادر طبع الجزائر سنة 1353 هـ - 1934م. والكتاب وإن كان لا يخلو من المبالغات إلا أنه يفيد كثيراً عن أعمال هذين الاخوين وما كان لها من أثر في مجرى السياسة الدولية.



الحروب الصليبية ـ خريطة عده (10)

عليها السلطان العثماني «محمد الفاتح»، واستوطنها البعض من جنوده، منهم يعقوب الذي تزوج هناك بنصرانية أنجبت له (اسحاق - عروج - خير الدين - إلياس). واشتغل هذان الأخوان بالتجارة البحرية. ولكن حادثة أسْر حصلت لعروج من قراصنة «رودس» حوَّلت مجرى حياته؛ فعمل على القرصنة والانتقام من النصارى. ثم ألقت به عصا التسيار لدى أبي عبد الله محمد الحفصي (899 ـ 932 هـ) فسمح له بالاقامة في البلاد التونسية بجزيرة جربة على أن يعطيه خمس الغنائم التي يستحوذ عليها. وبعد مدة التحق به أخوه خير الدين.

اتجهت أنظار عروج الى السواحل الجزائرية حيث يسود الاسبان فاستولى على جيجل. وأغراه الأمير الحفصي باسترجاع عنابة وافتكاكها فلم يسعفه الحظ. ثم استولى على شرشال. واستنجد به سكان مدينة الجزائر فأنقذها من خطر الإسبان، ما عدا الحصن الإسباني «بنون Penon» الموجود باحدى الجزائر الأربع الواقعة أمام المدينة. ورغم الحملة الاسبانية التي قادها «دياقو دوفيرسا Diego de Versa» لاسترجاع الجزائر فقد هزمهم عروج وكبدهم خسائر فادحة، مما جعل سكان مدينة تلمسان يستنجدون به ضد الاسبان وملِكهم الزياني الخاضِع للحماية الاسبانية. وأمكن لعروج أن يستولي على مدينة تلمسان. إلا أن نجدة إسبانية كبيرة قدمت الى تلمسان، وبعد ستة أشهر من القتال والمحاصرة انتصر الاسبان واستشهد عروج مع جماعة من أصحابه سنة 924 هـ (1518م) أما أخوه خير الدين فبقي مستولياً على مدينة الجزائر ونواحيها.

الاتصال بالسلطنة العثمانية

كان عروج يشعر بقلة العصبية التي تُكْثِرُ من أنصاره. وكان في حاجة الى صبغة شرعية لامتلاكه الأمصار والأراضي. ولهذا ربط حظوظه بالسلطنة العثمانية، فأصبح يغزو باسمها. وكانت السلطنة العثمانية حريصةً على مثل هذا. أما الاسبان وأحلافهم (دول البحر الأبيض

المتوسط من النصارى) فقد هالهم الأمر واستعدّوا لعمل أكبر. على أن هذه التبعية للدولة العثمانية ازدادت توثقاً بعد وفاة عروج؛ فقد اعترف أخوه خير الدين «بربروس»[1] بتبعيَّته للسلطان العثماني، فأصبح يخطب باسمه ويدعو له على المنابر. وعينه السلطان العثماني (سليمان القانوني) والياً على الجزائر برتبة بكلر بك (أمير أمراء) ولقبِ باشا. وأخذت الإمدادات ترد عليه من القسطنطينية.

وتصدَّى خير الدين باشا لمجابهة الاسبان والعمل على إخضاع البلاد الجزائرية وإلحاقها بالسيادة العثمانية، فاستولى على: القالة، عنابة، قسنطينة، متيجة. وفي شهر ماي سنة 1529م (935 هـ) استسلمت إليه الحامية الاسبانية المعتصمة بالحصن الاسباني «بنونPenon» فذاع بذلك صيته وعظم نفوذه.

النزاع على تونس

كانت الدولة الحفصية في ذلك الزمن على غاية من الضعف والتدلّي. ولا يكاد نفوذ الحسن بن أبي عبد الله الحفصي يتجاوز مدينة تونس وضواحيها، فقد استقلّت أطراف البلاد واستولى الاسبان على طرابلس منذ سنة 916 هـ.

وأمام هذه الحالة من ضعف الحفصيين، وخشيةً من استيلاء الاسبان على تونس، وإرضاء لمطامح السلطان العثماني، عزم خير الدين (والي الجزائر) على إلحاق تونس بالسيادة العثمانية، فقدم إليها وسرعان ما أمكنه[2] الاستيلاء عليها، وخطب باسم السلطان العثماني في مساجدها.

---

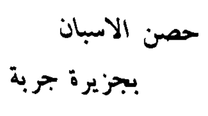
(1) بربروس (Barbe Rousse) اي اللحية الشقراء. هكذا كان يطلق الاوروبيون على خير الدين هذا اللقب الذي اشتهر به في تلك العصور وما بعدها.

(2) يرجح صاحب المؤنس أن هذا الاستيلاء كان سنة 935 هـ او 936 هـ وتبعه من أتى بعده مما يجعل مدة سيادة خير الدين على تونس نحواً من خمس سنوات أو ست. ولكن مؤرخي الافرنج لا يجعلون هذا الاستيلاء يمتد لاكثر من عام وشهر من اوت 1534م الى =

ولم يسع الملك الحفصي (الحسن) إلا الفرار والهروب. وبعد أن فشل في إثارة العرب ضد خير الدين ذهب يستنجد بالامبراطور الاسباني «شارلكان» الذي كان يتابع سياسة أسلافه (ملوك الاسبان) في مطاردة المسلمين والنيل منهم. ولهذا انتهز شارلكان الفرصة وجاء بجيوش جرارة الى تونس 942 هـ (1535م) فاستولى على حلق الوادي. ثم زحف الى تونس (العاصمة) وأرجع الحسن الحفصي إلى عرشه بعد أن دخل تحت حمايته، وأمضى معه معاهدة توجب الترخيص للاسبان في سكنى جميع أنحاء البلاد وإقامة شعائرهم الدينية، والتنازل للاسبان عن حلق الوادي وبنزرت وعنابة، ودفع أتاوة سنوية قدرها اثنا عشر الف دوكة عملة الاسبان في ذلك الوقت.

ورجع خير الدين باشا الى الجزائر عندما رأى عدم القدرة على صدّ زحف الامبراطور شارلكان. ورغم ثورة التونسيين ضد الحسن الحفصي، حليف الاسبان، وتغلبهم بزعامة أبي العباس أحمد الحفصي، فان الاسبان ازدادوا تمكناً من البلاد واحتلّوا المهدية وجزيرة جربة. وازدادت الحماية الاسبانية تمكناً فيما بعد بولاية محمد بن الحسن الحفصي سنة 980 هـ (1572م) الذي دخل تحت حماية الاسبان من جديد على شكل أشدّ من الحماية الأولى.





حصن الاسبان
بجزيرة جربة

= جويلية 1535م. قارن بين ما ورد في الكتب العربية والافرنجية، وقابل ذلك بالتاريخين الهجري والمسيحي.

عودة الصراع بين الاسبان والعثمانيين

كان النزاع بين الاسبان والعثمانيين لا يتمثل في السواحل الافريقية فقط، بل كان يجري كذلك حول سيادة البحر الأبيض المتوسط. وقد استطاع الأسطول العثماني أن يمتلك سيادة هذا البحر. مما جعل الأساطيل النصرانية تتجنب ملاقاته إلا متحدةً متحالفةً، سيما بعد أن أصبح خير الدين «بر بروس» متولياً قيادة الأسطول العامة «قبودان باشا».

وعندما انتدب خير الدين لهذه القيادة خلفه على ولاية الجزائر حسن آغا. وفي عهد هذا الوالي: سنة 948 هـ (1541م) هاجم شارلكان مدينة الجزائر في أسطول كبير بلغت قطعه (516) سفينة.

ولكن أمام ثبات الأتراك في الدفاع، وعواصف البحر الهائجة، انهزم الاسبان انهزاماً فظيعاً وباءت حملتهم بالفشل؛ مما جعل محمد الزياني (صاحب تلمسان) يخلع حماية الاسبان وينضوي تحت سيادة الأتراك، فسلَّم إليهم حصن المشور بتلمسان[1]. على أن عنصراً ثالثاً دخل في النزاع على تلمسان، هم السعديون بالمغرب الأقصى. إلا أن النهاية كانت لفائدة الأتراك، فخلصت لهم بذلك البلاد الجزائرية[2] سنة 957هـ (1550م).

طرد النصارى من طرابلس الغرب والجنوب التونسي

استولى الاسبان على طرابلس الغرب منذ 916 هـ (1510م) وكان ما

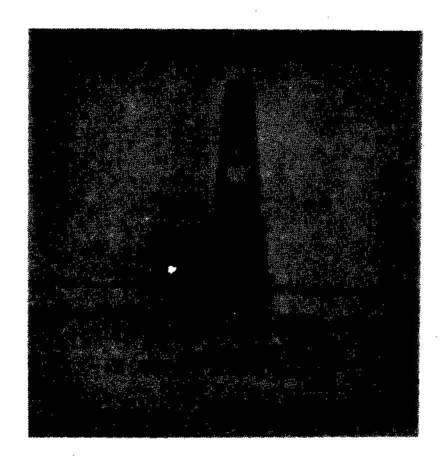
---

(1) المشور قصر بني سنة 540 هـ سكنه ولاة دولة الموحدين وبعدهم ملوك بني زيان، سمي المشور لانهم كانوا ينصبون فيه ديوان وزرائهم، وموقعه في جنوب هذه ـ المدينة ـ عن تعليقات نور الدين عبد القادر لكتاب غزوات عروج ص 15.

(2) لم يبق للاسبان إلا مدينة وهران ومنطقة ساحلية صغيرة بقوا فيها أكثر من قرنين ونصف وكان خروجهم منها نهاية سنة 1792م ـ دائرة معارف لاروس الفرنسية.

عليه البلاد من ضعف قد مكن الاسبان من الاستيلاء عليها بسهولة. واستبدّ فيها الاسبان وظلموا. ثم تنازل عنها شارلكان لفرسان القديس يوحنا (فرسان مالطة)[1] الذين كانوا يعملون معه ضد بني عثمان. ونتيجة لاستبداد النصارى واستيلائهم على البلاد ذهب وفد من طرابلس مستنجداً بسليمان القانوني ضدّ النصارى، فبعث معهم «مراد آغا» وسمّاه والياً على طرابلس. وجاء هذا الوالي الى «غريان» وبايعه أهلها سنة 952 هـ. إلا أنه لم يستطع التغلب على المحتلين وإخراجهم من البلاد. حتى إذا كانت سنة 958 هـ مرّ الأسطول العثماني أمام طرابلس بقيادة «طور غود باشا» فاستنجد به «مراد آغا» والطرابلسيون، فعرج بأسطوله على طرابلس وأخرج النصارى منها. ولما علم السلطان العثماني بهذا النصر سماه والياً عليها. وبعث إليه بالولاء سكان قابس وجربة[2].

وفي سنة 966 هـ حاول الاسبان الهجوم على طرابلس فباؤا بالفشل ورجعوا خائبين. وفي هذه الأثناء سنة 967 هـ (1560م) وقعت معركة



برج الرؤوس

لما استولى الأتراك على جزيرة جربة وقتلوا حاميتها النصرانية جمعوا عظامها كومة وأطلقوا عليها «برج الرؤوس». وقد استمر ذلك الى سنة 1263 هـ (*1846* م) فقد عوض بمسلة صغيرة بعد تدخل سفراء الدول الغربية.

---

(1) انظر عن هؤلاء الفرسان ملحقات الفصل الخامس.

(2) عن التذكار لابن غلبون ص 94

جزيرة جربة المشهورة بين الأسطول العثماني وأساطيل الحلف الأروبي (اسبانيا ـ مالطة ـ جنوة ـ فلورانسة ـ صقلية) انتهت بفوز العثمانيين وانتصارهم.

وكانت القيروان مستقلة عن السلطان الحفصي تحت سيادة الشابيين:[1] الشيخ عرفة ثم ابن اخيه محمد ابن أبي الطيب. وكانت لهما حروب مع السلطان احمد الحفصي. واستنجد أهالي القيروان بوالي طرابلس «درغوث باشا» فجاء من طرابلس وضمَّ القيروان الى سيادة العثمانيين، وولى عليها «حيدر باشا» سنة 965 هـ (1558م).

استيلاء بني عثمان نهائياً على تونس بطرد الاسبان والقضاء على سلطنة بني حفص

قام «أولوغ علي باشا» والي الجزائر بمحاولة ثانية لاحتلال تونس بعد أن حرّضه على ذلك أحد وزراء أبي العباس أحمد الحفصي، فأقبل علي باشا سنة 977 هـ (1569م) واستولى على تونس. إلا أنّ أحمد الحفصي أعاد الاستنجاد بالاسبان، فاقبلوا بقيادة «دون جوان Don Juan d'Autruche» سنة 980 هـ (1573م) وأرجعوه الى منصبه. ولم يقبل أبو العباس أحمد الحفصي شروط الحماية الاسبانية فقبلها أخوه محمد بن الحسن. وتولى السلطنة الحفصية الاسمية تحت سيادة الاسبان وإدارتهم.

وكانت هذه الحماية الاسبانية الجديدة بتونس، مع ما سبقها من هزيمة الاسطول العثماني أمام الدول المتحدة في معركة «لبانتو»[2] سنة

(1) المونس لابن أبي دينار ص 144.

(2) (Lépante) وقعت هذه المعركة بسواحل اليونان وتتمثل الدول المتحدة في أساطيل (مملكة البابا ـ رهبنة مالطة ـ اسبانيا ـ صقلية ـ البندقية ـ فرنسا) انظر المعركة مفصلة في كتاب حقائق الاخبار عن دول البحار ص 558 ج 1.

979 (1571م) دافعة العثمانيين الى الاهتمام بتونس والعمل على إخراج الاسبان منها؛ فأقبل حيدر باشا من القيروان ومصطفى باشا من طرابلس والتقيا بالمحمدية. ثم تقدمت الجيوش التركية إلى تونس لمحاصرتها من ناحية البر، بينما أقبل سنان باشا في أسطول كبير من ناحية البحر. وبعد مدة أقبل رمضان باشا في جيش من بلاد الجزائر. وهكذا اجتمع قواد الأتراك وتضافرت جهودهم. واشتدت الحرب واستعرت نارها. وبعد أربعين يوماً استسلمت قلعة حلق الوادي المنيعة، ثم تبعها حصن «الباستيون Bastion» وقلعة جزيرة شكلي سنة 981 هـ (1574م)[1] وبذلك استقرّ العثمانيون بتونس، وقضوا على الاسبان والحفصيين معاً. وأُنقِذ المغرب العربي من خطر إسباني، كثيراً ما كانت تغذّيه الروح الصليبية وتحريضات البابوية واتحاد النصرانية.

وأصبحت تونس ولايةً عثمانية، كما أصبحت من قبل بلاد الجزائر وطرابلس الغرب.

---

(1) انظر تفصيل هذه المعارك في المونس من ص 167. اما الباستيون فيحدد مكانه الاستاذ ح.ح. عبد الوهاب بأنه كان يوجد حيث السفارة الفرنسية الان ـ عن خلاصة تاريخ تونس ص 49 طبع سنة 1372.

ملحقاتُ الفصْل الرابع عشر

1) تونس مدة الحماية الاسبانية

قال صاحب المؤنس يصف تونس بعد الحماية الاسبانية الثانية. «فلما علمت أهل تونس بمجيء محمد بن الحسن بعمارة النصارى هربوا من البلد خيفةً من هول الاربعاء[1] وهي الواقعة التي جرت عليهم أيام الحسن. وهرب أكثر أهل تونس الى ناحية جبل الرصاص واختفوا هناك في الدواميس. وهذه الواقعة يعبَّرُ عنها بخطرة الدواميس. وكان الخطب فيها جليلاً. وكانت زمن الخريف وغالب أهل البلاد عرائس؛ فانتهك حجابهم وافتضحوا ونالهم من الهوان ما لم يعهدوه، وصنعوا نواويل في الغابات وسكنوا بها. وتسولوا بين خيام البادية، ونالوا من الخوف والجوع ما لم ينله أحد.

وبعث السلطان محمد بعد ذلك للناس وأمنهم وأمرهم بالرجوع الى البلد. ثم رجعوا؛ فمن وجد داره أخذها، ومن وجدها بيد النصارى وكل أمره إلى الله. وقسمت المدينة قسمين: كفر وإيمان.

وفي تلك الايام أهين المسجد الاعظم (جامع الزيتونة)، ونهبت خزائن الكتب التي به، ودرست بأرجل الكفرة معالم المدارس. وتفرّق ما جمع فيها من دواوين العلوم، وتبددت في الشوارع، حتى قيل إن المار من شرقي الجامع حيث النواوريين[2] ـ الآن ـ إنما يمرُّ على الكتب

(1) وقعت هذه الحادثة لما تغلب الاسبان على خير الدين. قيل إن أهالي تونس قتل منهم الثلث وأسر الثلث وهرب الثلث. وكان الثلث ستين الفاً. المؤنس ص 146.

(2) لم يبق هذا الاسم الان، سوى ما يطلق على مقصورة النواورية بجامع الزيتونة المطلة على نهج جامع الزيتونة وسوق السرايرية.

المطروحة هناك. وضربت النواقيس في الحضرة.

وسمعت بعض أهل البلاد يقول: إن النصارى ربطوا خيولهم بالجامع الاعظم. وفعلوا ما لا تفعله الأعداء بالأعداء. وساكنوا المسلمين صارت الدار بالدار. وسكن القبطان[1] مع السلطان محمد بالقصبة، يجلسان معاً في سقيفتها للحكم. وفي تلك المدة عمر «البستيون» خارج باب البحر من تونس وفصلت أسواقه وحوانيته. وعمر بالكفرة ونال أهل تونس من أهل «البستيون» ما لم ينالوه من غيرهم، حتى كانوا يفتنون الرجل عن دينه. وشاركت النصارى المسلمين في مساكنهم ومعاملتهم وأقاموا معهم تحت القهر والإهانة...».

(المؤنس لابن ابي دينار ص 157)

2) الحكم العثماني بالمغرب العربي

تمَّ استقرار العثمانيين بالمغرب في الوقت الذي بلغت فيه الدولة العثمانية غاية اتساعها وغاية مجدها الحربي والبحري؛ فقد امتدّت أطراف الدولة من حدود المغرب الأقصى[2] إلى بلاد العجم «إيران».

وكان لهذا الامتداد أثره في نظام حكم الأقطار التابعة للدولة العثمانية. وتشابهت أقطار المغرب العربي في كيفية الحكم حسب النظام الذي سنّه خير الدين «بربروس» في الجزائر، فسير على منواله بطرابلس الغرب وتونس. فقد كان على رأس كل ولاية من هذه الولايات الثلاث وال (باشا) يعيّن من قبل السلطان، يكون مطلق التصرف ويكون له التفويض المطلق في عمل ما يراه صالحاً، لاتساع أطراف الدولة وصعوبة المواصلات، برية كانت أو بحرية[3]. وتكون مدته ثلاث سنوات. كما

---

(1) هو «Gabriel Serbelloni».

(2) لم يستول العثمانيون على المغرب الأقصى رغم رغبة سليمان القانوني في ذلك، فقد صمد لهم الاشراف السعديون. على أن العلاقات بين الدولتين كانت طيبة في غالب الاحيان بلغت المساعدات الحربية والهدايا الثمينة.

(3) حقائق الاخبار عن دول البحار ص 447 ج 1.

تسانده قوة عسكرية في الحكم. على أن هذا النظام آل بالخيبة، فقد أخذ الجند يستبدُّ على الوالي حتى أصبح لا يبرم أمراً ولا ينقضه، وانتهى الأمرُ بانتصاب الدايات بتونس والجزائر والبايات بطرابلس. وتبع هذا النظام العسكري استبداد وظلم وإرهاق. وتقهقرت الثقافة في البلاد ـ كما عمت العالم العربي ـ ولم تظهر النهضة العلمية والأدبية في تونس إلا بعد أن استقلت عن السلطنة وانتصبت فيها دولة قارة، هي الدولة الحسينية الحالية[1]، وبدت تخطو الى النهوض والتقدم ومسايرة روح العصر. وكان لهذا نظير في البلاد المصرية بعد أن استقلّ بها محمد علي الكبير. (على أن السلاطين العثمانيين الفاتحين قلّدوا سائر عواهل الأعاجم في ناحية تحصيل العلوم والآداب وتقريب رجال الثقافة والعطف عليهم. بيد أن الدنيا لم تلبث أن صرفتهم عن الناحية الثقافية، وخاصة بعد السلطان سليمان القانوني (1520 هـ ـ 1566م) وألهتهم بأمورها الجسام. ولولا قيام الأزهر في مصر والزيتونة في تونس والأموي في دمشق ومدارس النجف وغيرها من المعاهد العلمية والدينية، وخصوصاً في دار السلطنة، لولا ذلك لانقرضت أيضاً البقية الباقية من الثقافة العربية ـ وأعني بها العلوم اللسانية والدينية)[2].

* * *

انتهى الكتاب بحمد الله

في المحرم 1373 هـ بحاضرة تونس

محمد العروسي المطوي

---

(1) انتهت الدولة الحسينية بعد الاستقلال عندما أعلن المجلس التأسيسي عن إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية يوم 25 جويلية 1957.

(2) قوافل العروبة ومواكبها ـ تأليف جميل بيهم ج 1 ـ ص 173.

كشاف

I ـ المصادر والمراجع العربية والمعرّبة

1) آلات الطبّ والجراحة عند العرب (د. أحمد عيسى ـ مصر بدون تاريخ)
2) أثر الشرق في الغرب (جورج يعقوب، تعريب فؤاد حسنين علي ـ مصر 1946م)
3) أثر العرب في الحضارة الأروبية (عباس محمود العقاد ـ مصر 1946م)
4) الأخبار السنية في الحروب الصليبية (سيد علي الحريري ـ مصر 1329 هـ).
5) أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر (مجهول. نشر شكيب أرسلان ـ مصر 1925م).
6) أدب الحروب الصليبية (عبد اللطيف حمزة ـ مصر1949م)
7) الأدلّة البيِّنة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية (أحمد بن الشماع ـ تونس 1355 هـ).
8) أروبا والإسلام (أغاخان، زكي علي ـ بيروت 1947م)
9) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (أحمد بن محمد المقري ـ مصر 1942م)
10) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (أحمد بن خالد الناصري السلاوي ـ مصر 1312 هـ)
11) الإسلام والنصرانية (محمد عبده ـ مصر 1357 هـ)
12) الاعتبار (أسامة بن منقذ ـ ليدن 1884م)
13) الأعلام (خير الدين الزركلي ـ مصر 1927م)
14) البداية والنهاية (إسماعيل بن كثير ـ مصر ـ مطبعة السعادة)
15) البيان المغرب في أخبار المغرب (ابن عذاري المراكشي ـ بيروت 1950م)
16) تاج العروس شرح القاموس (محمد مرتضى الزبيدي ـ مصر 1306م)
17) تاريخ أروبا في العصور الوسطى (هـ ـ ا ـ ل ـ فشر تعريب مصطفى زيادة والباز العرني ـ مصر 1950م)

18) تاريخ الإسلام السياسي (حسن إبراهيم حسن ـ مصر 1948 ـ 1949م)
19) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين (يوسف أشباخ ـ تعريب عبد الله عنان ـ مصر 1940 ـ 1941م)
20) تاريخ الجزائر في القديم والحديث (مبارك بن محمد الميلى ـ قسنطينة 1932م).
21) تاريخ الدولة العلية (محمد فريد ـ مصر 1893م).
22) تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية (محمد الزركشي تونس 1289 هـ).
23) تاريخ الشعوب الإسلامية (بروكلمان ـ تعريب نبيه فارس ومنير البعلبكي ـ بيروت 1948 ـ 1950م).
24) التاريخ العام للجزائر (عثمان الكعاك ـ تونس 1344 هـ)
25) تاريخ العرب (سيديو ـ تعريب عادل زعيتر ـ مصر 1948م)
26) تاريخ العرب / مطول (فيليب حتي ـ تعريب إدوار جرجي جبرائيل جبّور ـ بيروت 1949 ـ 1950م)
27) تاريخ العرب موجز (فيليب حتي ـ بيروت)
28) تاريخ مصر (إسكندر عمّون ـ مصر 1913م)
29) تاريخ مصر إلى الفتح العثماني (عمر الإسكندري ـ و ـ ج سقدج ـ مصر 1928م).
30) تتمة المختصر في أخبار البشر (عمر بن مظفر بن الوردي ـ مصر 1285 هـ)
31) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخيار (محمد بن خليل بن غلبون ـ مصر 1349 هـ)
32) تذكرة بالأخبار ـ رحلة (محمد بن جبير ـ مصر 1908م)
33) التعريف بابن خلدون (عبد الرحمان بن خلدون ـ تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ـ مصر 1951م)
34) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام (محمد الغزالي ـ مصر).
35) الثريا (مجلة تونسية المجلدان (1 — 2) تونس 1944 ـ 1945م)
36) حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستودارد ـ تعريب عجاج نويهض (والمقصود منه خاصة حواشي وتعليقات شكيب أرسلان ـ مصر 1352 هـ)
37) الحرب الصليبية الأولى (حسن حبشي ـ مصر).
38) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي (محمد سيد كيلاني ـ مصر 1949م).
39) حضارة العرب (غوستاف لوبون ـ تعريب عادل زعيتر ـ مصر 1945م)
40) الحلقة المفقودة في تاريخ العرب (محمد جميل بيهم ـ مصر 1950م)
41) الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (شكيب أرسلان ـ مصر 1939م).

42) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية (محمد لسان الدين-ابن الخطيب - تونس 1350 هـ).
43) حياة صلاح الدين الأيوبي (د. أحمد. بيلي - مصر 1345 هـ - 1926م).
44) خطط الشام (محمد كرد علي - دمشق - 1926م)
45) خلاصة تاريخ الأندلس (تذييل لرواية آخر بني سرّاج - شكيب أرسلان - مصر 1925
46) خلاصة تاريخ تونس (حسن حسني عبد الوهاب - تونس 1372 هـ)
47) الخلاصة النقية في أمراء إفريقية (محمد الباجي المسعودي - تونس 1333 هـ)
48) الدروس الجغرافية (محمد البشير صفر - ط (2) تونس)
49) الدعوة إلى الإسلام (ت - و - أرنولد - تعريب حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين - مصر 1947م)
50) دولة الإسلام في الأندلس - العصر الأول (محمد عبد الله عنان - مصر 1942م).
51) رحلة الأندلس (محمد لبيب البتنوني - مطبعة الكشكول 1927 هـ)
52) رحلة التجاني (محمد بن إبراهيم التجاني - مخطوطة المكتبة الأحمدية - جامع الزيتونة رقم 5058)
53) سيرة القاهرة (ستانلي لينبول - تعريب إبراهيم حسن، إدوار حليم - مصر 1946م).
54) الشرق الإسلامي في العصر الحديث (د. حسين مؤنس - مصر 1938م)
55) الشرق العربي بين شقي الرّحى (حسن حبشي - مصر 1949م)
56) الشرق والغرب أو الخيبة الأدبية (أحمد رضا بك - تعريب محمد بورقيبة ومحمد الصادق زمرلي - تونس مطبعة النهضة)
57) صبح الأعشى في صناعة الإنشا (أحمد بن علي القلقشندي - مصر 1915م)
58) صلاح الدين الأيوبي (محمد فريد أبو حديد - مصر 1950م)
59) طبقات الأمـم (صاعد بن صاعد - بيروت 1912م).
60) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده (محمد جمال الدين سرور - مصر 1938م).
61) العبر (عبد الرحمان بن خلدون - مصر).
62) العـرب والتاريـخ (برنـار لـويس - تعـريب نبيـه أمين فـارس ومحمـد يـوسف زائد - بيروت 1954م).
63) غـزوات عـرّوج وخيـر الـدين (تـأليف مجهـول - تحقيق نـور الـدين بن عبـد القادر - الجزائر 1934م).
64) الفتـح القـسي في الفتح القدسـي (عماد الـدين الكـاتب الأصفهـاني - مصـر 1321م).

65) الفنون الإسلامية (م ـ س ـ ديمانة ـ تعريب أحمد محمد عيسى ـ مصر).
66) قوافل العروبة ومواكبها (محمد جميل بيهم ـ بيروت 1948م)
67) الكامل في التاريخ (علي بن محمد بن الأثير ـ مصر 1938م).
68) كشف الحجب عن مدنية العرب (محمد بن عمّار الورَسَاني ـ تونس 1352 هـ).
69) المجمل في تاريخ لوبيا (مصطفى عبد الله بعيو ـ مصر 1947م).
70) المختصر في أخبار البشر (أبو الفداء إسماعيل ـ مصر 1325 هـ)
71) مدنية العرب في الأندلس (جوزيف ماك كيب ـ تعريب تقي الدين الهلالي ـ بغداد 1950م).
72) معارك الإسلام الكبرى (الصاغ جمال الدين حمّاد ـ مصر 1952م)
73) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (عبد الواحد المراكشي ـ مصر 1949)
74) معجم البلدان (ياقوت الحموي ـ مصر 1323 هـ)
75) معجم الخريطة التاريخية الإسلامية (أمين واصف ـ مصر 1916م).
76) المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا (أحمد توفيق المدني ـ الجزائر 1365 هـ)
77) مفتاح التاريخ (محمد البشير صفر ـ تونس 1928م)
78) ملحق الجزء الأل من تاريخ ابن خلدون (شكيب أرسلان ـ مصر 1936م)
79) منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان (أمين الخانجي ـ مصر 1323 هـ).
80) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام (محمد عبد الله عنان ـ مصر 1934م).
81) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس (محمد بن أبي القاسم الرعيني ـ تونس 1350 هـ)
82) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (يوسف بن تغري بردي ـ القاهرة دار الكتب المصرية)
83) نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي (محمد الصغير الدفراني ـ باريس 1888م)
84) نزهة الناظرين (مرعي بن يوسف الحنبلي ـ مخطوطة المكتبة الصادقية بالزيتونة بتونس رقم 446)
85) النظم الإسلامية (حسن إبراهيم حسن ـ مصر 1939م).
86) نفح الطيب (أحمد بن محمد المقري ـ مصر 1949م).
87) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (محمد عبد الله عنان ـ مصر 1949).
88) النوادر السلطانية (يوسف بن شداد ـ مصر 1317 هـ)
89) نور الدين والصليبيون (حسن حبشي ـ مصر 1948م).
90) وفيات الأعيان (أحمد بن خلكان ـ مصر 1948م).

II - مَراجعُ باللّغات الأجنبيّة

91 - **BRUNSCHVIG ROBERT, La Berberie Orientale sous les Hafsides,** (Tome 1er - Paris 1940)

92 - **DE MAS - LATRIE, Traités de Paix et de Commerce entre les Chrétiens et les Arabes** (Paris, 1866)

93 - **R. DOZY, Supplement des Dictionnaires Arabes.**

94 - **GARRIGOU GRAND - CHAMP, Documents divers relatifs à la Croisade de Saint Louis contre Tunis.**Tunis - Rapide - 1912)

95 - **GASTO WIET, Histoire de la Nation Egyptienne** (Tome IV - Paris - Plon - 1937)

96 - **GROUSSET RENE, Histoire des Croisades** (3 Volumes - Paris - Plon)
l'Epopée des Croisades, (1 Volume - Paris - Plon)
Les Croisades, (Collection Que sais - je N° 157 - Presses Universitaires.

97 - **HARRY W. HAZARD - H. L. COOKE and J. Mc A. SMILEY, Atlas of Islamic History,** (Princeton University Press - 1954)

98 - **JULIEN CH. ANDRE, Histoire de l'Afrique du Nord de la conquête Arabe à 1830,** (Paris - Payot - 1952)

99 - **A . PELLEGRIN, Histoire de la Tunisie,** (Tunis - Namura - 1948)

100 - **LAROUSSE DU XX^{e} Siècle.**

101 - **SYLVESTRE DE SACY, Journal Asiatique,** Tome VII - 1825.

102 - **F. SCHRADER & L. GALLOUEDEC, Atlas Classique,** (Hachette 1948).



فهرس الأعلام

- الهمزة -

ـ البـاء ـ

- الخاء -

- الدال -

- الراء -

- الزاي -

- السين -

- الشين -

- الصاد -

- الضاء -

- الطاء -

- الظاء -

- العين -

- الغيـن -

- الفـاء -

- القـاف -

- الكـاف -

- الـلام -

- الميـم -

- النون -

- الهاء -

- الـواو -

- اليـاء -

فهرس الأمـــاكن

ـ الهمـزة ـ

ـ الباء ـ

ـ التـاء ـ

ـ الثـاء ـ

ـ الجيـم ـ

- الحاء -

- الخاء -

- الدال -

- الراء -

- الزاي -

- السين -

- الشين -

- الصاد -

ـ الطاء ـ

ـ العين ـ

ـ الغين ـ

ـ الفاء ـ

ـ القاف ـ

ـ الكاف ـ

ـ اللام ـ

- الميم -

- النون -

- الهاء -

- الواو -

- الياء -

فهرس الخرائط والصور

فهرس المواد